www.ibtesama.com

مجلة الابتسامة

كتاب الشعب
٣
الطبعة الثانية

قصة الجنس البشرى

** معرفتى **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

تأليف
الدكتور هندريك فان لون
ترجمة
ابراهيم زكى خورشيد أحمد الشنتناوى

www.ibtesama.com/vb/

www.ibtesama.com/vb/

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb/

كتاب الشعب
٣

قصة
الجنس البشري

تأليف
الدكتور هندريك فان لون

ترجمة
ابراهيم زكي خورشيد — أحمد الشنتناوي

الجزء الأول

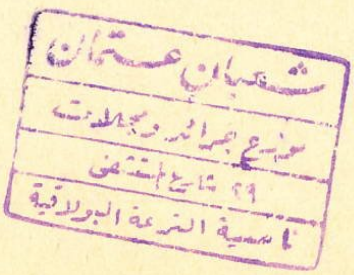

مطابع الشعب

www.ibtesama.com/vb/

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

رسم المؤلف الصور والرسوم التوضيحية والخرائط المجسمة الموجودة بهذا الكتاب فى طبعته الانجليزية ، وكتب مابها من شرح بخط يده .

وقد كان فى وسعنا أن نعيد رسمها ، وأن نستعين بخطاط لكتابة الشروح باللغة العربية بخط أجود ... لولا حرصنا على الاسلوب الذى اختاره المؤلف لاخراج كتابه ...

دار الشعب

www.ibtesama.com/vb/

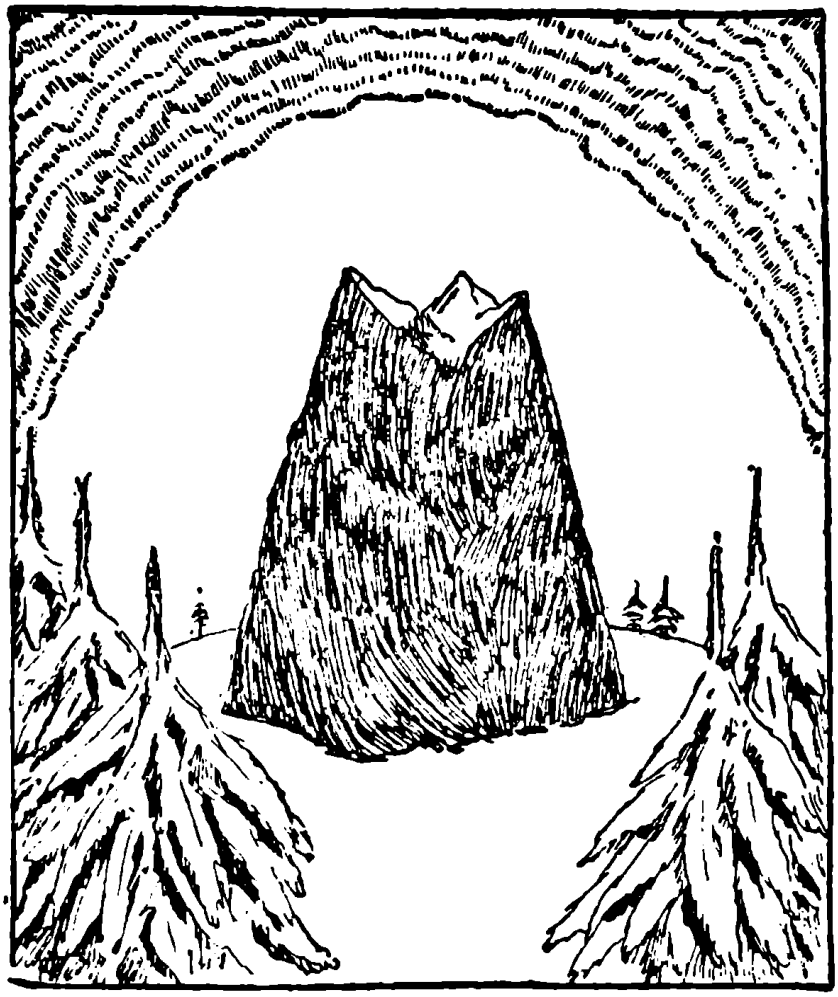

هنالك فى الشمال القاصى ، فى الأرض التى تعرف باسم « سفتجود » ، تقوم صخرة ارتفاعها مائة ميل وعرضها مائة ميل ، يغشاها كل الف عام طائر صغير يشحذ عليها منقاره .

وكلما غشيها الطائر بليت ... وطوى يوم واحد من ايام الابدية ...

www.ibtesama.com/vb/

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb/

مقدمة

الى هانزبيه وولم

كان لى عم حبب الىّ الكتب والصور ، فلما بلغت الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمرى ، وعدنى بان يصحبنى فى رحلة لا تنسى الى قمة برج كنيسة القديس لورنس القديمة فى روتردام .

وقد كان ... ففى يوم جميل فتح سادن الكنيسة بابا خفيا بمفتاح بلغ فى ضخامته مبلغ مفتاح كنيسة القديس بطرس ، ثم قال لنا « دقا الجرس عندما تعودان وترغبان فى الخروج » . وصر الباب وهو يغلقه صريرا عاليا صادرا من مفصلاته العتيقة الصدئة، فحال بيننا وبين ضجة الطريق الحافل بالحركة ، واسلمنا الى عالم ملىء بالتجارب الجديدة العجيبة .

وصادفت لأول مرة فى حياتى ظاهرة . . . هى السكون تسمعه باذنيك سماعا . فلما ارتقينا اول قلبة من قلبات الدرج تكشف لى شىء آخر وسع آفق معرفتى بظواهر الطبيعة ... هو الظلام تلمسه بيدك لمسا .

واشعلنا عودا من الثقاب فانار لنا السبيل الى مصعد الدرج . فارتقيناه الى الطابق التالى ثم الى الذى يليه ، واخذنا نصعد طابقا فى اثر طابق حتى التبس على عددها ، ثم صادفنا طابقا آخر ولمحنا الضوء فجاة . وكان هذا الطابق الذى بلغناه فى مستوى سقف الكنيسة، قد اتخذ مخزنا، وعلته طبقة من الغبار بلغ سمكها عدة بوصات . وهناك استقرت شارات مهملة لدين جليل انصرف عنه اهل المدينة الطيبون منذ عدة سنوات ، وتضاءلت تلك الأشياء التى كانت تعنى الحياة والموت فى نظر اجدادنا ، فاصبحت سقط متاع وانقاضا . واقامت الفئران النشيطة الدءوب جحورها بين الصور المنقوشة ، واتخذ العنكبوت الذى لا يغيب عن نظره شىء قط بيته بين الذراعين المبسوطتين لقديس رحيم .

ولما بلغنا الطابق التالى تبين لنا مصدر ذلك الضوء الذى غمرنا . فقد كان ثمة نوافذ ضخمة مفتوحة تتخللها قضبان غليظة من الحديد جعلت الحجرة السامقة الخاوية مهبطا لمئات من الحمائم . وكانت الريح تهب خلال هذه القضبان فتملأ الجو بانغام ساحرة عذبة . . كانت هذه الأنغام هى الجلبة الصادرة عن المدينة القائمة تحتنا، صفت ورقت لبعد ما اصبح بيننا وبينها . ذلك ان تجوال عربات النقل الثقيلة ، ووقع حوافر الجياد ، ودوران الروافع والبكر ، والهسيس المطرد المنبعث من الآلات البخارية التى اقيمت لتنهض بعمل الانسان ، منتهجة اساليب عدة شتى ـ كل هذه الأصوات اجتمعت واستحالت حفيفا، بل همسا رقيقا ، كان بمثابة ترجيع عذب لهديل الحمام .

وهنالك انتهى الدرج وبدا السلم . وارتقينا السلم الأول ، وكان شيئا عتيقا زلقا يحمل الانسان على أن يتحسس موضع قدمه فى توجس وحذر . فطالعتنا عجيبة جديدة اكبر واعظم ... هى ساعة المدينة . فابصرت فيها قلب الزمن ، وسمعت نبضات الثوانى عالية مسرعة تدق : واحدا ، اثنين ، ثلاثة الى أن بلغت الستين عدا . ثم صدر عن الساعة صوت مرتعش مفاجىء، فقدبدا ان جميع دواليبها قدتوقفت وانتزعت من عمر الابد دقيقة اخرى . واستانفت الساعة النبض فى غير توقف : واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، ثم صدر عنها آخر الأمر دمدمة منذرة وصرير انبعث من دواليبها الكثيرة ، اعقبهما صوت كهزيم الرعد انطلق من عل فوقنا منبئا العالم بأن وقت الظهيرة قد آذن وحل .

وكانت الأجراس فى الطابق الذى يلى ذلك : اجراس صغيرة لطيفة ، واخرى كبيرة هائلة يتوسطها الجرس الاكبر الذى جعل الرعب يشل اوصالى عندما كنت اسمعه فى جنح الليل ينذر بحريق او ينبىء بفيضان . . كان هذا الجرس يشمخ وحيدا فى جلال كانما يتامل تلك السنين الستمائة التى شارك فيها اهل روتردام

www.ibtesama.com/vb/

الطيبين مسراتهم واحزانهم . وتدلت حوله الأجراس الصغيرة فى نسق بديع ، فبدت كالاوانى الزرقاء فى حانوت صيدلى عتيق ، وهى الاجراس التى تصدح مرتين فى الاسبوع بانغام مرحة لادخال السرور على قلوب اهل الريف الذين كانوا يفدون على السوق يبيعون ويشترون ، ويسمعون انباء المدينة الكبيرة . على أنه كان هناك ، فى ركن من الأركان ، جرس وحيد تحاشته الاجراس الاخرى ... جرس كبير أسود ، ساكن كئيب ، هو جرس الموت .

ثم غمرنا الظلام ثانية ، وارتقينا سلالم اخرى اوعر ، بل اشد خطرا من سابقتها ، فاحسسنا فجأة بالهواء الطلق ، هواء السماوات الفسيحة . ذلك اننا بلغنا أعلى القاعات طرا ، من فوقنا السماء ، ومن تحتنا المدينة : مدينة صغيرة كلعب الأطفال يسعى الناس فى انحائها مهرولين كالنمل ، وكل منهم ــ رجلا كان أو امراة ــ مشغول بشانه الخاص ، وقد بدا الريف بساطا أخضر مترامى الأطراف وراء اخلاط من المبانى .

وكانت هذه اول نظرة القيها على هذا العالم الفسيح .

وقد حرصت من يومها على انتهاز كل فرصة تتاح لى فامضى الى قمة البرج مستمتعا بهذا المشهد . لقد كان الصعود اليه عملا شاقا ، ولكن البرج كان يجازى قصاده اجمل الجزاء على المجهود الجسمانى الذى كانوا ينفقونه فى ارتقاء درجات معدودات .

ثم انى ، الى ذلك ، كنت اعرف ماسيكون عليه جزائى . فسوف ارى الأرض والسماء ، واسمع حكايات صديقى الحارس الرحيم الذى كان يعيش فى خص اقامه فى ركن آمن من اركان القاعة العليا . كان يتولى امر الساعة ، ويعنى بالأجراس يقرعها لينذر الناس بالحرائق ، ولكنه كان يستمتع بساعات فراغ كثيرة ينفقها فى تدخين غليونه منصرفا الى افكاره الخاصة الهادئة المطمئنة . كان قد التحق بالمدرسة منذ خمسين سنة او نحوها ، ولعله لم يقرا كتابا فى حياته ، بيد انه عاش على قمة برجه سنين طويلة ، فوعى حكمة ذلك العالم الفسيح الذى يحف به من كل الجوانب .

كان يعرف التاريخ حق المعرفة ، ذلك ان التاريخ كان مخلوقا حيا يقاسمه الحياة . وكانى به يقول مشيرا الى ثنية نهر « هناك ، هناك ، الا ترى ياولدى تلك الاشجار .. لقد قطع امير اورانج السدود عندها ليغرق البلاد وينقذ ليدن » . او ينبئنى بقصة نهر الموز القديم حتى يصل بها الى الوقت الذى فقد فيه هذا النهر العريض صلاحيته لايواء السفن ، واصبح طريقا عاما ممتازا سلكته سفن ده رويتر و ترومب فى رحلتهما الشهيرة الأخيرة التى ضحى فيها هذان الملاحان بحياتهما فى سبيل تامين البحر لرواده كافة .

وكان هناك ايضا القرى الصغيرة تنتظم كالعقد حول امها الكنيسة التى كانت فى يوم من الأيام ، منذ عدة سنين خلت ، مقام قديسيها الذين اظلوها برعايتهم . وكنا نشاهد على بعد المسافة برج دلفت المائل ، وعلى مراى من عقوده العالية قتل وليم الصامت ، وهنالك تعلم جروتيوس كيف يتفهم معانى الجمل اللاتينية الاولى التى تعلمها . وكنا نرى فيما وراء هذا البرج ، صميم بناء كنيسة جودا الممتد الواطىء الذى نشا فيه ذلكم الرجل الذى كان ذكاؤه امضى سلاحا من جيوش عدة اباطرة ، ذلكم الصديق الذى عرفه العالم من بعد باسم ارازمس .

ثم يمتد بعد ذلك كله خط فضى يحد البحر الفسيح المترامى ، يجلوه ويبرزه ما كان يقع تحتنا مباشرة من منظر مختلف الالوان : قوامه السقوف والمداخن والبيوت والحدائق والمستشفيات والمدارس والسكك الحديدية التى عرفناها مجتمعة باسم « الوطن » .

ولكن البرج ابرز لنا الوطن العريق فى ضوء جديد . واصبح ذلك الخليط المضطرب ــ من شوارع الى سوق الى مصانع وورش ــ يعبر تعبيرا محكما عن جهود الانسان ومراميه . وكان خير هذه المشاهد جميعا مشهد الماضى المجيد يحف بنا من كل جانب ، ويمدنا بزاد جديد من الشجاعة نواجه به مشاكل المستقبل متى عدنا الى استئناف عملنا اليومى .

فالتاريخ حصن التجارب الحصين ، اقامه الزمن وسط مسارح العهود الغابرة التى لا تنتهى . وليس من اليسير ان نرقى الى قمة هذا الحصن المجلل بغبار الزمن ، ونتعم بنظرة مستشرفة تحيط بهذا المشهد كله .. ذلك اننا نفتقد المصعد الذى يبلغنا الى حيث نريد ، ولكن عزيمة الشباب الماضية تستطيع ان تحقق هذا الامل .

وهانذا امدكم بالمفتاح الذى يفتح لكم مغاليق هذا الباب .

ولا شك انكم ستدركون ايضا سر حماستى عندما تعودون من هذه الرحلة .

هندريك ولم فان لون

www.ibtesama.com/vb/

تهيئة المسرح

نحن نعيش فى ظل علامة استفهام هائلة .
من نحن ؟
ومن اين جئنا ؟
والام المصير ؟

لقد دابنا فى شجاعة وحرص على دفع هذه العلامة شيئا فشيئا الى ذلك الخط البعيد الممتد وراء الافق حيث نأمل ان نجد عنده الجواب على اسئلتنا .

لم نقطع بعد شوطا طويلا فى هذا السبيل .

وما زال حظنا من العلم ضئيلا ، ولكننا بلغنا المرحلة التى تمكننا من التكهن بجملة اشياء تكهنا فيه نصيب من الحقيقة غير قليل .

سأقص عليك فى هذا الفصل كيف مهد المسرح لنشأة الانسان ، معتمدا فى ذلك على اصدق الروايات .

فاذا مثلنا الزمن الذى تيسر فيه لحياة الحيوان أن تقوم على كوكبنا بخط هذا طوله :

كانت السماء تمطر دون انقطاع

فان الخط الصغير الذى يقع تحته مباشرة يمثل الزمن الذى عاش فيه الانسان او مخلوق يشبهه قليلا أو كثيرا على هذه الارض .

لقد كان الانسان آخر من وفد على الارض من المخلوقات ، ولكنه كان اول من استعمل عقله فى التغلب على قوى الطبيعة . وهذا هو السبب الذى يجعلنا نؤثر دراسته على دراسة القطط او الكلاب أو الخيل او اى نوع آخر من سائر الحيوانات التى خلفت وراءها جميعا تاريخا لتطورها ممتعا غاية الامتاع .

فى البدء كان الكوكب الذى نعيش عليه ، فيما بلغ اليه علمنا ، كرة كبيرة من مادة ملتهبة ، او قل غمامة من الدخان تسبح فى محيط الفضاء الذى لا يتناهى ، ثم احترق سطح هذا الكوكب احتراقا خلال ملايين من السنين حتى همد وغطته طبقة رقيقة من الصخور . وانهمر المطر على هذه الصخور الجدباء سيولا لاتنقطع ،

اخذت تعرى احجار الجرانيت حاملة معها الغرين الى الاودية الكامنة بين الصخور الشاهقة القائمة على الارض التى كان البخار لا يزال يتصاعد منها .

واخيرا حانت ساعة بزوغ الشمس من خلال السحب ، فطلعت على هذا الكوكب الصغير ، فاذا هو مغطى بقليل من برك موحلة قدر لها ان تتطور فيما بعد فتستحيل الى المحيطات المترامية الاطراف فى مشارق الارض ومغاربها .

ثم وقعت فى يوم من الايام عجيبة العجائب ، فانبعثت الحياة مما كان ميتا ، وطفت الخلية الحية الاولى فوق مياه البحر . وظلت هذه الخلية ملايين السنين يتقاذفها التيار على غير هدى ، ولكنها كانت خلال ذلك العهد الطويل تكتسب صفات خاصة من شأنها ان تيسر لها سبيل البقاء على هذه الارض المحلة .

www.ibtesama.com/vb/

وكان بعض هذه الخلايا أسعد ما يكون حالا فى أعماق البحيرات والبرك المظلمة ، فقد تأصل فى الرواسب الغرينية التى انحطت من أعالى الهضاب ، ثم أصبح نباتا . وآثر بعضها التنقل من مكان الى آخر ، فنمت له أرجل عجيبة ذات مفاصل أشبه بأرجل العقارب ، وأخذ يدب هنا وهناك على طول قاع البحر بين النباتات والكائنات الخضراء الباهتة التى كانت تشبه قنديل البحر . وكان بعضها أيضا مغطى بقشور ، ويعتمد فى الانتقال من مكان الى آخر على السباحة طلبا للقوت . . ثم أخذت هذه الكائنات على مر الايام تعمر المحيطات بعشرات الآلاف من الاسماك .

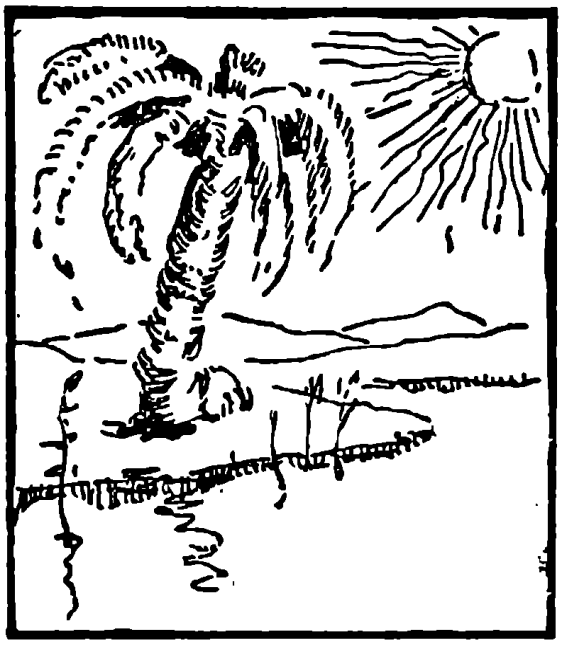

النباتات تغادر البحار

وكانت النباتات فى ذلك الوقت قد ربت وتكاثرت ، فلم تجد بدا من أن تبحث عن أماكن أخرى تستوطنها ، ولم يعد قاع البحر يتسع لها جميعا ، فتركت البحر كارهة ، واتخذت لها مواطن جديدة فى المستنقعات وعلى الجسور الموحلة فى سفوح الجبال . وكان مد البحر يغطيها بمياهه الملحة مرتين فى اليوم ، أما بقية يومها فكانت تستخلص من موقفها غير الملائم خير مافيه ، وتحاول العيش فى الطبقة الهوائية الرقيقة التى تحيط بسطح الارض . وقضت قرونا كثيرة فى تلك المحاولات حتى تيسر لها أخيرا ان تعيش فى الهواء عيشة راضية على نحو ماتيسر لها فى الماء . وتضخمت أحجام هذه النباتات ، وأصبحت شجيرات وأشجارا ، ثم عرفت آخر الأمر كيف تتفتح عن زهر جميل اجتذب النحل الطنان الكبير والطيور المختلفة التى حملت معها البذور الى جهات بعيدة ، فما لبث سطح الارض جميعا ان تغطى بالمروج الخضر ، او استظل بظل الاشجار الضخمة الكثيفة .

على أن بعض الاسماك بدأ أيضا يغادر البحر ، وتعلم كيف يتنفس برئتيه كما كان يتنفس بخياشيمه . ويطلق على هذه الكائنات البرمائيات ، اى المخلوقات التى تعيش فى يسر على البر وفى البحر على السواء . ولو انك التقيت بأول ضفدع يصادفك فى طريقك لأنباك بكل ماتستمتع به هذه البرمائيات المزدوجة الكيان من نعيم .

وما ان خرجت هذه الحيوانات من الماء حتى أخذت تهيىء نفسها شيئا فشيئا للحياة على اليابسة . فأصبح بعضها زواحف ـ اى مخلوقات تزحف . . كالعظاية ـ وشارك الحشرات فى ذلك السكون الذى كان يرين على الغابات ، وتطورت أرجله ليكون أسرع حركة وهو يجوس خلال الأرض اللينة ، ونما حجمه حتى عمر الارض بمخلوقات هائلة الجثة عرفت فى كتب علم الحياة السائرة بأسماء العظاية الهائلة ، والعظاية السمكية ، والعظاية الراعدة . وبلغ طولها مابين ثلاثين وأربعين قدما ، وكان فى مقدورها أن تلاعب الفيلة كما تلاعب القطة البالغة صغارها .

وبدأ بعض افراد من أسرة الزواحف هذه يعيش على قمم الأشجار التى كان يبلغ طولها فى كثير من الأحيان مايزيد على المائة قدم ، ولم تعد به حاجة الى أرجله يمشى عليها . ولكنه كان محتاجا الى التنقل بسرعة من فنن الى فنن ، فاستعاض عن جزء من جلده بشىء يشبه المظلة الواقية امتد بين جنبيه وبين الاصابع الصغيرة لقوائمه الأمامية ، ثم غطى هذه المظلة الجلدية بالريش شيئا فشيئا ، وجعل من ذيله اداة توجهه وأخذ يطير من شجرة الى شجرة حتى تطور الى طير حقيقى .

وعندئذ حدث أمر عجيب . ذلك أن جميع الزواحف الهائلة هلكت فى زمن قصير . ولانعرف السبب فى ذلك ، ولعله يعود الى تغير مفاجىء طرأ على الجو ، أو لعل هذه الزواحف قد تضخمت تضخما أعجزها عن السباحة أو المشى أو الزحف ، فهلكت من الجوع دون نباتات السرخس والأشجار الضخمة وهى على مرأى منها . ومهما يكن السبب فى انقراض هذه الزواحف فان دولتها دالت بعد ان عمرت مليونا من السنين .

www.ibtesama.com/vb/

ثم سكن العالم كائنات اخرى تختلف عن الزواحف اختلافا كبيرا . كانت مخلوقات انحدرت من هـذه ، ولكنها كانت بعيدة الشبه بها ، ذلك ان صغارها كانت تتغذى من اثداء امهاتها ، ومن ثم اطلق عليهـا العـلم الحديث اسم « الثدييات» . وقد خلعت هذه المخلوقات عنها فلوس الأسماك، ولم تصطنع ريش الطيور، وكست اجسامها بالشعر . على انها تطبعت بطبـاع اخـرى ميزت جنسها على سائر الحيوانات . . فكانت الأنثى منها تحمل بيض صغارها داخل جسمها الى ان تفقس، على حين كانت الكائنات الحية الاخرى ، حتى ذلك الحين، تترك صغارها معرضة لأخطار البرد والحر وهجمات الحيوانات المفترسـة . اما الثـدييات فـكانت تلازم صغارها مدة طويلة، وترعاها وهي بعد ضعيفة لا تستطيع منازلة اعدائها . وبهذه الطريقة كانت فرصة البقـاء اكثر توافرا امام الثدييات الصغيرة لأنها تعلمت مـن امهاتها اشياء كثيرة تستطيع ايها القارىء ان تدركها اذا ماتهيأ لك أن تلاحظ قطة تعلم صغارها كيف تعنى بأنفسها وتغسل وجوهها وتصيد الفئران .

وما بى من حاجة الى اطالة الكلام عن هذه الثدييات لانك تعرفها جيدا ، فهى تحيط بك من كل جانب ، وتصاحبك فى حياتك اليومية . . فى الشوارع وفى المنزل، وتستطيع ان ترى من أبناء عمومتك حيوانات اخرى لم تألفها الفك لغيرها ، قابعة وراء القضبان فى حدائق الحيوان .

وها نحن أولاء قد بلغنا مفترق الطرق حيث يترك الانسان فجاة ذلك الموكب الذى لاينقطع من مخلوقات عجماوات تعيش وتموت ، ويأخذ فى استعمال عقله لتكييف مصير بنى جنسه . وثمة نوع بالذات من هذه

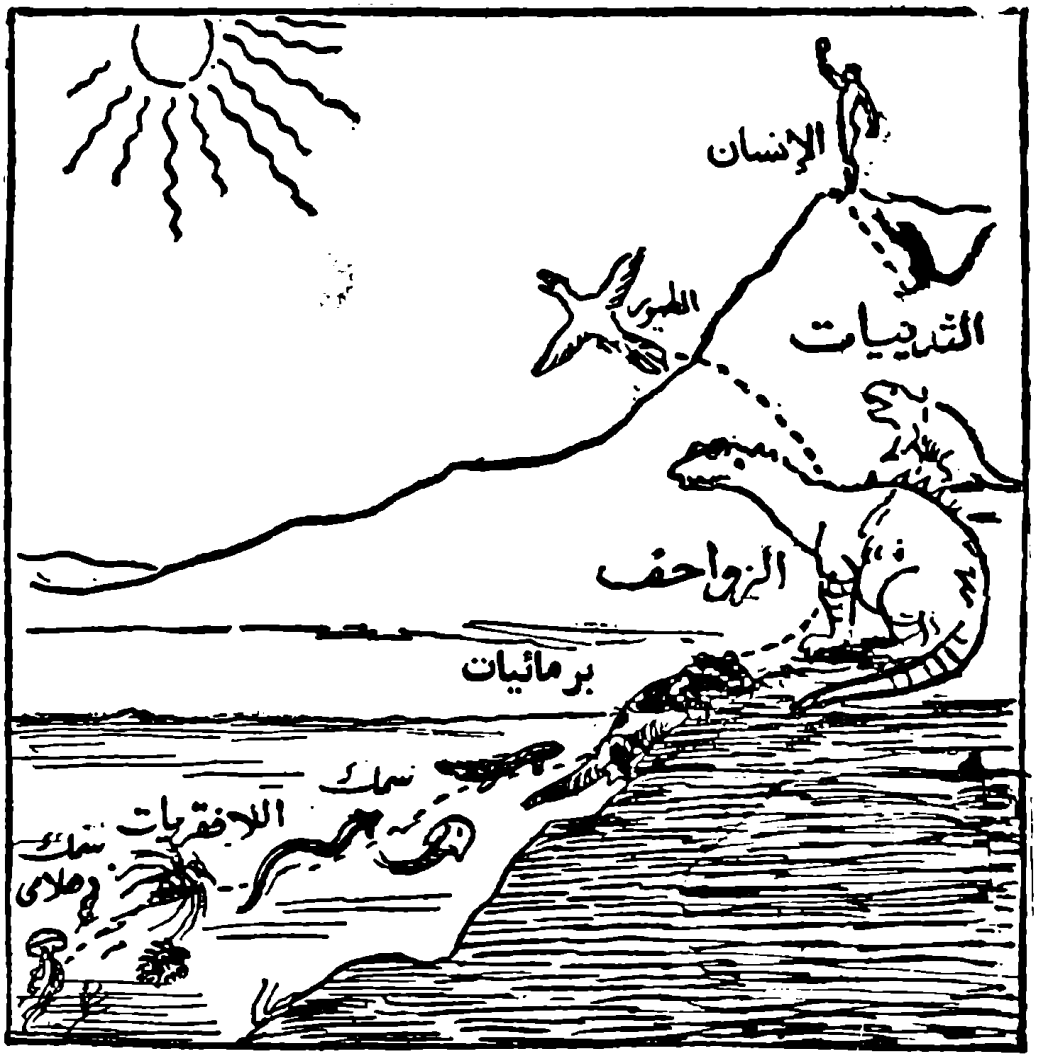

مدارج رقى الانسان

www.ibtesama.com/vb/

الثدييات يظهر انه فاق الانواع الأخرى فى قدرته على التماس الطعام والماوى ، فقد تعلم كيف يستعمل قوائمه الأمامية فى القبض على فريسته ، واستطاع بالداب على المران ان يكتسب مخالب اشبه باليد ، ثم بدل محاولات لا عداد لها فتعلم كيف يقيم جسمه جميعا على قوائمه الخلفية. وهذا العمل شاق لامناص من أن يتعلمه كل طفل بنفسه من جديد ، وان كان النوع الانسانى ظل يمارسه نيفا ومليون سنة .

وقد اصبح هذا المخلوق اقدر المخلوقات على الصيد ، ويستطيع العيش فى كل مناخ. وقد درج هذا المخلوق على التنقل جماعات زيادة فى سلامته ، وتعلم كيف يأتى بصرخات عجيبة لينبىء صغاره باقتراب الخطر ، ثم انه بدا ـ بعد مئات الآلاف من السنين ـ يستخدم هذه الأصوات الحلقية فى الحديث .

هذا المخلوق كان أول اجدادك من اشباه الانسان ، وان تعذر عليك تصديق ذلك .

أسلافنا الأولون

لانعرف الا النزر اليسير عن الانسان الحقيقى الأول .. ذلك اننا لم نر قط صورته ، فنحن نصادف احيانا فى اعمق طبقات الصلصال فى تربة قديمة بعض قطع من عظام هذا الانسان مدفونة جنبا الى جنب مع حطام هياكل الحيوانات الأخرى التى اختفت عن وجه الأرض منذ عهد سحيق . ولقد تناول علماء الانسان ـ وهم الذين كرسوا حياتهم لدراسته من حيث هو عضو فى المملكة الحيوانية ـ هذه العظام ، واستطاعوا ان يعيدوا بناء هياكل اسلافنا على وجه لاباس به من الدقة .

نمو الجمجمة البشرية

لقد كان السلف الأقدم للنوع الانسانى حيوانا ثدييا سمج المنظر عظيم القبح .. كان صغيرا جدا، بل اصغر بكثير من الاناسى فى الوقت الحاضر : لوحته حرارة الشمس وهواء الشتاء البارد ، فغدا جلده اسمر اللون داكنا ، وكان راسه ومعظم جسده وذراعاه وارجله مغطاة بشعر طويل خشن ، وكانت اصابعه رفيعة جدا ، ولكنها قوية ، مما جعل يديه اشبه شىء بايدى القردة ، وكانت جبهته منخفضة وفكه اشبه بفك الحيوان المفترس الذى يعتمد على اسنانه اعتمادنا على الشوكة والسكين ، وكان لايتخذ له لباسا . ولم ير نارا الا لهيب البراكين الثائرة التى ملأت الأرض بدخانها وماتقذفه من حمم .

كان يعيش فى ظلام الغابات المترامية الأطراف الرطبة كما يعيش اليوم افزام افريقية . وكان اذا عضه الجوع بنابه اكل اوراق الشجر وجذور النباتات، وانتزع البيض من براثن الطير الغاضب يقدمه طعاما لصغاره . ثم انه قد يستطيع ـ بعد طول صبر واناة ـ ان يصيد عصفورا او كلبا بريا صغيرا ، او يكون صيده فارا من الفئران. وكان يلتهم صيده هذا نيئا لأنه لم يكن قد ادرك بعد ان الطبخ يجعل الطعام اشهى مذاقا . وكان هذا الانسان البدائى يقضى يومه متجولا فى طلب الطعام ، فاذا ماأرخى الليل سدوله اخفى زوجه وصغاره فى جوف شجرة او خلف بعض الصخور الكبيرة .. فقد كان يحيط به من جميع الجوانب حيوانات مفترسة تبدا فى التجول هنا وهناك اذا ماجن الليل باحثة عن شىء تاكله هى واناثها وصغارها ، وكانت تشتهى لحم الانسان . وكان كل مافى العالم فى ذلك الوقت اما آكلا واما ماكولا ، فقد كانت الحياة خالية من كل اسباب البهجة والسرور اذ كانت مليئة بالمخاوف والشقاء .

وكان الانسان اذا حل الصيف تعرض لاشعة الشمس المحرقة ، اما فى الشتاء فكانت صغاره تكاد تموت بين يديه من شدة البرد . واذا ما جلب على نفسه الضر لم يجد من يعنى بحاله، ومات ميتة شنيعة.

www.ibtesama.com/vb/

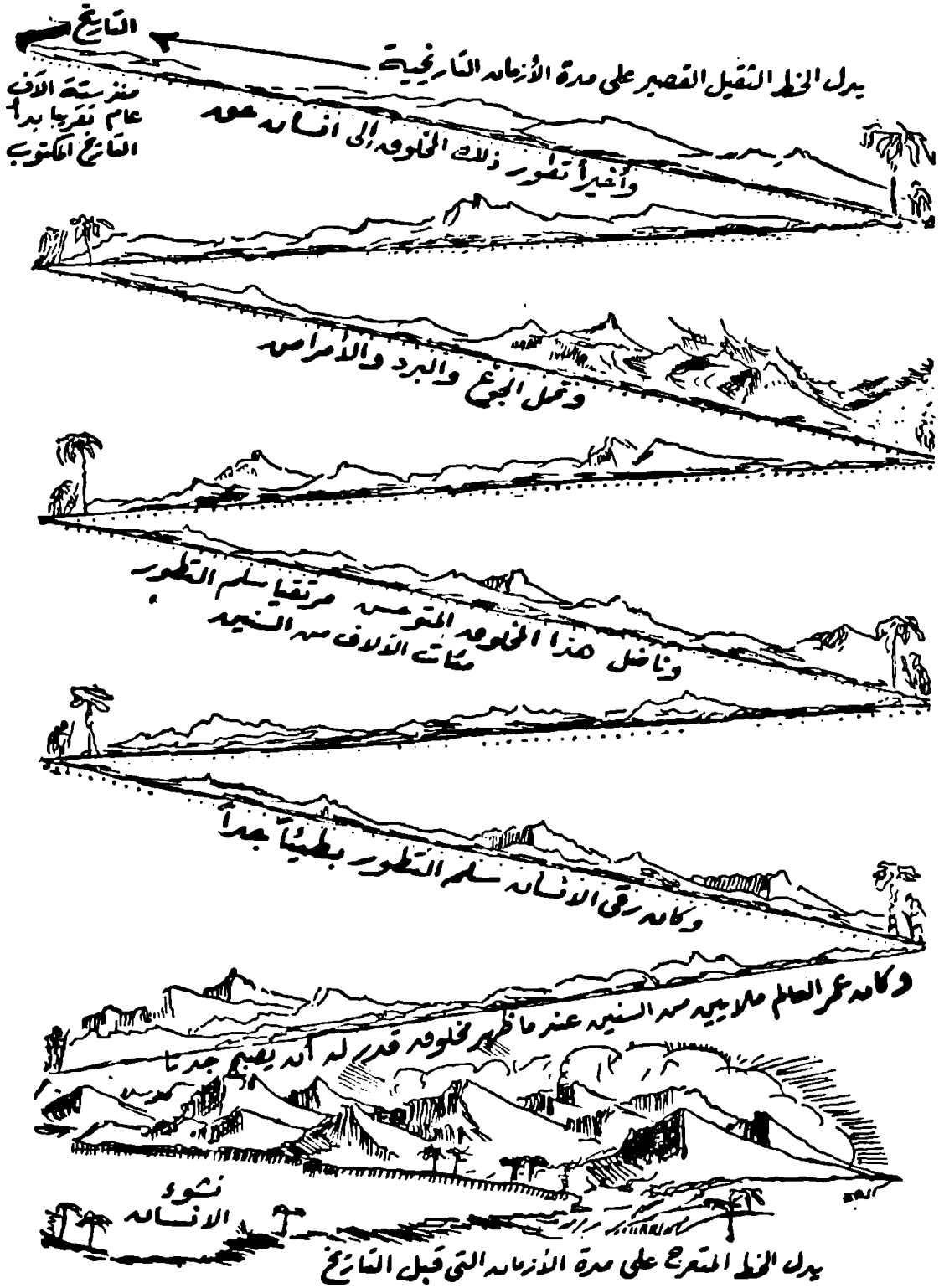

ما قبل التاريخ ... والتاريخ

www.ibtesama.com/vb/

ذلك ان الحيوانات التى تطلب الصيد كانت دائما تدق عظامها او تخلع مفاصلها .

والانسان الاول كان محبا للرطانة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الحيوانات التى تملأ حدائق الحيوان باصواتها الغريبة . ذلك انه كان لايكف عن هذه الرطانة ، فقد كان يلذ له ان يسمع صوته . ثم حان الوقت الذى عرف فيه كيف يستخدم أصواته الحلقية لتحذير رفاقه اذا ما لاح خطر . فكان يطلق صرخات قصيرة معينة للدلالة على ان فى الجو نمرا ، او ايذانا باقتراب خمسة من الافيال . وكان الآخرون يجاوبونه برطانة أخرى ، وكانهم يقولون : « انا نراهم » ، او « هلم نفر ونختفى » . ولعل ذلك كان الاصل فى جميع اللغات .

على اننا لا نعرف من هذه البدايات ـ كما ذكرت من قبل ـ الا النزر اليسير . ولم يكن لدى الانسان الاول ادوات ، ولم يكن يشيد بيوتا لسكناه ، فقد عاش ومات دون ان يترك وراءه اثرا يدل على وجوده سوى آثار من عظام الترقوة ، وقطع قليلة من عظام الجمجمة .

وتدلنا هذه الآثار القليلة على انه كان يسكن العالم منذ آلاف عدة من السنين نوع من الثدييات يختلف اختلافا بينا عن جميع الحيوانات الاخرى . والراجح ان يكون قد تطور من حيوان آخر مجهول تعلم كيف يمشى على قوائمه الخلفية ، ويستعمل مخالب قوائمه الامامية كالايدى . واغلب الظن ان يكون هذا النوع من الثدييات ذا صلة بالمخلوقات التى قدر لها ان تكون الاسلاف الذين انحدرنا من صلبهم مباشرة .

ومعلوماتنا فى هذا الشأن اقل من الكفاية ، اما الباقى فهو فى طى المجهول .

إنسان ما قبل التاريخ

يبدأ فى صنع اشياء لنفسه

لم يكن الانسان الاول يدرك معنى الوقت ، فلم يحتفظ بسجلات : بالمواليد او بايام الزواج او بتواريخ الوفاة ، ولم تكن لديه فكرة ما عن الايام او الاسابيع بله السنين، ولكنه ميز الفصول الاربعة بوجه عام : اذ لاحظ ان الشتاء البارد يعقبه دائما ربيع معتدل ، وان الربيع يتمخض عن الصيف الحار ، وفيه تنضج الفاكهة وتطيب سنابل الغلال البرية للآكلين ، ثم ينتهى اجل الصيف عندما تهب الرياح فجأة فتطيح بأوراق الشجر ، ويتأهب عدد من الحيوانات لسبات عميق طيلة فصل الشتاء .

ثم حدث عند ذلك امر غير مألوف كان ابعث على الخوف والفزع ، وهو امر يتعلق بالمناخ ، اذ تأخر فصل الصيف كثيرا عن ابانه ، فلم تنضج الفاكهة ، وتغطت قمم الجبال بطبقة كثيفة من الجليد ، وكانت العادة قد جرت أن تكون مغطاة بالحشائش فى ذلك الوقت .

وفى صبيحة يوم من تلك الايام خرج جماعة من الناس المتوحشين ، يختلفون اشد الاختلاف عن المخلوقات التى كانت تعيش فى جوارهم ، وهبطوا من قنن الجبال العالية هائمين على وجوههم . وكانوا هزالا عليهم سمات من يتضورون جوعا . وكانت تصدر عنهم اصوات تعز على الافهام وكأنهم يعبرون بها عن جوعهم . ولم يكن هناك طعام يكفى السكان الاصليين وهؤلاء الوافدين الجدد .. فلما سعوا الى الاقامة هنالك ، وتجاوزت اقامتهم بضعة ايام ،لم يكن بد من نشوب قتال بين الفريقين استخدمت فيه الايدى الأشبه بالمخالب ، فهلكت فيه اسر باجمعها. اما البقية ففروا الى منحدرات الجبال التى نزحوا منها ، وهناك ماتوا فى غمرة البرد التالية .

غير ان سكان الغابة قد روعوا ترويعا : اذ استمرت الايام تقصر وتقصر ، واخذت الليالى يشتد بردها عما كان ينبغى لها . واخيرا تبدى لهم بين فرجة جبلين عاليين قطعة صغيرة من الثلج الضارب الى الاخضرار سرعان ما ازداد حجمها ، وانحدر من على سفحى الجبلين ثلاجة هائلة دفعت امامها كتلا ضخمة من الاحجار صوب الوادى ،وتوالى قصف الرعد،وانحطت سيول من الثلج والطين وكتل الأعبل (الجرانيت) بين سكان الغابات فقتلتهم وهم نائمون . وتحطمت الاشجار العتيقة التى تبلغ من العمر قرنا من الزمان واصبحت خشبا مشتعلا ، ثم اخذ الثلج يتساقط .

www.ibtesama.com/vb/

اوروبا فيما قبل التاريخ

www.ibtesama.com/vb/

واستمر تساقط الثلج شهورا وشهورا ... فذوت النباتات جميعا ، وفرت الحيوانات ناحية الجنوب طلبا لاشعة الشمس الدافئة ، وحمل الانسان صغاره على ظهره وسار اثر هذه الحيوانات . ولكنه كان اعجز من ان يساير هذه الحيوانات المفترسة فى سرعتها ، فلم يكن امامه الا ان يختار بين امرين : ان يفكر سريعا ، او يموت سريعا . والظاهر انه قد آثر الامر الاول لانه حاول ان يعيش خلال العصور الثلجية القاسية التى هددت كل انسان على ظهر الارض بالفناء فى اربع مناسبات مختلفة .

وكانت اول ضرورة واجهت الانسان ان يتخذ لباسا والا اهلكه البرد ، فتعلم كيف يحفر الحفر ويغطيها بافرع الاشجار وورقها لكى يوقع فيها الدببة والضباع ، ثم يقتلها بعد ذلك بالاحجار الضخمة ، ويتخذ من جلودها كساء له ولذويه .

ثم واجهته بعد ذلك مشكلة السكن ، ولكنها كانت مشكلة هينة .. فقد درج كثيرمن الحيوانات على النوم فى الكهوف المظلمة ، فاخذ الانسان يسير على منوالها، فاقصى الحيوانات عن هذه الكهوف الدافئة ، واتخذها سكنا له .

ومع ذلك فقد كان المناخ اقسى من ان يحتمله معظم الناس ، فهلكت جموع غفيرة من المسنين والاحداث ، الى ان ظهر عبقرى فيهم طرأ عليه ان يستخدم النار .. فقد اتفق له مرة ــ وهو يطلب الصيد ــ ان احاطت به نار انبعثت فى الغابة ، وتذكر ان لهيبها كان قد اوشك ان يشوى لحمه حتى اشرف على الهلاك .. فكانت النار الى ذلك الحين عدوا من اعدائه ، اما الآن فقد اصبحت صديقا من اصدقائه . ومن ثم سحب شجرة جافة واشعل فيها النار بواسطة اعواد الشجر المشتعلة من نيران الغابة ، وهذا احال الكهف الى غرفة صغيرة ساطعة الضياء .

واتفق ذات مساء ان سقط فرخ صغير وسط النيران ولم يستطع احد اخراجه منها الا بعد ان شوى شيا ، ففطن الانسان الى ان اللحم يطيب مذاقه اذا شوى . واخذ ينبذ بين الحين والحين عادة من العادات القديمة كان يشارك فيها سائر الحيوان ، وشرع يطهو طعامه .

ومرت على الانسان وهو على هذه الحال آلاف من السنين لم يستطع العيش فيها الا احصف الناس عقلا . فقد كتب على الانسان ان يكافح البرد والجوع ليله ونهاره ، فاضطر الى اختراع الادوات ، وتعلم كيف يشحذ الحجارة فيتخذ منها فؤوسا ومطارق، ثم اضطر الى اختزان كميات كبيرة من الطعام ليأكلها ابان فصل الشتاء الطويل ، وعرف انه يستطيع ان يصنع من الصلصال اوانى وجرارا بعد تجفيفه فى اشعة الشمس . ومن ثم فقد كان العصر الجليدى الذى كان يهدد الجنس البشرى بالفناء خير هاد ، لانه حمل الانسان على استخدام عقله .

الهيروغليفية

اختراع المصريين فن الكتابة وبدء تدوين التاريخ

كان اسلافنا الأقدمون الذين عاشوا فى برارى اوربا قد اخذوا يتعلمون سريعا عدة اشياء جديدة . ولعلنا لا نخطىء القول اذا ذهبنا الى انهم نبذوا فى الوقت المناسب اساليب الهمج ، واقاموا حضارة خاصة بهم .

على ان عزلتهم التى كانوا فيها قد انتهت فجاة باكتشاف امرهم .. ذلك ان رحالة خرج من بلاد جنوبية مجهولة ، وخاطر بعبورالبحر وممرات الجبال العالية ، ونفذ الى سكان اوربا المتوحشين . وفدهذا الرحالة من افريقية وكان موطنه مصر .

لقد عاشت فى مصر منذ آلاف من السنين حضارة راقية قبل ان يحلم اهل الغرب بامكان اختراع شوكة او عجلة او اقامة بيت . ويحملنا هذا على ان ندع اجدادنا الاولين فى كهوفهم وندهب لزيارة اهل الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط اصحاب اقدم مدرسة تعلم فيها الجنس البشرى .

تعلم المصريون اشياء كثيرة : فقد كانوا فلاحين مهرة عرفوا كل ما يتصل بالرى ، وشيدوا معابد حاكاها الاغريق من بعد ، وكانت الطرز الأولى للكنائس التى نتعبد فيها اليوم . واخترع المصريون تقويما بلغ من فائدته فى قياس الزمن انه بقى حتى ايامنا هذه دون ان يعتريه تغير كبير . على ان الأهم من ذلك

www.ibtesama.com/vb/

كله ، ان المصريين عرفوا كيف يحتفظون بكلامهم لخير الاجيال القادمة . ذلك انهم اخترعوا فن الكتابة .

وقد الفنا اليوم قراءة الصحف والكتب والمجلات الى حد التسليم بأن العالم كان على الدوام قادرا على القراءة والكتابة . والواقع ان الكتابة ـ وهى اعظم المخترعات جميعا ـ امر جديد كل الجدة ، ولولا الوثائق المكتوبة لاصبحنا اليوم اشبه بالقطط والكلاب التى لاتستطيع ان تعلم جراءها وصغارها الا امورا قليلة بسيطة ، ذلك ان جهلها بالكتابة لا يهيىء لها وسيلة ما تستطيع بها الافادة من تجارب تلكم الاجيال من القطط والكلاب التى عاشت قبلها .

عندما وفد الرومان الى مصر فى القرن الاول قبل الميلاد الفوا وادى النيل حافلا بصور صغيرة عجيبة بدا لهم أن لها صلة بتاريخ الوادى . غير ان الرومان لم يكونوا يهتمون بأى شىء غريب عنهم ، فلم يبحثوا عن اصول هذه الاشكال الغريبة التى كانت تغطى جدران المعابد والقصور ، وتزدحم بها صحائف مستوية يخطئها الحصر مصنوعة من اوراق البردى . وكانت المنية قبل ذلك بعدة سنوات قد اخترمت آخر الكهنة المصريين الذين كانوا على دراية بهذا الفن المقدس او رسم مثل هذه الصور . واصبحت مصر بعد ان فقدت استقلالها مخزنا مليئا بالوثائق التاريخية الهامة ، لا يستطيع احد فك رموزها ، ولا يستفيد منها انسان ولا حيوان .

وظل الحال على ذلك سبعة عشر قرنا كانت مصر خلالها ارضا يكتنفها الغموض . ولكن حدث عام ١٧٩٨ ان خرج قائد فرنسى يدعى بونابرت قاصدا افريقية الشرقية لتجهيز حملة على المستعمرات الانجليزية فى الهند ، غير ان هذا القائد لم يتجاوز وادى النيل وباءت حملته بالخيبة . على ان الصدفة المحضة قد هيأت لهذه الحملة الشهيرة ان تفك رموز الكتابة المصرية القديمة القائمة على الصور .

ففى يوم من الايام ضاق ضابط فرنسى ذرعا بالحياة الموحشة التى كان يحياها فى قلعته الصغيرة القائمة على ضفة النيل عند رشيد ، فاعتزم ان يروح عن نفسه بضع ساعات قضاها فى التنقيب بين خرائب دلتا النيل . والعجيب انه عثر على حجر حيره كثيرا ، فقد كان ككل شىء فى مصر مغطى بالصور الصغيرة . . الا ان هذا الحجر بالذات ـ الذى قد من البازلت الاسود ـ كان يختلف عن سائر الاشياء التى كشفت الى ذلك الحين ، فقد كان عليه ثلاث كتابات : احداها باللغة اليونانية ، وكانت اليونانية معروفة . وتدبر الضابط الامر فانتهى الى ان كل ماينبغى عمله هو مقارنة النص اليونانى بالصور المصرية فلا تلبث ان تفصح عن سرها .

وكانت هذه الفكرة تبدو بسيطة فى حد ذاتها ، ولكن حل هذه المعضلة تطلب اكثر من عشرين سنة .

ففى عام ١٨٠٢ اخذ استاذ فرنسى يدعى شامبليون فى مقارنة النص اليونانى بالنص المصرى المنقوشين على حجر رشيد . وفى عام ١٨٢٣ اذاع على الملأ انه كشف عن معانى اربعة عشر رسما من هذه الرسوم الصغيرة . ومات شامبليون بعد ذلك بوقت قصير من كثرة الاجهاد ، ولكن المبادىء الرئيسية للكتابة المصرية كانت قد عرفت . ونحن اليوم نعرف عن قصة وادى النيل اكثر مما نعرف عن قصة نهر المسيسيبى ، اذ لدينا عن وادى النيل تاريخ مكتوب يرجع الى اربعة آلاف سنة مضت .

وكان شأن الهيروغليفية المصرية القديمة (ومعنى الهيروغليفية الكتابة المقدسة) عظيما فى التاريخ ، ومن ثم يجدر بك ان تعلم شيئا عن تلك الطريقة البارعة التى استخدمت منذ خمسين قرنا مضت لتسجيل الكلام لخير الاجيال المتعاقبة . وقد دخل عدد قليل من احرف هذه اللغة بصيغ معدلة فى ابجديتنا .

ولا شك انك تعلم المقصود من لغة الرموز ، ففى كل قصة هندية عن السهول الامريكية فصل خاص بالرسائل الغريبة التى كتبت على شكل صور صغيرة تخبر عن عدد الجواميس التى قتلت ، وعن عدد الصيادين فى جماعة ما . ويمكن القول بصفة عامة انه لا يصعب علينا فهم معانى هذه الرسائل . . على ان اللغة المصرية القديمة لم تكن مع ذلك لغة رموز ، ذلك ان اهل وادى النيل البارعين كانوا قد جاوزوا هذه المرحلة منذ عهد طويل ، اذ كانت صورهم تحمل فى طياتها من المعانى ما يفوق كثيرا موضوع الصورة المرسومة . وهذا ما سأحاول تفسيره الآن :

هب انك شامبليون ، وانك تقوم بالفحص عن كومة من اوراق البردى غطيت جميعا بالهيروغليفية ، فاذا بك تشاهد فجأة صورة رجل وفى يده منشار . انك ستقول ان هذا يدل بطبيعة الحال على ان فلاحا ذاهب لقطع شجرة . ثم انك تنتقل بعد ذلك الى صفحة اخرى من صفحات البردى ، فاذا بها تقص علينا قصة ملكة اخترمتها المنية وهى فى سن الثانية

www.ibtesama.com/vb/

والثمانين ، واذا بك ترى وسط جملة من جملها صورة الرجل وفى يده المنشار . والملكات فى سن الثانية والثمانين لا يستعملن المناشير ، اذن فهذه الصورة لابد انها ترمى الى شيء آخر ، فما هو هذا الشيء ؟

تلك هى المعضلة التى حلها آخر الامر العالم الفرنسى شامبليون . لقد اكتشف شامبليون ان المصريين كانوا اول من استعمل ما نطلق عليه الآن اسم « الكتابة الصوتية » ، وهى مجموعة من الأحرف تبرز لنا صوت الكلمة الملفوظة بحيث يكون فى استطاعتنا التعبير عن جميع كلماتنا الملفوظة بصيغ مكتوبة ، بالاستعانة بقليل من النقاط والشرط والشولات .

ولنعد الآن لحظة الى صورة الرجل وفى يده المنشار . فان كلمة منشار بالانجليزية هى (Saw) . وتدل هذه الكلمة : اما على الآلة الخاصة التى نشاهدها فى حانوت النجار ، واما على الزمن الماضى للفعل يرى (See)

واليك ما حدث بعد ذلك لهذه الكلمة على مر القرون . كانت هذه الكلمة تدل فى اول الأمر على الآلة الخاصة التى يمثلها المنشار ، ثم ضاع هذا المعنى واصبحت تدل على صيغة الماضى لفعل من الافعال .

وبعد مرور عدة مئات من السنين غاب لدى المصريين هذان المعنيان واصبحت صورة الرجل وفى يده المنشار تدل على حرف واحد هو الحرف S (١)

اخترع المصريون هذه الكتابة ، ثم اخذوا فى تهذيبها خلال آلاف من السنين حتى استطاعوا ان يكتبوا بها ما يشاءون ، واستعملوا هذه الكلمات المسجلة فى كتابة الرسائل للاصدقاء وقيد الحسابات وتاريخ حوادث بلادهم ، حتى تستطيع الأجيال القادمة الافادة من اخطاء الماضى .

وادى النيل

نشأة الحضارة فى وادى النيل

تاريخ الانسان هو سجل مخلوق جائع يبحث عن الطعام . فقد كان الانسان يرحل الى اى مكان يكثر فيه الطعام ، ويتخذ فيه مسكنا له .

ولابد ان تكون شهرة وادى النيل قد ذاعت منذ عهد سحيق ، فقد تدفق الناس على مصر : من قلب افريقية ، ومن صحراء العرب ، ومن غربى آسيا ، يلتمسون نصيبهم من مزارع مصر الخصيبة . وقد تألف هؤلاء الوافدون جميعا من جنس جديد اطلق على نفسه اسم « رهت » اى الرجال ، وكان هؤلاء الرجال حقيقين بأن يحمدوا للقدر أن حملهم الى ذلك الشريط الضيق من الارض . ففى صيف كل عام يحيل النيل الوادى الى بحيرة ضحلة ، فاذا ما انحسرت المياه عنه غطيت حقول الحنطة والمروج جميعا بطبقة من اخصب الطين سمكها عدة بوصات .

وادى النيل بمصر

---

(١) لقد كان المصريون القدماء فى اول الأمر يرسمون صورا يؤدى كل منها معنى معينا . ومثال ذلك رجل يهوى بآلة حربية فوق رأس رجل آخر جاث أمامه ، ويدل ذلك على « الانتصار فى حرب » ثم تقدمت هذه الفكرة الى تعيين نطق محدد لكل صورة ، وتقسيم الكلمة الى مقاطع كل مقطع له مدلول صوتى خاص . فمثلا اذا اراد المصرى أن يكتب بالهيروغليفية كلمة « مهرجان » قسم هذه الكلمة الى مقطعين :

الأول « مهر » ورسم صورة حصان ، والثانى « جان » ورسم صورة « جنى » ، ثم خص المقطعين بصورة توضيحية تعرف باسم « العلامة المخصصة » وهى التى تدل على ماسبقها من علامات .

المترجمان

www.ibtesama.com/vb/

فى مصر نهر كريم يفعل ما يفعله مليون من الرجال ؟ ويسر اطعام ذلك العدد الغفير من سكان أول مدن عظيمة بلغنا خبر من اخبارها . صحيح ان الاراضى الزراعية لم تكن كلها فى الوادى ، ولكن كانت هناك شبكة معقدة من القنوات الصغيرة والشواديف الجيدة ترفع المياه من مستوى سطح النهر الى اعلى جسوره ، بل ان ثمة مجموعة من المساقى تنتشر فى طول البلاد وعرضها .

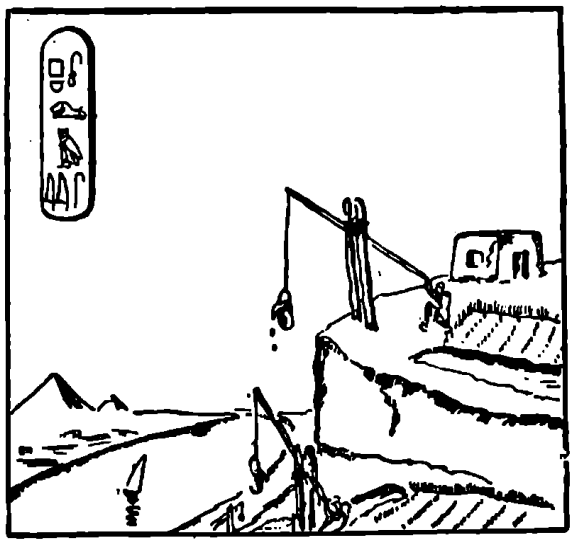

وادى مصر

كان الانسان فيما قبل التاريخ مضطرا الى انفاق ست عشرة ساعة كل يوم سعيا وراء طعامه وطعام اسرته . اما الفلاح المصرى وساكن المدن المصرية فقد كان لديهما فراغ ينفقانه فى صنع اشياء كثيرة لمجرد الزينة دون ان تعود عليهما بنفع ما .

ولم يقتصر الامر على هذا ، فقد اكتشف المصرى فى يوم من الايام ان عقله يستطيع ان يسلك جميع ضروب التفكير التى لا تتصل اى اتصال بمسائل الطعام والنوم والتماس المأوى ، فبدأ يتدبر عدة مشاكل عجيبة اعترضته . فقد اخذ يتساءل : من اين اتت النجوم ؟ ومن ذا الذى صنع صوت الرعد الذى كان يفزعه اشد الفزع ؟ ومن ذا الذى جعل النيل يفيض فى مواسم معينة ، مما يسر عليه ان يجعل اساس التقويم ظهور الفيضان السنوى وانحساره ؟ . ولكن من يكون هذا المصرى ذاته — ذلك المخلوق العجيب الصغير ، يحيط به المرض والموت من جميع الجهات ، ومع ذلك فهو سعيد جذلان ؟

سأل المصرى هذه الاسئلة الكثيرة ، وتصدى بعض الناس عن طيب خاطر للاجابة عنها بقدر ما يستطيعون . وقد سماهم المصريون « الكهنة » ، واصبح هؤلاء هداتهم ، واكتسبوا احتراما كبيرا بين الجماعة . وكان هؤلاء الكهنة على علم غزير ، ندبوا لتلك المهمة المقدسة ، وهى حفظ الوثائق المكتوبة . وقد ادركوا انه ليس من صالح الانسان ان يقصر تفكيره على اخص ما يعود عليه بالنفع فى هذه الحياة الدنيا ، فوجهوا تفكيره الى عالم المستقبل ، عند ما تسكن روحه فيما وراء الجبال الغربية ، وتطالب بتقديم حساب عن اعمالها امام اوزوريس الاله الاعظم ، مدبر الاحياء والاموات ، الذى يحكم على اعمال الناس بما قدمت ايديهم . وليس من شك ان الكهنة قد عظموا من شان ذلك اليوم الآخر فى مملكة ايزيس واوزوريس ، حتى ان المصريين بدأوا ينظرون الى الحياة الدنيا على انها مرحلة قصيرة يتهيأ فيها المرء لليوم الآخر ، وبذلك احالوا وادى النيل المكتظ بالسكان الى ارض كرست للأموات .

وقد انتهى المصريون على نحو عجيب الى الاعتقاد بانه ما من روح تستطيع ان تدخل مملكة اوزوريس الا اذا احتفظت بالجسد الذى كان مستقرها فى الحياة الدنيا ، ومن ثم كان افراد اسرة الميت يسرعون الى تحنيط جثمانه ، وكانوا يضعون هذا الجثمان اسابيع عدة فى محلول النطرون ، ثم يحشى بعد ذلك بالقار ، ويطلق على القار بالفارسية اسم « **موميای** » (Mumiai) ، ومن ثم اطلق على الجثة المحنطة اسم المومياء . وكانت تدرج فى نوع خاص من قماش الكتان يبلغ طوله عدة ياردات ، ثم توضع فى تابوت جهز خصيصا لتنقل الى المثوى الأخير للميت . على ان قبر المصرى كان منزلا حقيقيا ، فكانت تحيط بالجثة قطع من الاثاث والآلات الموسيقية لتروح عن الميت اوقات الانتظار المملة ، وتماثيل صغيرة تمثل طباخين وخبازين وحلاقين لكى يعدوا لنزيل هذا القبر المظلم ما هو اهل له من طعام ، ولا يدعونه يخرج فى جولاته عاطلا من الزينة .

وكانت هذه القبور تنحت بادىء الأمر فى الصميم من صخور الجبال الغربية . فلما انتقل المصريون نحو الشمال اضطروا الى بناء مقابرهم فى الصحراء . على

www.ibtesama.com/vb/

ان الصحراء مليئة بالوحوش المفترسة وبالفتاك من اللصوص ، فكانوا يقتحمون المقابر ويزعجون المومياات، او يسرقون الحلى ، التى تكون قد دفنت معها . واراد المصريون أن يحولوا دون انتهاك حرمة هذه المقابر فجروا على بناء رواب صغيرة من الحجر فوق سطح المقابر . وقد تضخمت هذه الروابى الصغيرة على مر الأيام لأن الأغنياء كانوا يقيمون روابى اعلى من التى يقيمها الفقراء . وكان ثمة تنافس كبير بين الناس على اقامة اعلى هذه الروابى والمصاطب الحجرية . وقد حار الملك **خوفو** ـ الذى عاش منذ ثلاثين قرنا قبل الميلاد ، ويعرفه اليونانيون باسم **خيوبس** ، قصب السبق فى هذا المضمار . وكانت الرابية التى ابتناها يبلغ ارتفاعها اكثر من خمسمائة قدم . وقد اطلق اليونانيون على هذا البناء اسم هرم (Pyramid) لان الكلمة المصرية التى تطلق على الشىء المرتفع هى « برموس » (Per-em-us)

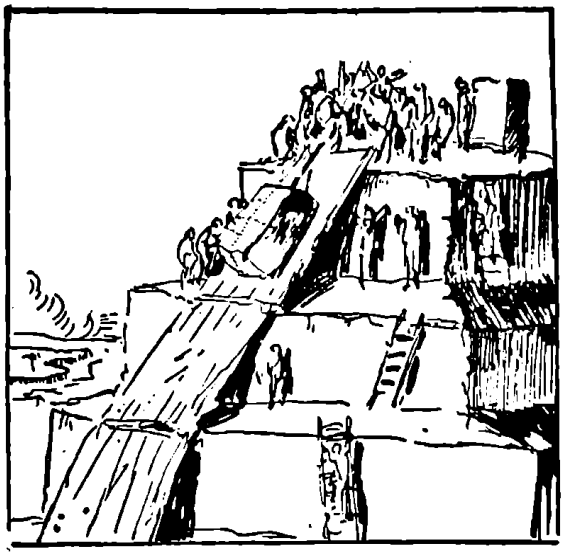

بناء الاهرام

ويشغل هذا الهرم مساحة من الصحراء تزيد على ثلاثة عشر فدانا ، وهى اكثر من ثلاثة امثال المساحة التى تشغلها كنيسة القديس بطرس ... اكبر عمارة فى العالم المسيحى .

وقد عمل فى بناء الهرم اكثر من مائة الف رجل مدة عشرين سنة ، وكانوا يحملون الاحجار اللازمة للبناء من الضفة الاخرى للنهر وينقلونها عبر النيل بوسيلة لا نعرفها حتى الآن ، ثم كانوا ـ فى كثير من الاحيان ـ يجرونها مسافات طويلة عبر الصحراء ، ثم يضعونها آخر الامر فى موضعها الصحيح . وكان عمل مهندسى الملك ومعماريه من الدقة بحيث ان الممر الضيق الموصل الى القبر الملكى فى جوف الهرم الهائل لم يتغير شكله بتأثير ضغط آلاف الاطنان من الاحجار التى تضغط عليه من جميع الجوانب .

قصة مصر

نهضة مصر وسقوطها

كان النيل صديقا رحيما ، ولكنه كان فى بعض الاحيان مثل « مقدم العمال » يقسو عليهم ويشتد . فقد علم الشعب الذى يسكن على ضفتيه فن العمل الجماعى النبيل ، فاعتمد بعضهم على بعض فى شق قنوات الرئ والعناية بالجسور ، وتعلموا على هذا النحو ايضا كيف يعاملون جيرانهم ، فنما مجتمعهم الذى يقوم على المنفعة المتبادلة فى غاية اليسر حتى اصبح دولة ذات كيان .

وازداد باس احدهم حتى غلب على معظم جيرانه ، فاصبح زعيم الجماعة وقائدها عند ما دفع الحسد جيران المصريين الذين يسكنون آسيا الغربية الى الاغارة على الوادى السعيد . واصبح هذا الرجل بمضى الزمن ملكا عليهم ، وحكم البلاد من البحر المتوسط حتى الجبال الغربية .

غير ان هذه المغامرات السياسية التى اقدم عليها الفراعنة الأقدمون (**وفرعون** كلمة معناها « الرجل الذى عاش فى البيت الكبير ») قلما كانت تروق ذلك الفلاح الصبور الدءوب على عمله فى حقول الحنطة. وكان الفلاح يسلم بحكم فرعون تسليمه بحكم اوزوريس الاعظم مادام لا يضطر الى ان يؤدى الى ملكه من الضرائب الا ما يراه حقا .

على ان الامر كان يختلف عن ذلك اذا ما اغار

www.ibtesama.com/vb/

على البلاد فاتح أجنبى ، وسلب الفلاح ممتلكاته .

لقد نعمت مصر بالاستقلال عشرين قرنا ، ثم اغارت عليها قبيلة عربية همجية من الرعاة تعرف باسم الهكسوس ، سادت البلاد خمسمائة عام . وكان المصريون ينفرون اشد النفور ، ويضمرون اشد المقت لليهود الذين وفدوا على مصر من بلاد **كوش** يلتمسون المأوى بعد تجوالهم الطويل فى الصحراء ، وهم الذين ساعدوا الغاصب الاجنبى ، فرضوا أن يستخدمهم جباة للاموال ، وقاموا له بالاعمال المدنية الاخرى .

وثار اهل طيبة بعيد عام ١٧٠٠ قبل الميلاد ، وتمكنوا بعد جهاد طويل من طرد الهكسوس من البلاد ، فعادت مصر الى سابق حريتها .

ثم انقضى الف من السنين غزت فيها اشور جميع بلاد اسيا الغربية ، فاصبحت مصر جزءا من امبراطورية **سرداناباليس** .

واستعادت مصر استقلالها مرة اخرى فى القرن السابع قبل الميلاد ، وخضعت لسلطان ملك كان يعيش فى مدينة صايس من اعمال الدلتا . على أن **قمبيز** ملك الفرس استولى على مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد . وغدت مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ولاية تابعة لمقدونيا عند ما فتح الاسكندر الاكبر بلاد فارس .

واستعادت مصر مظهرا من مظاهر الاستقلال عندما تملك مصر احد قواد الاسكندر ، واسس بها اسرة البطالمة التى جعلت من الاسكندرية المنشأة حديثا مقرا لملكها .

ثم جاء الرومان آخر الامر عام ٣٩ قبل الميلاد . وحاولت **كليوباترة** ـ آخر ملكة مصرية ـ ما وسعها ان تنقذ البلاد ، اذ كان جمالها وسحرها اخطر على قواد الرومان من عدة فرق من الجيش المصرى . وقد افلحت مرتين فى غزو قلوب غزاتها الرومان ، ولكن **اغسطس** ـ ابن اخى **قيصر** ووريثه ـ نزل الاسكندرية عام ٣٠ قبل الميلاد ، ولم يشارك عمه اعجابه بهذه الاميرة الجميلة ، فقضى على جيوشها ولكنه ابقى على حياتها لتسير فى موكب نصره غنيمة من غنائم الحرب . ولما سمعت كليوباترة بنواياه قضت على حياتها بتناول السم ، واصبحت مصر ولاية رومانية .

مابين النهرين

ارض الجزيرة
المركز الثانى للحضارة الشرقية

ساصعد بك الآن الى قمة الهرم الأكبر ، وساسالك أن تتخيل ان عينيك اصبحتا فى حدة عينى الصقر ، وساحملك بعيدا ، وبعيدا جدا ، وراء رمال الصحراء الصفراء ـ ولسوف ترى شيئا اخضر يتالق .. انه واد بين نهرين . انه جنة العهد القديم . انه ارض الأسرار والعجائب التى سماها الاغريق بلاد **مابين النهرين** . اما النهران فهما الفرات « وسماه البابليون **بوراتو** » ودجلة « وكان يعرف باسم **دكلات** » وهما ينبعان من بين ثلوج جبال ارمينية ، حيث ارسى الله فلك نوح ، ثم يفيضان رويدا رويدا مخترقين السهل الجنوبى الى أن يبلغا ضفاف الخليج الفارسى الموحلة . ولهذين النهرين نفع جزيل : فهما يحيلان اقاليم غرب اسيا المحلة الى جنة غناء .

ولقد جذب وادى النيل اليه الناس لانه كان يمدهم بالطعام فى غير مشقة كبيرة . وكانت بلاد ما بين النهرين محببة الى الناس لهذا السبب ايضا ، فقد كانت بلادا مأمولة الخيرات ، ومن ثم حاول سكان الجبال الشمالية ، والقبائل التى كانت تتجول فى الصحراء الجنوبية ، ان يدعوا ملكية هذه البلاد ، وان ليس لاحد غيرهم حق فيها . وادى هذا التنافس المستمر بين سكان الجبال وبدو الصحراء الى حروب لا يخمد اوارها ، ولم يكن ثمة امل للبقاء بعد تلك الخروب الا لأقوى الأقوياء واشجع الشجعان . وهذا يفسر لنا لم اصبحت الجزيرة موطن قوم شديدى المراس ، استطاعوا ان ينشئوا حضارة تسامى حضارة مصر فى كل ناحية من نواحيها .

www.ibtesama.com/vb/

السومريون

الكتاب السومريون
الذين تحدثنا لوحاتهم الصلصالية
بقصة اشوروبابل، البوتقة السامية العظيمة

كان القرن الخامس عشر عصر استكشافات عظيمة.. فقد حاول **كولومبس** كشف طريق الى جزيرة **كاثاى**، فعثر بقارة جديدة لم تكن على البال. وجهز اسقف نمسوى حملة تضرب فى البحر شرقا للبحث عن موطن دوق المسكوف الاعظم. وقد منيت هذه الرحلة بالفشل التام، ذلك أن موسكو لم يقيض لها من يزورها من رجال الغرب الا بعد ذلك بقرن من الزمان. وقد استكشف رجل من اهل البندقية يدعى **باربيرو** فى هذا الوقت نفسه خرائب آسيا الغربية، وعاد بتقارير عن لغة عجيبة غاية العجب وجدها منقوشة على صخور المعابد فى شيراز، ومحفورة على قطع يخطئها الحصر من الصلصال المحروق.

على ان أوربا كانت مشغولة بأمور اخرى كثيرة، فلم تعرف الكتابات المسمارية الا عند نهاية القرن الثامن عشر، عندما جلب السائح الهولندى **نيبور** الى أوربا اول كتابات مسمارية. وقد سميت بهذا الاسم لان حروفها على شكل الوتد او المسمار. ثم انقضت ثلاثون سنة اخرى قبل ان يتمكن عالم المانى مثابر هو **جروتفند** من قراءة الاحرف الاربعة الاولى: د ـ ا ـ ر ـ ش، وهو اسم الملك الفارسى **دارا**. ثم انقضت عشرون سنة اخرى قبل ان يتمكن الضابط البريطانى **هنرى رولنسن** ـ الذى عثر على كتابة **بهستون** الشهيرة ـ من ايجاد مفتاح لحل رموز الكتابة المسمارية فى غربى آسيا.

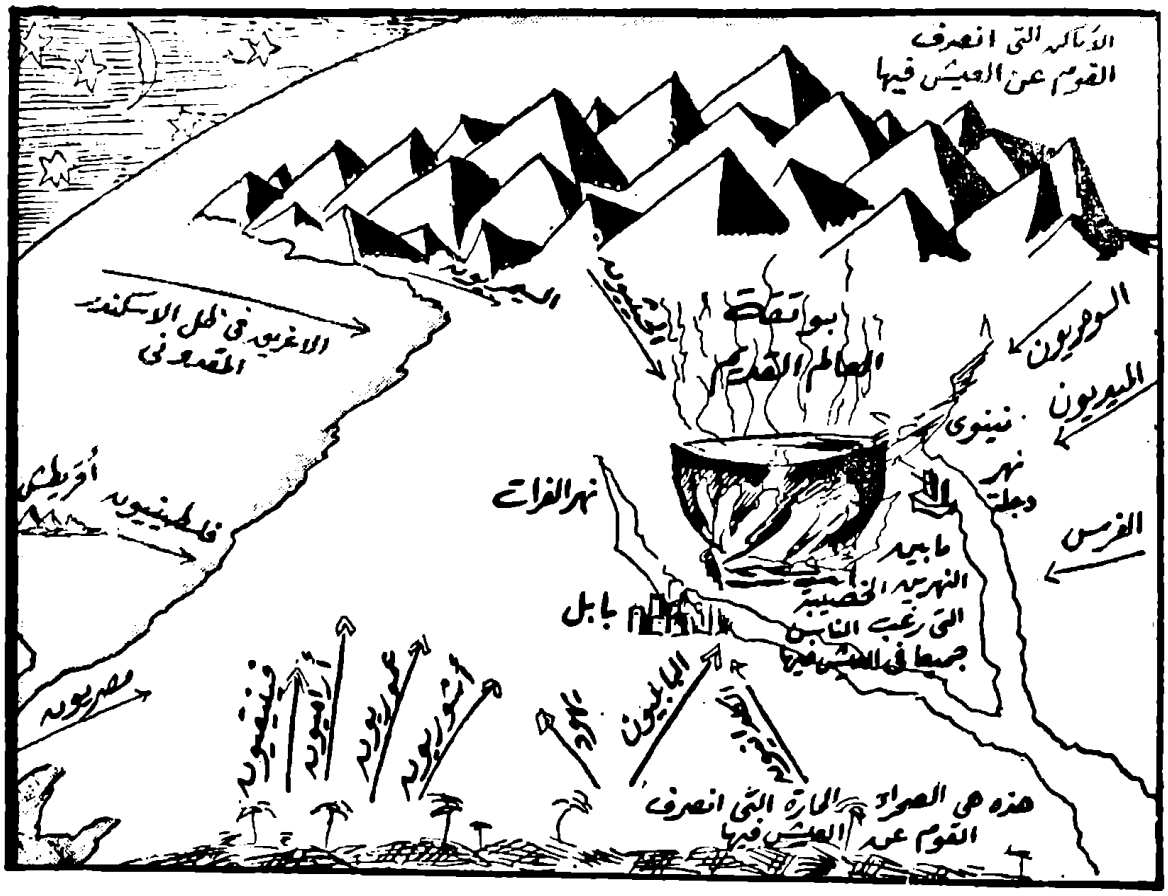

ما بين النهرين ... البوتقة التى انصهر فيها العالم القديم

www.ibtesama.com/vb/

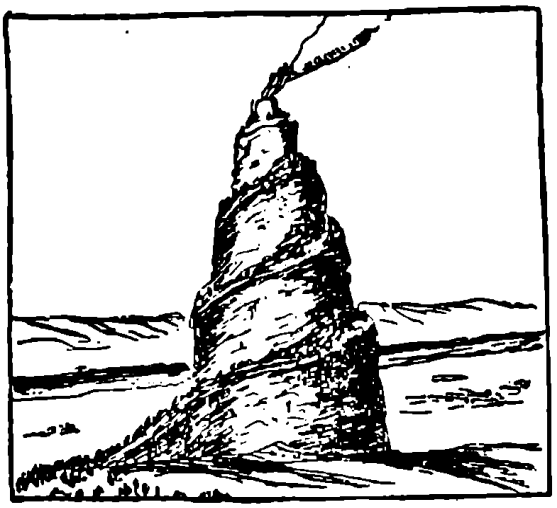

برج بابل

وبعد عمل شامبليون فى حل رموز الكتابة الهيروغليفية سهلا اذا قارناه بحل رموز الكتابة المسمارية . فقد استعمل المصريون الصور فى كتاباتهم ، ولكن السومريين ـ وهم سكان ارض الجزيرة الاولون الذين تكشفت لهم فكرة نقش كلماتهم على الواح من الصلصال ـ قد اقلعوا عن استعمال الصور بتاتا ، ولجأوا الى استعمال مجموعة من الرموز على شكل حرف (V) الافرنجى ، وهى رموز قليلة الصلة بالصور التى تطورت عنها . وحسبى أن اورد لك بعض الامثلة لتتبين ما أقصد (١)

وهذه الطريقة الخاصة بتدوين افكارنا ، وان كانت تبدو اميل الى التعقيد ، الا انه قد استعملها السومريون والبابليون والاشوريون والفرس وجميع الاجناس المختلفة التى شقت طريقها نحو الوادى الخصيب منذ اكثر من ثلاثين قرنا .

وقصة ما بين النهرين هى قصة حروب وغزوات لا نهاية لها . فقد وفد السومريون بادىء الامر من الشمال ، وكانوا جنسا ابيض اللون يعيشون فى الجبال جروا على عبادة آلهتهم على قمم التلال . فلما نزلوا السهل شيدوا تلالا صغيرة ، وابتنوا معابدهم فوق قممها . ولم يكونوا يعرفون كيف يقيمون السلالم ،

(١) وهنا ضرب المؤلف عدة امثلة يتبين منها ان الكتابة المسمارية بدأت بصور تمثل بعض الكائنات ، ثم تحورت الصور الى رموز تكاد تنقطع الصلة بينها وبين الصور الاولى .

« الناشر »

ومن ثم أحاطوا أبراجهم بدهاليز منحدرة ، . وقد استعار مهندسونا هذه الفكرة ـ كما يبدو لك فى محطات السكة الحديد الكبرى ـ حيث نجد دهاليز صاعدة تؤدى من طابق الى آخر . ولعلنا قد استعرنا من السومريين بعض الافكار الاخرى ، ولكنا لا نعرفها . ولقد اندمج السومريون اندماجا تاما فى الاجناس الاخرى التى نفذت فيما بعد الى هذا الوادى الخصيب ، ولا تزال ابراجهم قائمة حتى اليوم بين خرائب ارض الجزيرة واطلالها . وقد شاهد اليهود هذه الابراج فى طريقهم الى المنفى فى ارض بابل ، فاطلقوا عليها اسم بروج « باب ـ ايلى » ، اى بروج بابل .

وقد دخل السومريون ارض الجزيرة فى القرن الاربعين قبل الميلاد ، وسرعان ما تغلب عليهم الاكاديون وهم قبيلة من القبائل الكثيرة الوافدة من صحراء العرب كانت تتكلم لسانا مشتركا ، عرفت باسم الساميين .. ذلك ان الناس فى الازمان الغابرة كانوا يعتقدون أن هذه القبائل قد انحدرت من صلب سام مباشرة ، وهو احد ابناء نوح الثلاثة . واضطر الاكاديون بعد ذلك بالف عام الى الخضوع لحكم العموريين (Amorites) ، وهم قبيلة سامية تقطن الصحراء ، وابتنى ملكها حمورابى العظيم قصر افخما فى مدينة بابل المقدسة ، واستن لقومه مجموعة من

مدينة بابل المقدسة

الشرائع جعلت من دولة بابل احسن امبراطورية منظمة فى العالم القديم . ثم جاء بعد ذلك دور الحيثيين الذين ورد ذكرهم فى كتب العهد القديم ، فقد اجتاحوا الوادى الخصيب ، ودمروا كل ما لم يستطيعوا حمله . ثم غلب هؤلاء على امرهم اتباع اشور اله الصحراء الأعظم ـ ويطلق هؤلاء على انفسهم اسم الأشوريين ـ وهم الذين جعلوا من نينوى عاصمة امبراطورية

www.ibtesama.com/vb/

مترامية الاطراف مهيبة الجانب ، غزت جميع بقاع آسيا الصغرى ، وجبت الضرائب من اجناس عدة خضعت لسلطانها ، وظلت على هذه الحال حتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد .. اذ قام الكلدانيون ـ وهم قبيلة سامية ايضا ـ بتعمير بابل ، وجعلوا منها اهم عاصمة فى ذلك العهد . وكان اشهر ملوكهم **بختنصر** يشجع على دراسة العلوم حتى ان معارفنا الحديثة فى علم الفلك والرياضيات تقوم جميعا على اصول كشفها الكلدان . وفى عام ٥٣٨ قبل الميلاد غزت قبيلة فارسية همجية من الرعاة هذه البلاد القديمة ، وقضت على دولة الكلدان . ثم قضى **الاسكندر الاكبر** بدوره على تلك القبيلة بعد ذلك بمائتى عام ، واحال هذا الوادى الخصيب ـ وهو البوتقة التى انصهر فيها كثير من الأجناس السامية ـ الى ولاية اغريقية ، ثم جاء الرومان ، فالترك من بعدهم ، واصبحت ارض الجزيرة ـ وهى المركز الثانى للحضارة العالمية ـ برية شاسعة تنهض فيها آكام من الثرى تحكى قصة العهد الغابر المجيد .

موسى

زعيم الشعب اليهودى

غادرت قبيلة سامية ضئيلة الشان من الرعاة موطنها القديم فى بلاد **أور** على مصب الفرات فى غضون القرن العشرين قبل الميلاد ، وخرجت تلتمس مراعى جديدة فى حدود بلاد ملوك بابل ، الا ان جنود الملك اقصتها عن هذه البلاد ، فسارت غربا بحثا وراء منطقة صغيرة خالية تضرب فيها خيامها .

وكانت هذه القبيلة من الرعاة تعرف بالعبرانيين ، أو باليهود كما نسميهم . وقد اخذت هذه القبيلة تهيم على وجهها فى كل فج ، وادى بها المطاف بعد سنوات من التجوال الى مصر ، فنزلت فى حماها ، وعاشت بين المصريين نيفا وخمسة قرون . فلما اجتاح الهكسوس مصر ـ كما ذكرنا فى قصة مصر ـ سعى هؤلاء اليهود الى خدمة الغزاة الجدد ، ومن ثم تركوهم ينعمون فى مراعيهم آمنين . وتمكن المصريون بعد جهاد طويل من اخراج الهكسوس من وادى النيل ، وعند ذلك حلت باليهود ايام عصيبة ، اذ نزل بهم المصريون الى مرتبة العبيد ، وأجبروهم على العمل فى تعبيد الطرق الملكية وفى بناء المعابد . وقد استحال على اليهود الهرب لأن الجنود المصريين كانوا يحرسون حدود البلاد . وظل اليهود سنوات عدة يسامون العذاب حتى خلصهم مما ابتلوا به يهودى شاب يدعى موسى ، كان قد سكن الصحراء عهدا طويلا ، وفيها فطن الى قيمة الفضائل الفطرية التى كان عليها اسلافه الأولون الذين نبذوا المدن وحياتها وارتفعوا بأنفسهم عن الانزلاق الى آفات الحضارة الأجنبية ومناعمها .

ولقد وطد موسى العزم على ان يعيد قومه الى سيرة آبائهم الأولين ، فافلح فى الافلات من قبضة الجنود المصريين الذين انفذوا فى اعقابه ، وقاد ابناء عشيرته الى قلب السهل عند سفح جبل سيناء . ولقد تعلم موسى ابان عزلته الطويلة فى الصحراء تبجيل قدرة

موسى ينظر الى الاراضى المقدسة

الاله الاعظم ، رب الرعد والعاصفة ، مدبر السموات العلى الذى يعتمد عليه الرعاة فى معاشهم وهدايتهم وحياتهم .

وكان هذا الاله ـ وهو احد الآلهة الذين شاعت عبادتهم فى اسيا الغربية ـ يدعى **يهوه** . وقد اصبح هذا الاله بفضل تعاليم موسى اله العبرانيين الذى لا اله لهم غيره .

وفى يوم من الايام اختفى موسى عن مضارب اليهود ، وتهامس اليهود بأنه خرج حاملا لوحين من الحجر

www.ibtesama.com/vb/

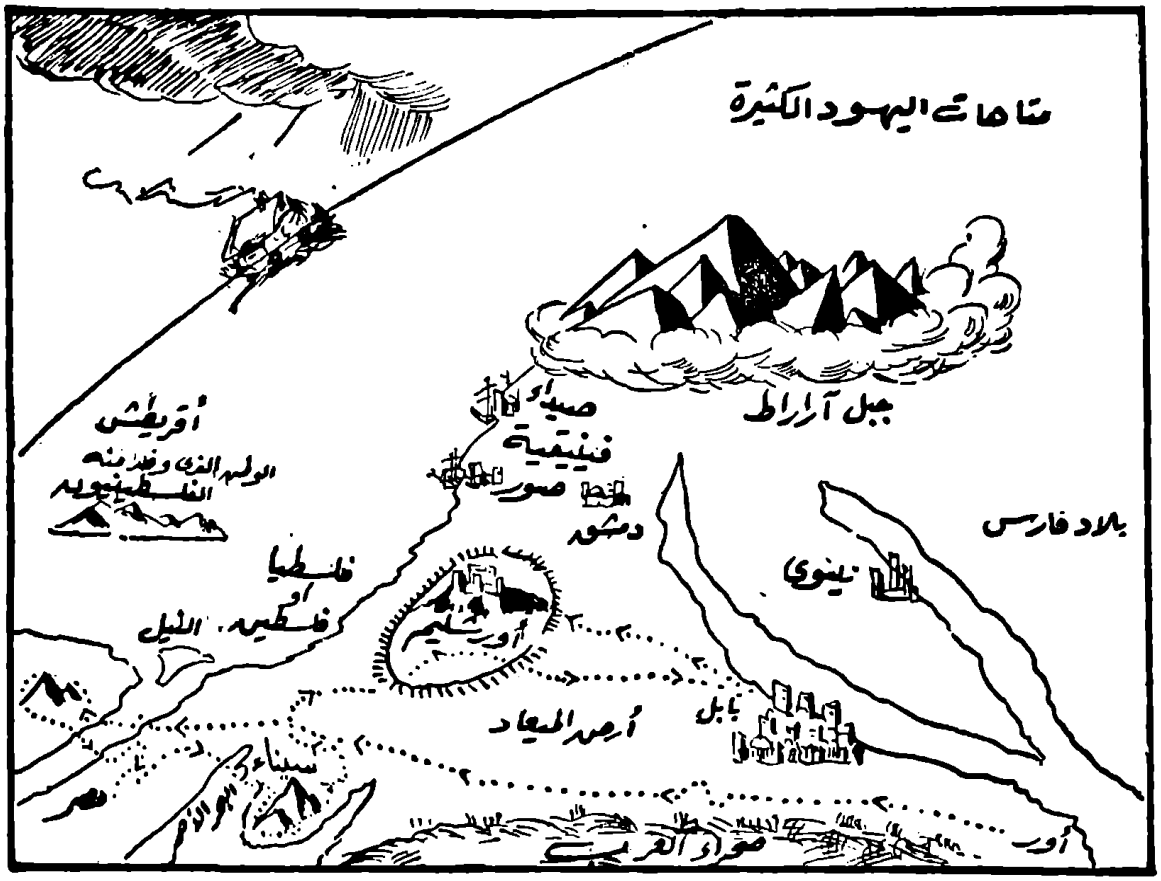

تجوال اليهود

المنحوت نحتا فجا . وفى عصر ذلك اليوم كانت قمة الجبل محجوبة عن النظر اذ اخفتها عن الاعين عاصفة هوجاء ، فلما هبط موسى من فوق الجبل كان منقوشا على هذين اللوحين تلك الكلمات التى تحدث بها يهوه الى شعب اسرائيل بين قعقعة الرعد ووميض البرق . ومنذ ذلك الوقت واليهود يرون فى يهوه انه المدبر الأعلى لمصيرهم ، وانه الاله الواحد الحق الذى علمهم كيف يعيشون عيشة صالحة عندما أوصاهم باتباع تعاليمه الحكيمة الواردة فى وصاياه العشر .

وتبع بنو اسرائيل موسى عندما أمرهم باستئناف رحلتهم عبر الصحراء ، واطاعوا ما أمرهم به فى مأكلهم ومشربهم وما يجب عليهم تجنبه لكى يحتفظوا بصحة ابدانهم فى ذلك المناخ الحار . واستمروا فى رحلتهم عدة سنوات ، ثم استقر بهم النوى فى أرض بدا لهم انها زاهرة تسر العين ، وقد عرفت هذه الأرض بفلسطين ومعناها ارض بلستو ، وهى قبيلة صغيرة من اهل اقريطش (كريت) ، استقرت على الشاطىء بعد ان اخرجت من بلادها . ومن سوء الحظ ان فلسطين فى ذلك الوقت كان يسكنها جنس سامى آخر يعرف باسم الكنعانيين . غير ان اليهود شقوا طريقهم الى اودية البلاد ، وانشأوا لانفسهم المدن ، وشيدوا معبدا هائلا فى مدينة اطلقوا عليها اسم اورشليم او بيت السلام .

اما موسى فلم يعد زعيم قومه ، ولم يسمح له برؤية ذرى جبال فلسطين الا من بعيد ، وبعد ذلك رقد رقدته الابدية . ولقد تفانى موسى فى ارضاء يهوه ، فهو لم يخرج بنى عشيرته من عبودية الأجنبى الى حياة الاستقلال فى وطن جديد فحسب ، بل جعل اليهود اول امة عبدت الاله الواحد ايضا .

www.ibtesama.com/vb/

الفينيقيّون

الذين امدوا العالم بالأبجدية

كان الفينيقيون ، جيران اليهود ، قبيلة سامية استوطنت منذ عهد موغل فى القدم شواطىء البحر المتوسط . وقد ابتنوا لانفسهم مدينتين حصينتين هما صور وصيداء ، ثم احتكروا بعد مدة وجيزة التجارة فى البحارالغربية ، فكانت سفنهم تبحربانتظام الى اليونان وايطاليا واسبانيا ، بل تجاسرت فتوغلت الى ماوراء مجاز جبل طارق لكى تصل الى جزائر سكيلى حيث تستطيع ان تشترى القصدير .

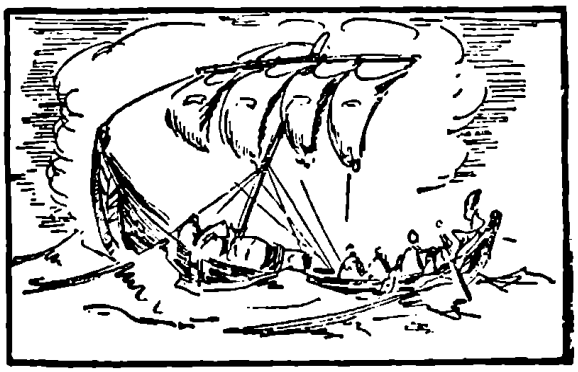

سفن الفينيقيين تجوب البحار

وكان الفينيقيون اينما ذهبوا يبتنون لانفسهم مراكز تجارية صغيرة يطلقون عليها اسم مستعمرات . وكان كثير من هذه المستعمرات النواة التى خرجت منها بعض المدن الحديثة مثل قادس ومارسيليا .

وكان الفينيقيون يتاجرون فى كل مايأملون أن يعود عليهم بالربح الوفير ، لايراعون فى ذلك الا ولا ذمة . ولو اننا اخذنا بما قال عنهم جيرانهم ، لكان الفينيقيون قوما لايعرفون معنى الأمانة والنزاهة . فقد كانوا يرون ان الصندوق المليء بالمال هو المثل الأعلى لكل مواطن صالح .

وليس من شك انهم كانوا ممقوتين ليس لهم من صديق ، ومع ذلك فقد وهبوا لجميع الأجيال المتعاقبة خدمة جلى ، ذلك انهم اورثونا الحروف الهجائية .

لقد كان الفينيقيون على دراية بفن الكتابة التى اخترعها السومريون ، ولكنهم راوا فى تلك الرموز مضيعة سخيفة للوقت . فقد كانوا قوما عمليين لايضيعون الساعات فى نقش حرفين او ثلاثة ، فاكبوا على العمل ، واخترعوا طريقة جديدة للكتابة تفوق الطريقة القديمة بكثير . فاستعاروا قليلا من صور المصريين ، وبسطوا عددا من الرسوم المسمارية ، مضحين بحسن منظر الطريقة القديمة فى سبيل السرعة ، فاختصروا آلاف الرسوم المختلفة الى ابجدية قصيرة سهلة تتالف من اثنين وعشرين حرفا .

وانتقلت هذه الابجدية بمضى الزمن عبر بحر ايجه ودخلت بلاد اليونان ، فاضاف اليها الاغريق حروفا قليلة من عندهم ، ثم حملوا هذه الطريقة المنقحة الى ايطاليا . وغير الرومان فى رسوم الاحرف بعض الشيء ثم قاموا بدورهم بتعليمها لبرابرة غرب اوربا اسلافنا الاقدمين (١) . وكان ذلك السبب الذى من أجله كتب هذا الكتاب (٢) بأحرف فينيقية الاصل ، ولم يكتب بالهيروغليفية المصرية ، أو بالكتابة المسمارية التى ابتدعها السومريون .

الجنس الهندى الأوربّى

الفرس ـ وهم من الجنس الهندى الاوربى ـ يغزون العالم السامى والعالم المصرى

ظل عالم مصر وبابل واشور وفينيقية قائما ثلاثين قرنا أو نحوها . وكانت هذه الاجناس العريقة التى تسكن الوادى الخصيب قد اخذت تدركها الشيخوخة ويمتد اليها الوهن . وحانت منيتهم فى الوقت الذى ظهر فى الأفق جنس آخر جديد أوفر منهم نشاطا . ونحن نطلق على هذا الجنس اسم الجنس الهندى الاوربى ، ذلك لأنه لم يغز أوربا فحسب ، بل هيمن ايضا على البلاد التى تعرف اليوم باسم « الهند البريطانية » (٣) .

---

(١) اسلاف المؤلف (الناشر)

(٢) فى طبعته الانجليزية (الناشر)

(٣) ظهرت الطبعة الاولى من الكتاب عام ١٩٢٢ (الناشر) .

www.ibtesama.com/vb/

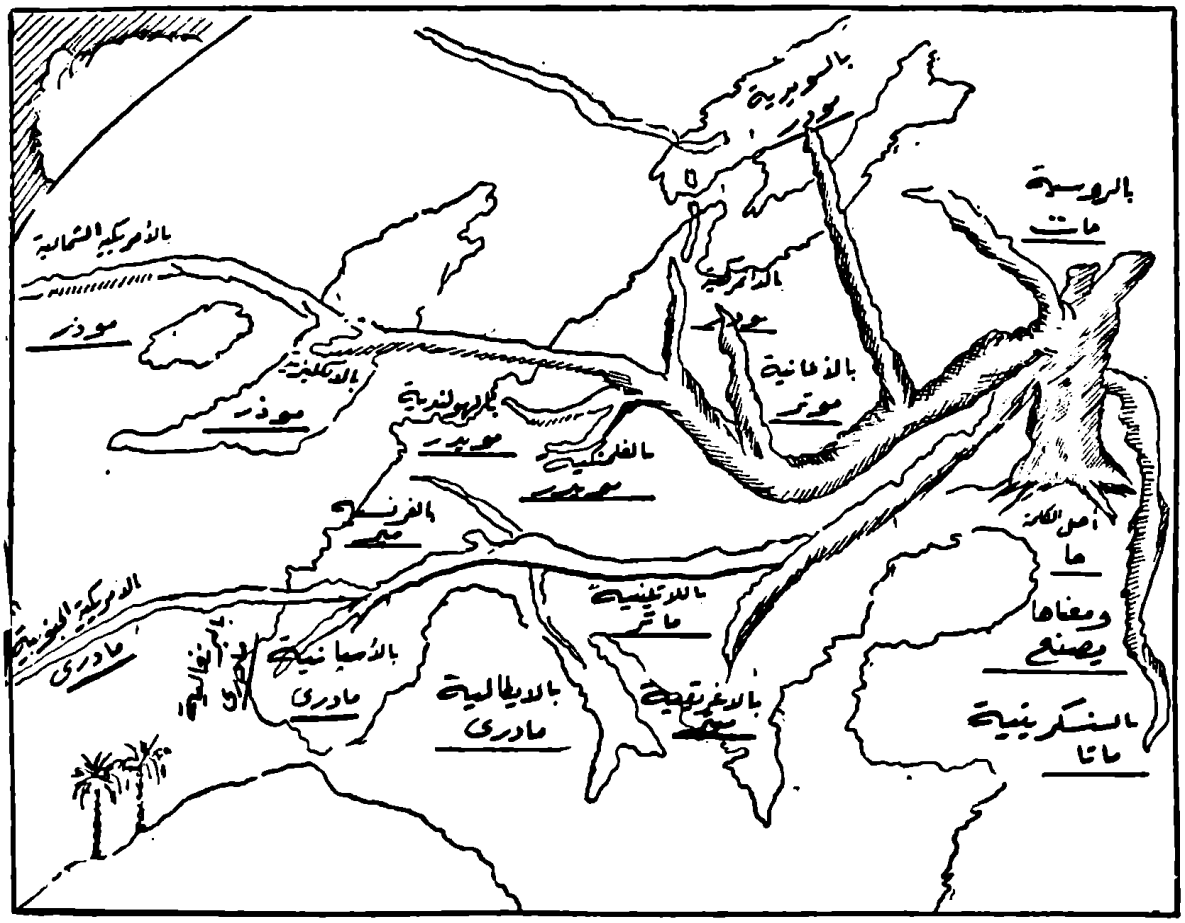

قصة كلمة

وكان هؤلاء الهنود الاوربيون قوما من البيض كالساميين ، ولكنهم كانوا يتحدثون لغة مختلفة عن لغة الساميين ، تعد الأصل الذى اخذت منه جميع اللغات الاوربية ، ماعدا اللغة المجرية والفنلندية ولهجات **الباسك** (البشكنس) التى يتحدثون بها فى شمالى اسبانيا .. وهم يعرفون ايضا باسم **الجنس الآرى** نسبة للكلمةالسنسكريتية « آريا » اى نبيل .

وكان هؤلاء الناس، عند اول سماعنا بهم ، يقطنون شواطىء بحر قزوين منذ قرون عدة ، ولكنهم فى يوم من الأيام حملوا مضاربهم ، واخذوا يتجولون شمالا التماسا لموطن جديد . وذهب فريق منهم نحو جبال اواسط آسيا ، وظلوا عدة قرون يعيشون بين القمم التى تحيط بالهضبة الايرانية . وسار آخرون فى اثر الشمس الغاربة ، واستولوا على سهول اوربا .

وهو ما ساحدثك عنه عند الكلام عن قصةالاغريق والرومان .

وحسبنا الآن ان نتتبع الجنس الآرى .

لقد ترك الكثيرون منهم موطنهم الجبلى ، وساروا تحتزعامةزرادشت استاذهم الاكبر ، متتبعين مجرى نهر السند فى اندفاعه نحو البحر . وآثر البعض ن يقيم بين تلال غربى آسيا ، وهناك انشاوا جماعات شبه مستقلة ، وهم الميديون والفرس ، وهما شعبان اخذنا اسمهما من كتب التاريخ اليونانية القديمة . وانشا الميديون فى القرن السابع قبل الميلاد دولة لهم عرفت باسم ميديا . ولكن هذه الدولة تلاشت من الوجود عندما اقام **قورش** ــ زعيم عشيرة تعرف باسم **انشان** ــ نفسه ملكاعلى جميع القبائل الفارسية . ثم قام بجملة فتوح وغزوات سرعان ما جعلته هو وأولاده سادة على جميع آسيا الصغرى ومصر ، لا ينازعهم فى ذلك منازع .

والحق ان هؤلاء الفرس الهنود الاوربيين قد بلغ من علو همتهم أن وصلت بهم غزواتهم المظفرة الى الغرب ، ومن ثم سرعان ما وقعوا فى مشاكل خطيرة مع بعض القبائل الهندية الأوربية الاخرى التى كانت قد تحركت نحو اوربا قبل ذلك بعدة قرون ، واستولت على شبه جزيرة اليونان وجزائربحرايجه .

www.ibtesama.com/vb/

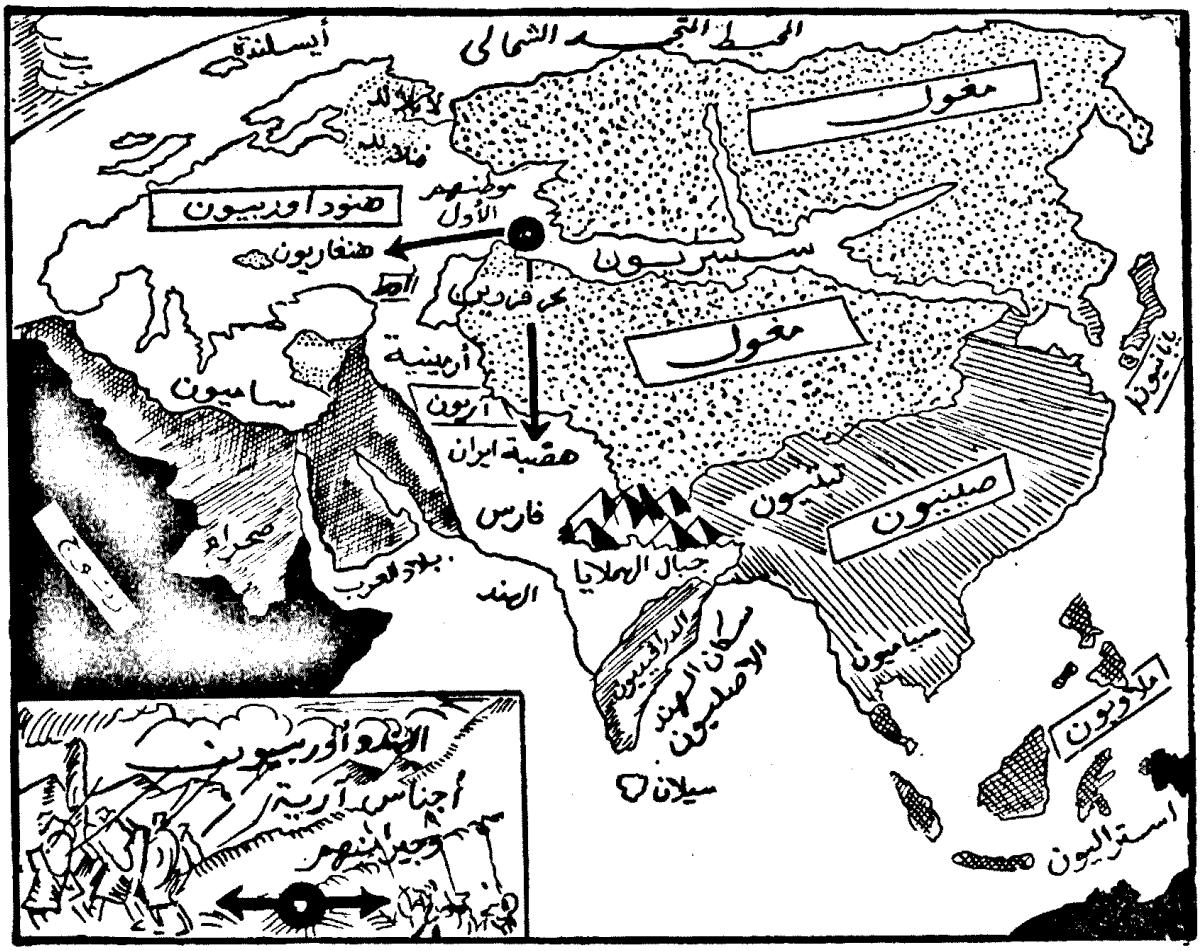

الهنود الاوربيون وجيرانهم

وقد ادت هذه الصعاب الى نشـــوب الحروب الثلاث الشهيرة بين الاغريق والفرس ، وفيها تمكن **دارا** و **اكزرسيس** من ملوك فارس من الاغارة على القسم الشمالى من شبه جزيرة اليونان ،وخربواهذه البلاد ، وحاولوا جهدهم توطيد اقدامهم فى القـارة الاوربية .

ولكنهم عجزوا عن بلوغ هـذا المـارب . . ذلك ان اسطول الاغـريق اثبت انه اسطول لا يقهر . فقد تمكن البحارة الاغريق دائما من قطع خطوط تموين الجيوش الفارسية ، فاضطر المغيرون الاسيويون الى الرجوع الى قواعدهم !

وكان ذلك اول تصادم بين آسيا المعلم القـديم ، واوربا التلميذ الصغير المقبل على التعلم . وسوف نحدثك فى اكثرمن فصل من فصول هذا الكتاب كيف ان هذا النضال قد استمر بين الشرق والغـرب حتى يومنا هذا .

بحـــر إيجـــه

شعب بحر ايجه يحمل حضارة آسيا القديمة الى برارى اوربا

كان **هنريخ شليمان** صبيا صغيرا عندما قص عليه ابوه قصة طروادة . ولقد احب الصبى هذه القصة اكثر من حبه لاى شىء آخر ، حتى انه عقد العـزم على ان يترك وطنه متى بلغ مبلغ الشباب للبحث عن مدينة **طروادة** . ولم يقلق باله انه كان ابن قس قروى فقير فى قرية **مكلينبورج** الصغيرة . لقد ادرك انه فى حاجة الى المال،ولكنه صمم على ان يحصله اولا ثم يقوم بأعمال الحفر بعد ذلك . والحق انه حاول ان

www.ibtesama.com/vb/

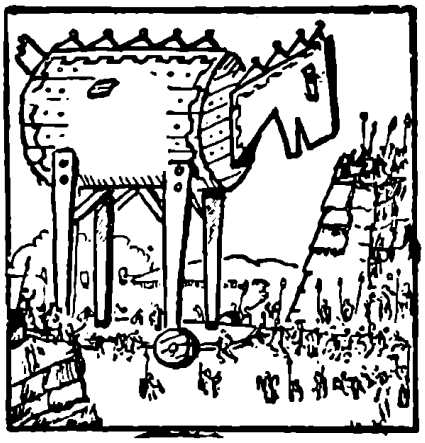

حصان طروادة

يجمع ثروة كبيرة فى وقت قصير ، فما أن تيسر له ما يكفيه لتجهيز بعثة لهذا الغرض حتى شد الرحال الى الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى . ذلك أنه افترض أن طروادة تقوم فى هذه الناحية من الارض .

لقد كانت تقوم فى هذا الركن الفريد من آسيا الصغرى رابية عالية تغطيها حقول الحنطة . وتذهب الروايات الى أن هذه الرابية كانت موطن بريامووس ملك طروادة . وكانت حماسة شليمان تفوق علمه الى حد ما ، ومن ثم لم يضيع وقتا ما فى اعمال التنقيب التمهيدية ، بل أخذ من فوره فى الحفر ، واكب عليه فى شغف وسرعة ، حتى ان الأخدود الذى حفره قد مر فى قلب المدينة التى كان يبحث عنها ، ثم ادى به الى اطلال مدينة اخرى مطمورة اقدم من مدينة طروادة التى تحدث عنها هوميروس بألف سنة على الأقل . وعند ذلك حدث امر عظيم الشأن ، فلو أن شليمان كان قد عثر على عدة مطارق من الحجر المصقول ، او قل على قليل من قطع الخزف الفجة ، لما ادهش ذلك أحدا ـ ولكنه عثر على تماثيل صغيرة جميلة ، وحلى نفيسة ، وزهريات مزخرفة من طراز لم يكن يعرفه الاغريق . . . بدلا من ان يعثر على الادوات المألوفة التى درج الناس على القول بأنها تصاحب انسان ماقبل التاريخ الذى عاش فى تلك الاصقاع قبل مجىء الاغريق .

وقد اجترأ شليمان على القول بأنه كان بقطن ساحل

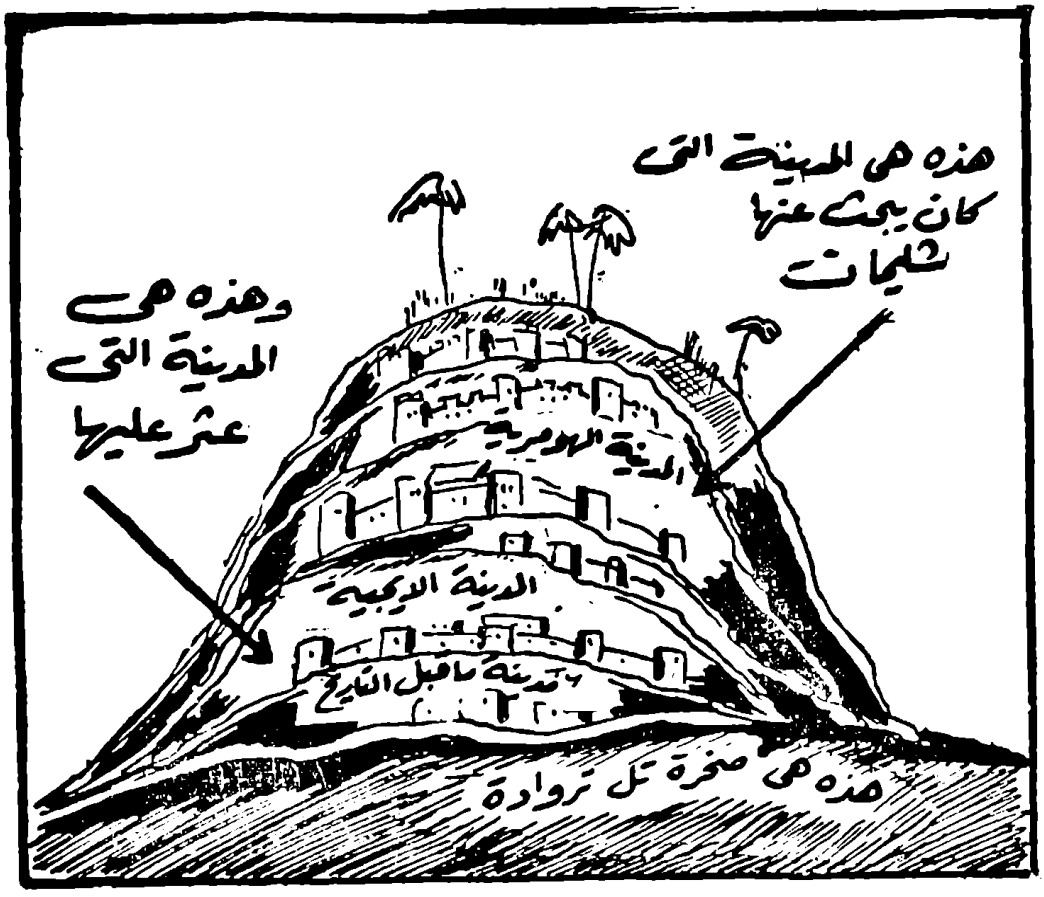

شليمان يحفر بحثا عن طروادة

www.ibtesama.com/vb/

بحر ايجه ، قبل حروب طروادة بعشرة قرون كاملة ، جنس غامض من الناس يفوق من عدة وجوه القبائل الاغريقية الهمجية التى غزت بلادهم ، وقضت على حضارتهم ، أو استوعبوها استيعابا افقدها كل اثر من آثار الابداع والاصالة .

وقد ثبت ان ذلك هو عين ماحدث . ففى اواخر العقد السابع من القرن الماضى زار شليمان اطلال **ميسين** ـ وهى اطلال قديمة جدا حتى ان كتب الرحلات الرومانية كانت تعجب من قدمها ـ وهناك ايضا عثر شليمان تحت رضام مستوية لحظيرة صغيرة مستديرة على كنز عجيب خلفه ذلك الشعب الذى غطى الشاطىء اليونانى بمدائنه، وشيد اسوارا بلغ من ضخامتها ومتانتها ان الاغريق قالوا عنها انها من صنع الجبابرة ، وهم اولئك العمالقة اشباه الآلهة الذين اعتادوا فى الازمنة الغابرة ان يلعبوا الكرة بقنن الجبال ...

ميسين من أعمال ارجولس

وقد ادى البحث الدقيق لهذه الآثار الكثيرة الى نبذ كثير من السمات الخيالية التى تحيط بهذه القصة. فان صانعى هذه الآثار الفنية ، وبناة هذه الحصون المنيعة ، لم يكونوا من السحرة ، ولكنهم كانوا مجرد بحارة وتجار عاشوا فى جزيرة اقريطش وفى الجزائر الصغيرة الكثيرة المنتشرة فى بحر ايجه . لقد كانوا رجال بحر اشداء احالوا بحر ايجه الى مركز لتبادل التجارة بين الشرق العريق فى حضارته وبين البرارى الاوربية التى كانت تسير رويدا رويدا فى سبيل التقدم .

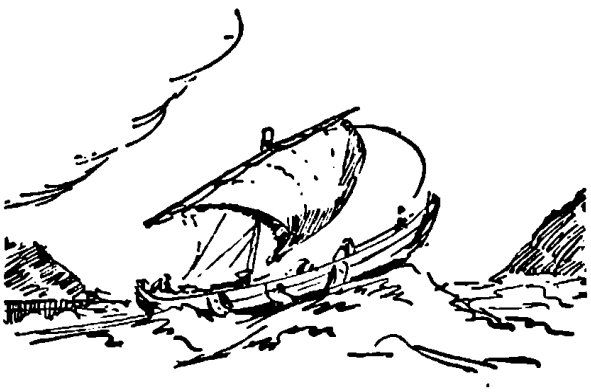

بحر ايجه

وقد احتفظوا بامبراطوريتهم الجزرية نيفا والف سنة بلغ فيها الفن شاوا كبيرا من التقدم . وكانت اهم مدينة فى تلك الامبراطورية هى **كنوسوس** ، على الشاطىء الشمالى لجزيرة اقريطش ، وكانت مدينة حديثة بمعنى الكلمة فى محافظتها على اسباب الصحة والرفاهية ، فقد كان قصرها يصرف منه الماء على خير وجه ، كما كانت منازلها مزودة بالمدافىء .

وكان اهل هذه المدينة هم اول شعب استعمل احواض الاستحمام ، وظلت مجهولة حتى ذلك العهد. واشتهر قصر الملك بما كان به من سلالم حلزونية واروقة كبيرة للولائم . وكان يخزن فى الصوامع المبنية تحت القصر الخمور والحبوب وزيت الزيتون ، وقد بلغت من الاتساع حدا ادهش اول من زار القصر من الاغريق . ونشأ عن ذلك **قصة التيه** ، وهو الاسم الذى نطلقه على البناء الذى تكثر فيه الممرات المتشابكة ، حتى يكاد يستحيل علينا ان نخرج منه اذا ماروعنا ببابه الامامى يقفل علينا .

ولكننى لا استطيع ان اخبركم عن المصير الذى حل بهذه الامبراطورية الايجية العظيمة ، ولا عن السبب الذى ادى الى سقوطها فجاة .

لقد كان اهل اقريطش على علم بفن الكتابة ، ولكن لم يستطع احد بعد حل رموز كتاباتهم ، لذلك فانا نجهل تاريخهم ، ولكن لا مناص من ان نجدد سجل مغامراتهم مستعينين بالاطلال التى خلفها الايجيون .

تدلنا هذه الاطلال على ان العالم الايجى قد دهمه بالغزو جنس اقل منه حضارة، وقد فى عهد حديث من سهول اوربا الشمالية . ونستطيع ان نزعم ان

www.ibtesama.com/vb/

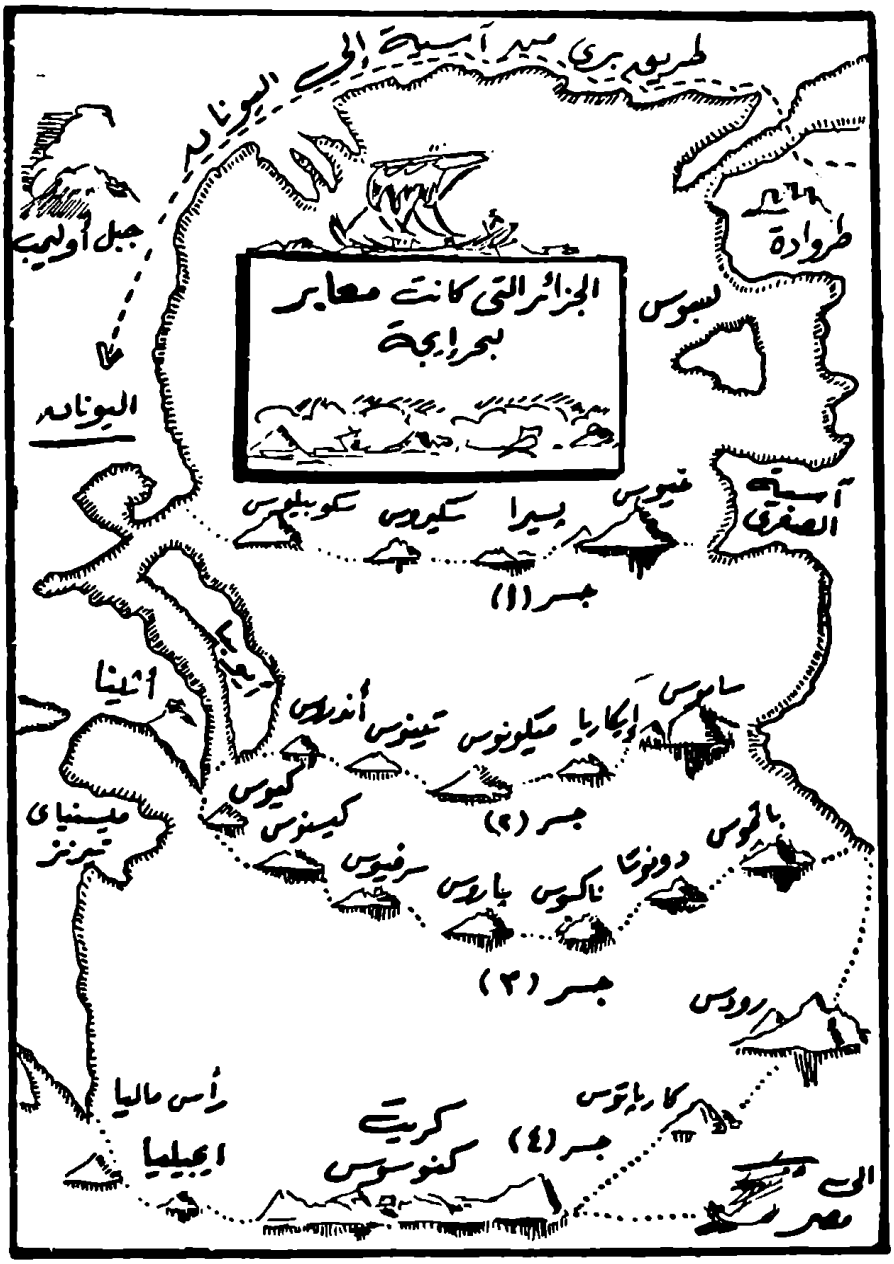

سلسلة الجزر التي اتخذت معابر بين آسيا واوربا

الهمج الذين قوضوا حضارة اقريطش وحضارة بحر ايجه انما هم بعض القبائل من الرعاة الذين كانوا قد استولوا وشيكا على شبه الجزيرة الصخرية التي تفصل الأدرياوى عن بحر ايجه ، والذين يعرفون باسم الاغريق ... اللهم الا اذا كان زعمنا هذا يجافي الحقيقة الى حد كبير .

الإغريق

قبيلة هيلين الهندية الاوربية تستولي على بلاد الاغريق

كانت الاهرام قد بلغت من العمر الف سنة ، وبدا عليها أول دلائل البلى . وكان حمورابى ، ملك بابل الحكيم ، قد اخترمته المنية ، وثوى فى قبره منذ قرون عندما غادرت قبيلة صغيرة من الرعاة موطنها الأصلى على ضفاف الدانوب ، واخذت تتجول جنوبا التماسا لمراع جديدة . وكان افراد هذه القبيلة يطلقون على

www.ibtesama.com/vb/

انفسهم اسم **الهيلينيين**، نسبة الى **هيلين** ولد **ديوكاليون** من زوجه **بيرها** . وتذهب الاساطير القديمة الى ان ديوكاليون وزوجه كانا المخلوقين الوحيدين اللذين نجيا من الطوفان العظيم الذى كان قد اهلك جميع اهل الأرض منذ سنين يخطئها الحصر ، وذلك عندما امعن الناس فى الضلالة ، واغضبوا **زيوس** الاله الاعظم الذى كان يعيش على جبل **اوليمبوس** .

ولا نعرف شيئا عن هؤلاء الهيلينيين الأقدمين ، فقد وصفهم **تيوسيديدس** مؤرخ سقوط اثينا بقوله : انهم لم يبلغوا شأوا عظيما . ولعل قوله هذا قد اصاب كبد الحقيقة ، فقد كان هؤلاء الهيلينيون على جانب كبير من انحطاط الخلق : يعيشون عيشة الخنازير ، ويلقون باجساد اعدائهم الى الكلاب المتوحشة التى كانت تحرس اغنامهم . وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الاخرى ، فقد قتلوا اهالى

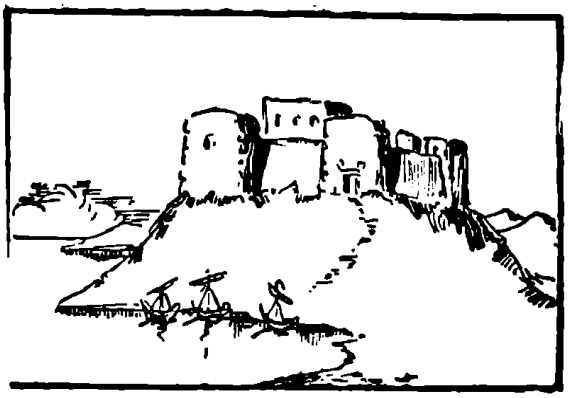

مدينة ايجية على ارض الوطن الاغريقى

شبه جزيرة اليونان الذين كانوا يعرفون باسم **الفلاسجة** ، ونهبوا مزارعهم ، واستولوا على ماشيتهم ، وسبوا نساءهم وبناتهم . وكانوا لا يكفون عن التغنى بشجاعة عشيرة الآخيين ، وهم الذين قادوا طلائع الهيلينيين الى جبال **تساليا والبلوبونيز** .

وقد شاهدوا هنا وهناك فوق الصخور العالية حصون الايجيين فلم يهاجموها ، لانهم كانوا يخشون السيوف المعدنية والرماح التى فى أيدى جنود ايجه ، وعرفوا انه لا أمل لهم فى التغلب عليهم بواسطة فؤوسهم الحجرية الفجة .

وقد دابوا على التجوال عدة قرون من واد الى واد ، ومن سفح جبل الى سفح جبل آخر ، حتى احتلوا البلاد بأجمعها فانقطع سيل الهجرة . ومن هذه اللحظة بدات الحضارة الاغريقية : ذلك ان الفلاح الاغريقى الذى كان يعيش على مرأى من

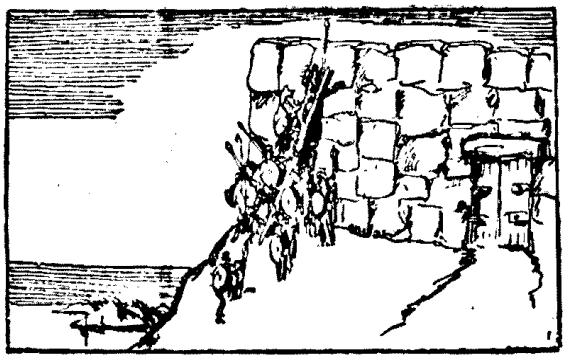

الاخيون يستولون على مدينة ايجية

المستعمرات الايجية قد دفعه فضوله آخر الأمر الى زيارة جيرانه اهل الجبال . وتبين له انه يستطيع ان يتعلم امورا كثيرة نافعة من القوم الذين كانوا يسكنون وراء اسوار **ميسين وتيرينز** الحجرية العالية .

وكان الفلاح الاغريقى تلميذا نجيبا ، اذ سرعان ما برع فى استعمال هذه الأسلحة الحديدية الغريبة التى جلبها الايجيون معهم من بابل وطيبة ، وادرك اسرار الملاحة ، فاخذ فى بناء سفن صغيرة يستعملها فى شأنه الخاص — فلما فرغ من كل ما يمكن ان يتعلمه على يد الايجيين ، انقض عليهم وطردهم الى جزائرهم .

وسرعان ما تجاسر وركب البحر ، وغزا جميع مدن بحر ايجه ، وانتهى به الأمر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد الى سلب مدينة **كنوسوس** وتخريبها ، واصبح الهيلينيون ، بعد عشرة قرون من ظهورهم على مسرح الحوادث ، سادة اليونان وبحر ايجه والاقاليم الساحلية من آسيا الصغرى ، لا ينازعهم فيها منازع . اما طروادة — آخر معقل تجارى عظيم من معاقل المدنية القديمة — فقد حل بها الدمار فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ومن ثم قيض للتاريخ الاوربى ان يبدأ بكل ماله من خطر .

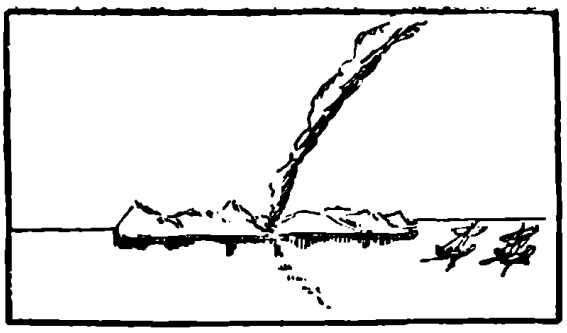

سقوط كنوسوس

www.ibtesama.com/vb/

المدن الاغريقية التى كانت دولا حقا

نحب ـ نحن المحدثين ـ أن نسمع كلمة « كبير ». فنحن نفخر بأن نكون من رعايا اكبر امبراطورية فى العالم ، ولدينا اكبر بحرية ، وننتج اكبر محصول من البرتقال والبطاطس ، ونحب أن نسكن فى مدن يبلغ عدد سكانها ملايين من الأنفس ، واذا متنا دفنا فى اكبر جبانة ...

واذا قدر لمواطن فى بلاد الاغريق القديمة ان يستمع الى حديثنا لما ادرك مرماه ، فقد كان « الاعتدال فى كل امر » هو الغاية التى يصبو اليها الاغريقى فى حياته ، فلم تكن تستهويه الضخامة فى قليل او كثير. وحب الاعتدال هذا لم يكن مجرد عبارة يسوقها فى بعض الظروف الخاصة ، فقد كان يؤثر فى حياة الاغريق منذ ولادتهم الى حين وفاتهم . لقد كان جزءا من ادبهم ، وهو الذى دفعهم الى اقامة معابد بلغت حد الكمال وان كانت صغيرة . وقد تجلى الاعتدال فى ملابس الرجال وفى خواتيم نسائهم واساورهن . لازم هذا الاعتدال ايضا الجماهير فى ذهابهم الى المسرح ، وجعلهم يهزأون بكل كاتب مسرحى يجسر على الخروج على ذلك القانون الصارم الذى يفرض عليهم مراعاة سلامة الذوق وحسن التقدير .

وقد بلغ من امر الاغريق انهم كانوا حريصين على ان يتصف بهذه الخلة ساستهم واشهر رياضييهم ، فاذا ما بلغ عداء ماهر الى اسبرطة ، وباهى الناس بانه يستطيع ان يقف على رجل واحدة مدة اطول مما يستطيعه اى رجل آخر فى هلاس ، لأخرجه الناس من المدينة لأنه يفخر بعمل تستطيع اية اوزة ان تفوقه فيه ...

ولكن لم كان الاغريق ، دون غيرهم من اهل العصور القديمة ، ينمون هذه الصفة ويرعونها ؟ .. تقتضى الاجابة على ذلك بيان الاسلوب الذى كان يجرى عليه الاغريق فى حياتهم .

لقد كان اهل مصر او ما بين النهرين رعايا حاكم مطلق ، محوط بالأسرار ، يعيش بعيدا عن شعبه اميالا واميالا فى قصر مظلم ، وقلما كانت الرعية تحظى برؤيته . أما الاغريق فقد كانوا ـ على خلاف ذلك ـ مواطنين احرارا ، يعيشون فى مائة مدينة صغيرة مستقلة ، اكبرها يقل عدد سكانه عن سكان قرية حديثة . فاذا ما قال فلاح يعيش فى اور انه بابلى ، فانه يعنى بذلك انه واحد من مليون شخص غيره يؤدون الجزية للملك الذى اتفق فى ذلك الوقت ان كان صاحب الكلمة فى آسيا الغربية . ولكن اذا فاخر اغريقى بانه اثينى او طيبى ، فانه يشير بذلك الى مدينة صغيرة هى بيته ووطنه فى الوقت نفسه ، ولا يعترف بسيادة أحد الا ارادة الشعب التى تتجلى فى « السوق » .

فوطن الاغريقى فى رايه هو المكان الذى ولد فيه ، وانفق سنى حياته الاولى يلهو ويلعب بين صخور الاكروبول الحرام الى ان شب وترعرع . وهو المكان الذى بلغ فيه مبلغ الرجولة ، هو والف غيره من الصبية والفتيات الذين كانت القابهم مألوفة لديه الفك انت لاسماء زملائك فى المدرسة . وهذا الوطن ، هو تلك الارض المقدسة التى تضم رفات ابيه وامه ، انه بيته الصغير الذى تحتويه اسوار المدينة حيث يعيش زوجه وبنوه فى امن وسلام . انه عالم كامل يشغل مساحة لاتزيد على اربعة فدادين من الأرض الصخرية .

الا ترى الاثر الذى لامناص من أن تحدثه هذه البيئة فى كل ما يفعله هذا الاغريقى او يقوله او يفكر فيه ؟ لقد كان اهل مصر وبابل واشور جزءا من حشد جامع ، فضاعوا وسط هذا الزحام . اما الاغريقى فانه لم يفقد صلته قط بالبيئة التى تكتنفه ، فقد كان دائما ابدا جزءا من مدينة صغيرة يعرف كل فرد فيها اخاه . وكان يشعر ان جيرانه المتيقظين يراقبونه . ولم يكن يغيب عن باله ان اى فعل يصدر عنه ـ سواء اكتب للمسرح ، او نحت التماثيل من المرمر ، اوصنع الاغانى ـ سوف يشترك فى الحكم عليه جميع المواطنين الاحرار من ابناء موطنه الذين لهم دراية بمثل هذه الامور . وكان علمه بذلك يحدوه الى السعى فى طلب الكمال .

www.ibtesama.com/vb/

والكمال ـ فيما لقنه منذ طفولته ـ لم يكن يتأتى الا بالاعتدال .

تعلم الاغريق فى هذه المدرسة الصارمة التفوق فى أمور كثيرة . فابتدعوا صورا جديدة من صور الحكم، واساليب جديدة فى الأدب ، ومثلا جديدة فى الفن لم يقيض لنا قط ان نسمو عليها . ولقد قاموا بهذه الاعاجيب كلها فى قرى صغيرة تغطى مساحات لاتشغل من الأرض اكثر مما تشغله اربعة ميادين او خمسة فى مدينة حديثة .

ثم انظر ما حدث آخر الامر .

غزا الاسكندر الاكبر العالم فى القرن الرابع قبل الميلاد . وما ان فرغ من القتال حتى استقر عزمه على ان يسبغ على العالم اجمع ثمار العبقرية الاغريقية الحقة ، فحمل بدور هذه العبقرية من المدن والقرى الصغيرة ، وحاول ان يجعلها تزدهر وتثمر فى العواصم الترامية لامبراطوريته التى اقامها وشيكا .. لكن الاغريق اذ حرموا رؤية معابدهم التى الفوها ، وأقصوا عن سماع الاصوات التى شجوا على سماعها فى دروب مدنهم ، ولم يعودوا يتنسمون ريحها ـ فارقتهم على الفور بشاشتهم وحبورهم واحساسهم بالاعتدال المحبب الى قلوبهم ، والذى أوحى اليهم بما ابدعته أيديهم وعقولهم عندما كانوا يعملون فى سبيل مجد دول مدنهم القديمة ، فأصبحوا من سوقة الفنانين ، يكتفون بما دون الكمال .

فلما فقدت دول المدن الصغيرة التى قامت فى بلاد الاغريق استقلالها ، وحملت على ان تكون جزءا من أمة كبيرة ، ذوت الروح الاغريقية القديمة ، وحل عليها العفاء من ذلك الوقت .

الإغريق يحكمون أنفسهم بأنفسهم

وهم أول قوم مارسوا تلك التجربة العسيرة

كان الاغريق جميعا فى بادىء الامر سواء فى الغنى والفقر .. فقد كان كل فرد منهم يملك عددا من الابقار والاغنام . وكان كوخه المقام من اللبن هو حصنه وحماه ، وكان حرا فى رواحه وغدوه . وكان المواطنون جميعا يجتمعون فى السوق اذا اقتضى الامر التداول فى مسألة تهمهم جميعا ، وكان ينتخب لرياسة هذا الاجتماع أحد شيوخ القرية ، وكانت مهمته اتاحة الفرصة لكل فرد أن يعبر عن آرائه . فاذا نشبت الحرب اقاموا من بينهم رجلا عالى الهمة ، ماضى الراى ، قائدا لهم يختارونه بمحض ارادتهم ، ويمنحونه حق قيادتهم ، ولهم ايضا نفس الحق فى اقصائه عن منصبه اذا ابتعد عنهم خطر الحرب .

على ان القرية نمت شيئا فشيئا واصبحت مدينة . وكان بعض أهلها يشقون ويكدحون ، وآخرون يخلدون الى الراحة والخمول . وتجهمت الدنيا لقلة منهم ، وعمد آخرون الى الغش فى معاملة جيرانهم فأثروا . ومن ثم لم تعد المدينة تتكون من طائفة من الناس على حظ واحد من خفض العيش ولينه ، بل اصبح يسكنها طبقة صغيرة من كبار الاثرياء ، وطبقة كبيرة من الفقراء المعدمين .

وطرا على المدينة تغير آخر ، ذلك ان الرجل المسن الذى اختارته الجماعة بمحض ارادتها ليكون زعيما أو ملكا عليهم ـ لانها انست فيه انه يستطيع أن يقودهم الى النصر ـ قد اختفى من الميدان ، وحل محله الاشراف ، وهم طبقة من الاثرياء استولت بمضى الزمن على نصيب غير مشروع من المزارع والاملاك .

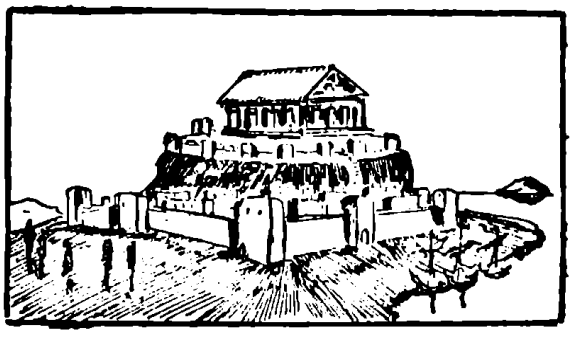

دولة مدينة اغريقية

وكان لهؤلاء الاشراف امتيازات عدة يمتازون بها على جمهور الاحرار من اهل المدينة . فقد كانوا قادرين على شراء اجود الاسلحة التى تباع فى اسواق حوض البحر المتوسط الشرقى ، وكان لهم من الفراغ ما يسمح لهم بالتمرس على فنون القتال ، وكانوا

www.ibtesama.com/vb/

يعيشون في بيوت موحدة الأركان ، ويستأجرون الجند للقتال في سبيلهم .

وكانوا الى ذلك دائبين على قتال بعضهم بعضا في سبيل تولي الحكم في المدينة . ثم اتخذ النبيل الذي غلب عليهم صفة الملك ، واصبح يهيمن على جيرانه جميعا ويحكم المدينة ، حتى يقتله أو يقصيه عن الحكم نبيل آخر يطمع في منصبه .

كان هذا الملك الذي يصل الى العرش بحد السيف ، يعرف باسم « الطاغية » . وكانت كل مدينة اغريقية يحكمها خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد طاغية من هؤلاء . ولقد كان الكثيرون منهم على جانب كبير من المقدرة والكفاية . على ان تلك الحال لم تعد محتملة بمضي الزمن ، وبذلت محاولات للاصلاح ، وقد تمخضت عن اول حكومة ديمقراطية في العالم سجلها التاريخ .

وفي بواكير القرن السابع قبل الميلاد استقر عزم اهل اثينا على تخليص مدينتهم من هذه الشوائب الداخلية ، والعودة الى اعطاء جمهور الاحرار صوتا في الحكم ، كما كان شأنهم في عهد اسلافهم من الاخيين . فطلبوا من رجل يدعى **دراكو** ان يسن لهم مجموعة من القوانين تهدف الى حماية الفقراء من عدوان الأغنياء . وشرع دراكو في الاضطلاع بهذه المهمة ، ولكنه كان لسوء الحظ رجلا من المشرعين المحترفين ، بعيدا الى حد كبير عن الحياة العامة ، فقد كان يرى ان الجريمة هي الجريمة . ومن ثم فانه ما ان اتم قانونه حتى تبين لاهل اثينا ان هذه القوانين اصرم من ان تنفذ ، وقصرت الحبال التي في حوزتهم عن شنق جميع المجرمين في نظر هذا التشريع الجديد الذي كان يرى ان سرقة تفاحة من الجرائم الكبرى .

وتطلع الاثينيون الى مصلح آخر اكثر انسانية من دراكو ، واهتدوا اخيرا الى شخص يستطيع ان ينهض بهذا الأمر على نحو افضل من سائر زملائهم .

كان هذا الرجل ، ويدعى **صولون** ، ينتمي الى اسرة من النبلاء ، طاف جميع ارجاء العالم ، ودرس صور الحكم في دول متعددة . ودرس صولون المهمة دراسة مستفيضة ، وسن لاثينا مجموعة من القوانين يتجلى فيها ذلك الاعتدال العجيب الذي كان جزءا من طباع الاغريق . حاول صولون تحسين حال الفلاحين دون القضاء على رفاهية النبلاء الذين كانوا — او في مقدورهم ان يكونوا — ذوي نفع كبير للدولة بوصفهم من رجال الحرب . فقد رتب صولون في تشريعه امر حماية الطبقات الفقيرة من جور القضاة الذين كانوا ينتخبون دائما من طبقة النبلاء ، لانهم لم يكونوا يتقاضون اجرا على عملهم ، فنص على ان للمواطن ، اذا شكا من غبن وقع عليه ، ان يبسط قضيته على مجلس من المحلفين يتألف من ثلاثين رجلا من المواطنين الاثينيين .

واهم من ذلك كله ما عمد اليه صولون من حمل اوساط الاحرار من المواطنين على المساهمة باشخاصهم مساهمة مباشرة في شئون المدينة . فلا يجوز لاحدهم ان يقبع في بيته ويقول : « آه انني مشغول جدا اليوم » او « ان السماء تمطر فالأجدر بي ان اظل في بيتي » . بل كان المفروض ان يقوم بنصيب في شئون الدولة ، وان يكون حاضرا اجتماع مجلس المدينة ، وان يتحمل المسئولية الخاصة بأمن الدولة ورخائها .

غير ان حكومة الشعب هذه كانت في كثير من الاحيان بعيدة عن ادراك النجاح ، اذ كان هناك جدل كثير عقيم ، وتنافس معيب مرير في سبيل الحصول على شرف المناصب . على ان هذه الحكومة علمت الشعب الاغريقي الاستقلال والاعتماد على نفسه في سبيل خلاصه ، وكان هذا شيئا عظيما .

الحياة الإغريقية

كيف كان يعيش الاغريق ؟

ولكنك ستسألني كيف اتسع وقت الاغريق القدماء للقيام بشئون اسرهم وعملهم وهم يهرعون دائما الى السوق للبحث في شئون الدولة ؟ وساجيبك على ذلك في هذا الفصل .

كانت الديموقراطية الاغريقية لا تعترف الا بطبقة واحدة من المواطنين خولت لها حق مناقشة مسائل الحكم جميعا ، وهذه الطبقة هي الاحرار . فقد كانت كل مدينة اغريقية تتألف من عدد صغير من المواطنين الذين ولدوا احرارا ، ومن عدد كبير من العبيد ، واشتات من الاجانب .

ولم يكن الاغريق يبدون استعدادا لمنح الحقوق المدنية للبرابرة — وهم الاجانب كما كانوا يسمون —

www.ibtesama.com/vb/

الا فى أحوال نادرة . والغالب ان يكون ذلك فى وقت الحرب ، حين تشتد الحاجة الى الرجال للانخراط فى الجيش . على أن هـذه الاحوال كانت خارجة على القـاعدة المألوفة ؛ ذلك ان المواطنيـة كانت مسـألة مولد . فانت اثينى لان اباك وجدك كانا اثينيين من قبـلك ، ولكن مهما بلغت مزاياك ـ تاجرا كنت او جنديا ـ فانك تظل اجنبيا الى آخر الدهر مادمت قد ولدت من ابوين غير اثينيين .

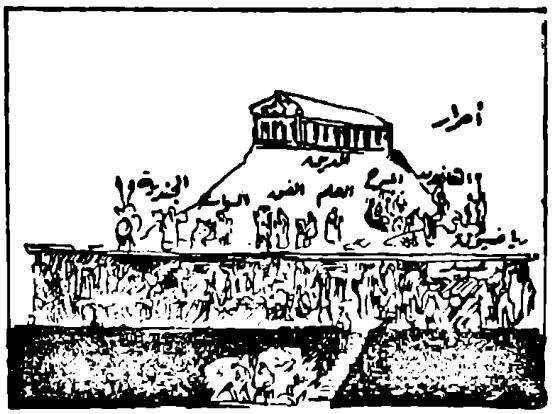

المجتمع الاغريقى

ومن ثم فان المدينة الاغريقية اذا لم يحكمها ملك او طاغية فقد كان يحكمها الاحرار لصالح الاحرار ، ولم يكن هذا ليتاتى الا اذا توافر جيش جرار من العبيد يفوق المواطنين الاحرار عددا بنسبة سـتة او خمسـة الى واحد . ويقوم هؤلاء العبيد بجميع تلك المهام التى نكرس لها نحن المحدثين كل وقتنا وجهدنا اذا اردنا ان نعول اسرنا وندفع ايجار مساكننا .

فقد كان العبيد هم الذين يتولون امر طهو الطعام والخبازة وصناعة الشموع اللازمة للمدينة كلها ، وهم الحائكون والنجارون وصناع الحلى والمدرسون وامناء المكتبات وحفظة المؤن والمشرفون على المصانع ـ على حين يذهب السيد الى الاجتماع العام لمناقشة مسائل السلم والحرب ، او لزيارة المسرح لمشاهدة آخر مسرحيات اسكيلوس ، او لسماع حوار عن الآراء الثورية ليوريبيدس الذى تجاسر على ابداء بعض الشك فى قدرة الاله الاعظم **زيوس** .

والحق ان اثينا القديمة كانت اشبه بالمنتدى الحديث ، يشترك فيه جميع المواطنين الاحرار بالوراثة . اما العبيد فهم جميعا خدام بالوراثة ايضا يقضون حاجات اسيادهم . وكان من احب الاشياء الى النفوس ان يكون المرء عضوا فى هذا النظام .

على اننا اذا تحدثنا عن العبيد فلا نعنى بذلك اولئك الطراز من الناس الذين قرات عنهم فى قصة **كوخ العم توم** . وليس من شك ان حالة هؤلاء العبيد الذين كانوا يحرثون الارض سيئة للغـاية ، ولكن اوساط الناس من الاحرار الذين كتب عليهم منذ ان اكتحلت عيونهم بمرأى الحياة ان يؤجروا للعمل فى المزارع ، قد كانت حياتهم شقية .. شأنهم فى ذلك شأن العبيد . زد على ذلك ان كثيرا من العبيد فى المدن كانوا أطيب عيشا من طبقة الاحرار الفقيرة ... ذلك لان الاغريق الذين احبوا الاعتدال فى كل شىء ، انفوا ان يعاملوا عبيدهم المعاملة التى اتبعت فى روما من بعدهم ، حيث لم يمنح العبد الا قليلا من الحقوق ، فكان شأنه شأن الآلة فى المصنع الحديث ، حتى لقد كان يلقى الى الوحوش الكاسرة لاتفه الاسباب .

لقد رضى ضمير الاغريق نظام الرق ، لانه تراءى لهم ضرورة لايمكن لاية مدينة ان تصبح بدونه موطن شعب متمدين حقا .

وكان العبيد يقومون ايضا بتلك المهام التى يقوم بها اليوم رجال الاعمال وارباب المهن . اما الواجبات

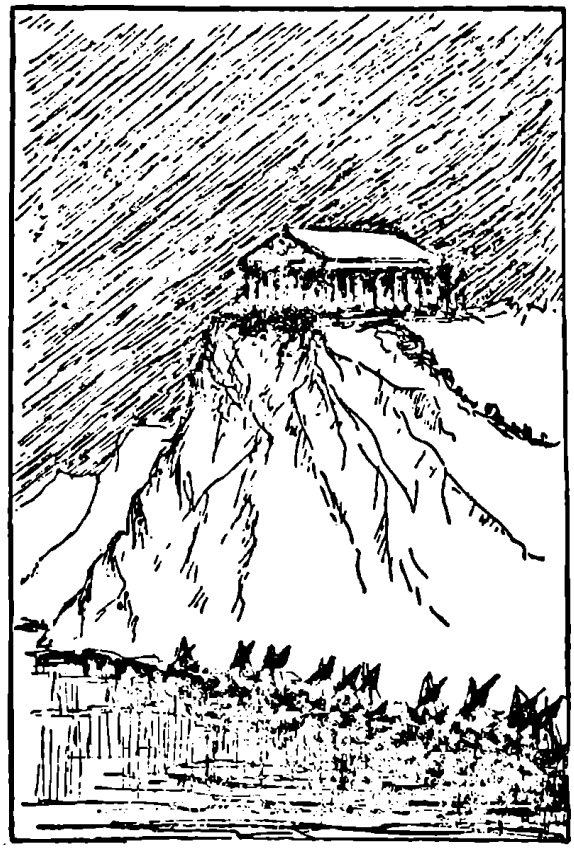

العبد الاغريقى

www.ibtesama.com/vb/

المنزلية التى تستنفد الجزء الاكبر من وقت امهاتنا ، والتى يضيق بها آباؤنا اذا عادوا من عملهم الى بيوتهم ، فقد تخفف الاغريق منها الى اقصى حد ـ بالعيش فى محيط متناه فى البساطة ـ ذلك لانهم ادركوا ما للفراغ من شأن .

ولنبدأ الان بالتحدث عن البيت الاغريقى . فقد كان ذلك المنزل غاية فى البساطة ، بل ان النبلاء الاغنياء كانوا يعيشون فى منازل اشبه شىء بمخازن المحصولات ، خالية من جميع اسباب الراحة التى يعدها العامل فى العصر الحديث من حقوقه الطبيعية . فالمنزل الاغريقى عبارة عن اربعة جدران فوقها سقف وبها باب يؤدى الى الشارع ولكنها خالية من النوافذ . اما المطبخ وغرف الجلوس والمخادع فمبنية حول فناء غير مسقوف فى وسطه نافورة صغيرة او تمثال وقليل من المزروعات لتجميله ، وتقضى الاسرة وقتها فى ذلك الفناء عند ما يكون الجو صحوا او معتدلا . وفى ركن من اركان الفناء يقوم الطاهى (وهو من العبيد) باعداد وجبات الطعام ، وفى ركن آخر يقوم المدرس (وهو من العبيد ايضا) بتعليم الاطفال حروف الهجاء وجدول الضرب . وتجلس فى ركن ثالث سيدة الدار ـ وقلما كانت تغادر منزلها لانه لم يكن من اللائق فى عرفهم ان تتردد المرأة المتزوجة على الطرقات ـ تصلح رداء زوجها ومعها الخائطات (وهن من العبيد) . اما السيد فيجلس فى المكتب الصغير بالداخل يراجع الحسابات التى يقدمها اليه ناظر زراعته (وهو من العبيد) ..

فاذا اعد الطعام اجتمع افراد الاسرة ، وكانت وجبتهم بسيطة كل البساطة لا تستغرق منهم وقتا طويلا . والظاهر أن الأغريق كانوا يرون الاكل شرا لابد منه ، لا وسيلة لازجاء الفراغ ، تقتل بها الساعات الطوال ، وتأتى آخر الامر على ذوى الشره والنهم ، وكانوا يعيشون على الخبز والنبيذ وقليل من اللحم وبعض الخضر الطازجة . وكانوا لا يشربون الماء الا اذا تعذر عليهم الحصول على مشروب آخر ، لانهم كانوا يرون ان الماء ضار بالصحة الى حد بعيد . وكانوا يحبون دعوة الغير الى موائدهم . ولكن فكرتنا عن المآدب ، حيث جرت العادة بان يتناول المرء من الطعام فوق طاقته ، كانت من الامور التى ينفرون منها ويشمئزون . فهم يجتمعون الى موائد الطعام للسمر وتناول كأس من النبيذ والماء . ولما كانوا قوما معتدلين ، فقد احتقروا من يسرف فى الشراب .

وكانت البساطة التى تسود غرفة الطعام هى ايضا رائدهم فى اختيار ملابسهم . فقد كانوا يؤثرون النظافة وحسن الهندام وقص شعورهم ولحاهم بعناية ، ولكنهم لم ينتهجوا قط نهج الاسيويين الذين كانوا يؤثرون الالوان الصارخة والازياء العجيبة . وكان الاغريق يلبسون عباءة بيضاء ضافية ، ويحرصون على أن يكون مظهرهم رشيقا رشاقة الضابط الإيطالى الحديث فى بزته الزرقاء الطويلة .

وكانوا يحبون رؤية زوجاتهم متحليات بزينتهن ، ولكنهم كانوا يرون التظاهر بثروتهم أو التفاخر بزوجاتهم أمام الناس امرا مبتذلا غاية الابتذال . وكانت نساؤهم اذا خرجن من بيوتهن يحرصن على الاحتشام بقدر ما يستطعن .

وصفوة القول أن قصة الحياة الاغريقية لا تمتاز بالاعتدال فحسب ، بل تمتاز بالبساطة ايضا . فالادوات المختلفة ـ مثل الكراسى والموائد والكتب والبيوت والعربات ـ خليقة بان تستنفد جزءا كبيرا من وقت صاحبها حتى ينتهى به الامر فى جميع الاحوال ان يصبح عبدا لها ، وينفق وقته فى العناية بها والحرص على تلميعها وتنظيفها وطلائها . وكان الاغريق قبل كل شىء ، يحبون ان يكونوا احرارا فى عقلهم وجسمهم حتى يوطدوا حريتهم . وكانوا يتخففون من واجباتهم اليومية الى اقصى حد كى تبقى نفوسهم متحررة حقا .

المسرح الإغريقى

اصول المسرح ... اول صورة من صور الترفيه الشعبى

اخذ الاغريق ـ منذ مرحلة متقدمة جدا من مراحل تاريخهم ـ فى جمع الاشعار التى نظمت تمجيدا لاسلافهم الشجعان الذين طردوا الفلاسجة من هلاس وقضوا على سلطان طرواده . وكانت هذه الاشعار تتلى فى المجامع العامة ، ويفد جميع الناس للاستماع اليها .

على ان المسرح ـ وهو صورة من صور الترويح كادت تصبح جزءا لا يتجزأ من حياتنا ـ لم ينشأ عن قصص

www.ibtesama.com/vb/

البطولة التي كانت تتلى على الناس ، بل يرجع الى اصل عجيب احدثك عنه فى فصل خاص .

لقد كان الاغريق مغرمين على الدوام بالمواكب والمحافل ؛ فكانوا يقيمون فى كل عام المواكب المهيبة تمجيدا **لديونيسوس** اله الخمر ، وكان كل فرد فى اليونان يشرب الخمر لانهم كانوا يرون ان الماء لايصلح الا للسباحة والملاحة ، ومن ثم عرف جمهورهم هذا الاله بالذات كما سيتبادر لك لاول وهلة . وكانوا يذهبون الى ان اله الخمر هذا يعيش فى الكروم وسط جمع مرح من المخلوقات العجيبة : نصفها الاعلى على شكل انسان ، ونصفها الاسفل على شكل الماعز . لذلك كانت الجموع التى تشترك فى موكب هذا الاله ترتدى جلود الماعز ويثغون ثغاءها. والكلمة اليونانية التى تفيد معنى الماعز هى «**تراجوس**» (Tragos)، كما أن الكلمة التى تفيد معنى المغنى هى « **اويدوس** » (Oidos) ومن ثم اطلق على المغنى الذى يتغنى كالماعز اسم « **تراجوس اويدوس** » (Tragos-oidos) أى المغنى المعزى . وقد تطور هذا الاسم الغريب الى الكلمة الحديثة «**تراجيديا**» (Tragedy) ومعناها فى مصطلح المسرح القطعة التى تنتهى بمأساة . كما أن الكوميديا هو الاسم الذى يطلق على المسرحية التى تنتهى نهاية سعيدة . ومعنى الكوميديا فى الواقع الانشاد أو التغنى بشيء مرح « **كوموس** » (Comos) . ولكنك تتساءل كيف أن جماعة المنشدين الصاخبين المتمسخرين ارتقوا الى تلكم المآسى الرفيعة التى ملأت مسارح العالم قرابة الفين من السنين ؟

والحق ان الرابطة بين المغنى المعزى وبين هاملت بسيطة كل البساطة كما سأبين لك للتو واللحظة :

كانت جماعة المغنين مسلية الى حد بعيد فى اول الامر ، وقد اجتذبت جموعا غفيرة من النظارة كانوا يقفون على جانبى الطريق ويضحكون . ولكن سرعان ما مل الاغريق هذا الثغاء ، ورأوا ان الجمود شر لايقاس به الا القبح والمرض ، فالتمسوا شيئا آخر اكثر ترويحا للنفس . وعندئذ طرأ على خاطر شاعر شاب مبدع من قرية **اكاريا** من اعمال **اتيكا** فكرة جديدة اصابت نجاحا هائلا . فقد جعل احد جماعة المنشدين المعزيين يتقدم الى الامام ويدخل فى محادثة مع رئيس الموسيقيين الذين يسيرون فى طليعة الاستعراض ينفخون فى مزاميرهم المصنوعة من الغاب . وكان يسمح لهذا الرجل بالخروج من الصف ويلوح بذراعيه ويومىء بالاشارات وهو يتحدث (أى أنه كان يمثل فى حين اكتفى الآخرون بالوقوف الى جانبه منشدين)، ويلقى طائفة من الاسئلة يجيب عليها رئيس الموسيقيين بالاجابة التى دونها الشاعر قبل بدء الموكب فى لفائف من البردى .

وقد اقبل الجمهور من فوره على هذه المحاورة الساذجة المعدة من قبل ، التى كانت تروى قصة ديونيسوس أو اى اله غيره من آلهة الاغريق . ومن ثم اصبح لكل موكب من مواكب الاله ديونيسوس مشهد تمثيلى . وسرعان ماغدا هذا المنظر التمثيلى أهم من الموكب وأهم من الثغاء .

وقد خطا **اسكيلوس** ـ أشهر كتاب المآسى ، الذى كتب مالايقل عن ثمانين مسرحية خلال حياته الطويلة (من ٥٢٦ الى ٤٥٥ قبل الميلاد) ـ خطوة اخرى جريئة الى الامام عند ما جعل المنظر يتالف من اثنين من الممثلين بدلا من واحد . وبعد ذلك بجيل من الزمان زاد **سوفوكل** عدد الممثلين الى ثلاثة . ولما بدا **يوروبيدس** يكتب مآسيه المفجعة فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كان فى ميسوره ان يزيد عدد الممثلين كما يشاء . وعند ما اخذ **اريستوفان** يكتب ملاهيه الشهيرة التى سخر فيها من كل شخص ومن كل شيء ـ بما فى ذلك آلهة جبل اوليمب ـ كانت فرقة المغنين قد قل شأنها الى درجة انها كانت تقف خلف الممثلين الاساسيين تغنى انشودة « انها دنيا مفزعة » ، فى حين يكون البطل عند مقدمة المسرح يقترف الجريمة عاصيا مشيئة الآلهة .

وكان هذا النوع الجديد من التسلية المسرحية يتطلب مكانا مناسبا . لذلك سرعان ما أصبح لكل مدينة اغريقية مسرحها الخاص ينحت فى صميم الصخور من تل مجاور . وكان النظارة يجلسون على مقاعد خشبية يواجهون دائرة متسعة (وهى قاعة المسرح الحديث التى يجلس فيها النظارة لمشاهدة المسرحية أو الأوبرا) . أما المسرح فكان نصف دائرة يقف عليها الممثلون وفرقة المغنين ، وتقام خلفهم خيمة يهيئون فيها اقنعتهم الصلصالية الكبيرة التى تخفى وجوههم لكى يظهروا بها أمام النظارة : اما ضاحكين فرحين ، واما مكتئبين باكين . والكلمة اليونانية التى تطلق على الخيمة هى « **سكين** » (Skene) ومن ثم يطلق اليوم على مناظر المسرح اسم (Scenery)

ولما أصبحت المأساة جزءا من الحياة الاغريقية ، اخذ الشعب ينظر اليها نظرة جادة غاية الجد ، فلم

www.ibtesama.com/vb/

يكونوا يذهبون الى المسرح قط للترويح عن نفوسهم ، بل اصبح للمسرحية الجديدة من الشأن ما للانتخابات مثلا . وكان الشعب يستقبل كاتب المسرحيات الناجح بآيات من التمجيد والتعظيم تفوق استقباله للقواد الذين يعودون لتوهم من ساحات الوغى مكللين باكاليل النصر والظفر .

الحروب الفارسيّة

كيف حمى الاغريق اوربا من الغزو الآسيوى وردوا الفرس على اعقابهم عبر بحر ايجه ؟

لقد تعلم الاغريق فن التجارة من الايجيين الذين كانوا تلامذة الفينيقيين، وانشأوا لهم مستعمرات على نسق المستعمرات الفينيقية ، بل انهم فاقوا الفينيقيين فى اساليبهم لكثرة استعمالهم للنقود فى معاملتهم مع الاجانب . وقد وطد الاغريق اقدامهم على طول شاطىء آسيا الصغرى منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وسرعان ما حلوا محل الفينيقيين فى عالم التجارة ، الامر الذى اغضب الفينيقيين بطبيعة الحال . ولكنهم لم يكونوا من القوة بحيث يشنون الحرب على منافسيهم الاغريق ، فظلوا يترقبون

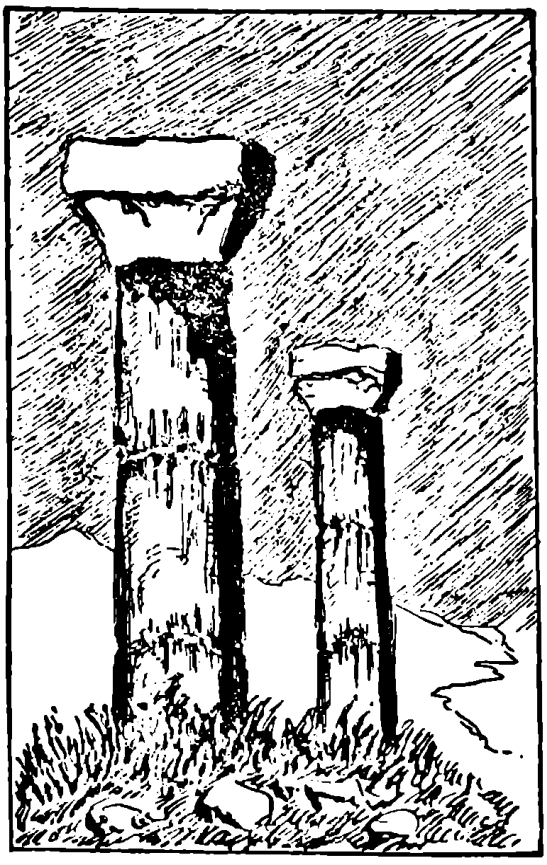

بلاد الاغريق

الفرصة المناسبة .. ولم يكن انتظارهم بلا ثمرة .

ذكرت فى فصل سابق كيف ان قبيلة ضئيلة الشأن من رعاة الفرس قد خرجت فجأة الى ساحة الوغى ، وغزت الجزء الاكبر من آسيا الغربية . وكان الفرس اكثر مدنية من ان يعملوا على سلب رعاياهم الجدد ، ولكنهم اكتفوا بأخذ الجزية منهم سنويا . ولما وصل الفرس الى سواحل آسيا الصغرى أصروا على أن تعترف المستعمرات الاغريقية فى ليديا بسلطان ملوك فارس ، وان تؤدى لهم جزية معلومة . وقد عارضت هذه المستعمرات فى ذلك ، ولكن الفرس أصروا على طلبهم . عند ذلك طلبت هذه المستعمرات النجدة من البلاد الاغريقية الأصلية ، وبذلك فتح باب القتال على مصراعيه .

والحق أن الفرس كانوا يرون الخطر كل الخطر فى النظام السياسى لحكومات المدن الاغريقية ، وان هذا النظام قدوة سيئة لسائر الشعوب الاخرى الذين كانوا فى نظر الفرس عبيد الملوكهم الأعظمين ، حقت عليهم الطاعة والولاء .

وليس من شك ان الاغريق كانوا ينعمون بقسط من الطمانينة والسلام ، لان بلادهم كانت محجوبة وراء مياه بحر ايجه العميقة . على ان الفينيقيين اعداء الاغريق الاقدمين برزوا فى ذلك الحين ، وعرضوا معونتهم ومشورتهم على الفرس . واتفق الطرفان على ان تجهز فارس الجيوش ، ويتعهد الفينيقيون بتجهيز السفن اللازمة لنقل هذه الجيوش الى أوربا . وكان ذلك قبل عام ٤٩٢ قبل الميلاد عندما تجهزت آسيا للقضاء على سلطان اوربا الآخذ فى الصعود .

واراد ملك فارس أن ينذر الاغريق انذاره الاخير ، فبعث رسله الى الاغريق يسألونهم « الأرض والماء » آية على خضوعهم لملك فارس ، فبادر الاغريق بالقاء الرسل فى اقرب بئر حيث يتوافر لهم الارض والماء ، ومن ثم استحال السلام .

www.ibtesama.com/vb/

اوليمب ... موطن آلهة الاغريق

على ان آلهة جبل اوليمب السامق كانت ساهرة على ابنائهاالاغريق ، فما ان اقترباسطول الفينيقيين من جبل اتوس حاملا جيوش فارس ، حتى نفخ اله العاصفة اوداجه حتى اوشكت أن تنفجر ، فهب اعصار مروع حطم الاسطول واغرق الفرس عن آخرهم . وعاد الفرس بعد ذلك بعامين بجيوش اكثر عددا . وفى هذه المرة افلحوا فى عبور بحر ايجه ، والقت سفنهم مراسيها بالقرب من قرية ماراثون .

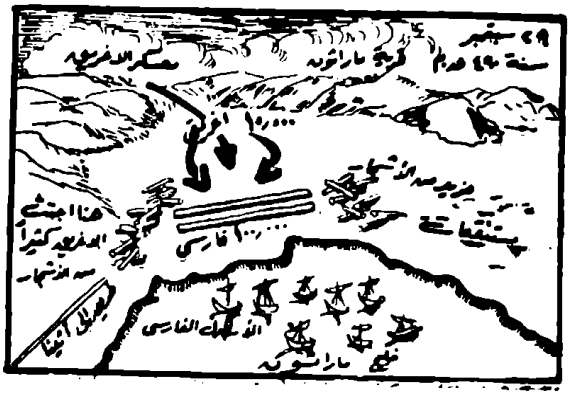

موقعة ماراثون

وما ان سمع الاغريق بذلك حتى انفذوا جيشا من بينهم عدته عشرة آلاف مقاتل لحراسة التلال المحيطة بسهل ماراثون . وفى الوقت ذاته ارسلوا عداء سريعا الى اسبرطه يطلب عونها ، ولكن اسبرطه كانت تحسد اثينا على شهرتها ، فابت أن تنجدها . وحدا حذوها سائر المدن الاغريقية عدا مدينة بلاتيا الصغيرة ، اذ ارسلت الف مقاتل لنصرة اثينا . وفى الثانى عشر من شهر سبتمبر عام ٤٩٠ القى ملتيادس القائد الاثينى بهذا الجيش القليل العدد فى حومة الوغى لملاقاة حشود الفرس ، فشق الاغريق طريقهم خلال حاجز من السهام ، ولكن رماحهم مزقت صفوف الجند الاسيويين غير المنظمين شر ممزق ، ولم يكن لهؤلاء عهد قط بملاقاة مثل هذا العدو .

وفى تلك الليلة كان اهل اثينا يرقبون السماء وقد اصطبغت بلون ارجوانى نتيجة للهب المتصاعد من سفن الاسيويين المشتعلة ، وظلوا يترقبون الاخبار على احر من الجمر . وبدت آخر الامر زوبعة صغيرة من الغبار على الطريق الموصل الى الشمال ، كان ذلك هو فيديبيدس العداء الذى ما كاد يبلغ اثينا حتى خر على الارض مبهور الانفاس مشرفا على الموت ، ذلك انه قبل عودته من وفادته الى اهل اسبرطة بايام قلائل اسرع باللحاق بملتيادس ، واشترك فى ذلك الصباح في الهجوم على الفرس ، ثم تطوع ان يحمل اخبار ذلك النصر الى مدينته المحبوبة . لقد شاهده الناس وهو يخر على الارض فهرعوا لنجدته ، فهمس « لقد انتصرنا » .. ثم اسلم الروح ومات ميتة مجيدة حسده عليها جميع الرجال .

اما الفرس فقد حاولوا ـ بعد هذه الهزيمة التى منوا بها ـ النزول بالقرب من اثينا ، ولكنهم وجدوا الشاطىء محروسا بالجند فعادوا ادراجهم الى آسيا ، وبذلك عاد السلام مرة ثانية الى ربوع هلاس .

انتظر الفرس ثمانية اعوام لم يقضها الاغريق غافلين ، فقد كانوا يعلمون ان ثمة غزوه اخيرة مقبلة عليهم ، ولكنهم لم يتفقوا على خير الطرق لدفع هذا الخطير ، اراد بعضهم زيادة عدد رجال الجيش ، وذهب آخرون الى ان الاسطول القوي امر لا مناص منه لبلوغ النصر . وتناضل الحزبان نضالا مريرا . وكان يتزعم المناصرين لتقوية الجيش اريستيدس ، كما تزعم تمستوكل المناصرين لتقوية الاسطول . ولم يفصل الفريقان شيئا الى ان نفى اريستيدس ، وعند ذلك خلا الجو لتمستوكل ، فبنى كل ما استطاع بناءه من السفن ، واحال مدينة بيرايوس الى قاعدة بحرية منيعة .

وفى عام ٤٨١ قبل الميلاد ظهر فى تساليا ـ وهى اقليم فى شمالى اليونان ـ جيش فارسى جرار . وتطلع الجميع الى اسبرطة لتتولى القيادة فى هذه الساعة الحرجة ، وكانت اسبرطة اقوى دولة حربية فى بلاد الاغريق . وتقاعست بعض الدويلات عن تقديم معونتها لدرء هذا الخطر الذي كان يتهدد بلاد الاغريق جميعا بدافع من الحسد والغيرة . على ان الدويلات التى اتفقت على الصمود قد تداولت فيما بينها مداولات خطيرة فى اختيار انسب الساحات للقتال ،

www.ibtesama.com/vb/

موقعة ترموبيل

واستقر رايهـا على حماية **ترموبيل** ، وهى ناحيـة جبلية تربط تساليا بالاقاليم الجنوبية .

الممر

وتولى القيـادة **ليونيداس** ملك اسبرطة ، وكان تحت امرته نحو سـتة آلاف مقاتل . وكان هـذا الجيش قليل العدد الى حد مزعج ، ولـكن الاغريق عقدوا العزم على ايفاد الامداد قبل وصول **اكزرسيس** ملك الفرس ، ولكن الفرس وصلوا قبـل الاوان ، فاصبح جيش الاغريق الصغير معرضا للابادة . واراد بعض الاغريق التقهقر ، ولكن ليونيداس صاح فيهم : « تقهقروا ان شئتم . اما انا وبنو قومى الاسبرطيون ، فقد جئنا لندافع عن هذا الممر ولن نتحول عنه » .

واعقب ذلك قتال سـوف يبقى خالدا مابقى الزمان . ذلك ان القتال احتـدم يومين الى ان كان مساء اليوم الثـانى ، وفيه قاد خائن اغريقى يدعى **افيالتس** ـ وكان خبيرا بالشعاب الصغيرة فى **مالس** ـ قوة من رجال الفرس خلال التلال ومكنها من ان تداهم ليونيداس من الخلف .

وتحرج موقف الاغريق فسرح ليونيداس جميع فرقه ، وابقى على اربعمائة من اهل طيبة وسبعمائة من اهل تسبيا . وعقد العزم ـ هو وثلاثمـائة من الاسبرطيين ـ على لقاء الموت . وكان ليونيـداس يعلم ان قوته الصغيرة مقضى عليها بالفناء آخر الامر ، ومن ثم نبذ كل دواعى الحيطة ، وانسل من اضيق اجزاء الممر ، وانقض على العدو الزاحف . ولما أرخى الليل سدوله كان ليونيداس وجنوده الاوفياء راقدين رقدتهم الاخيرة تحت جثث اعدائهم .

www.ibtesama.com/vb/

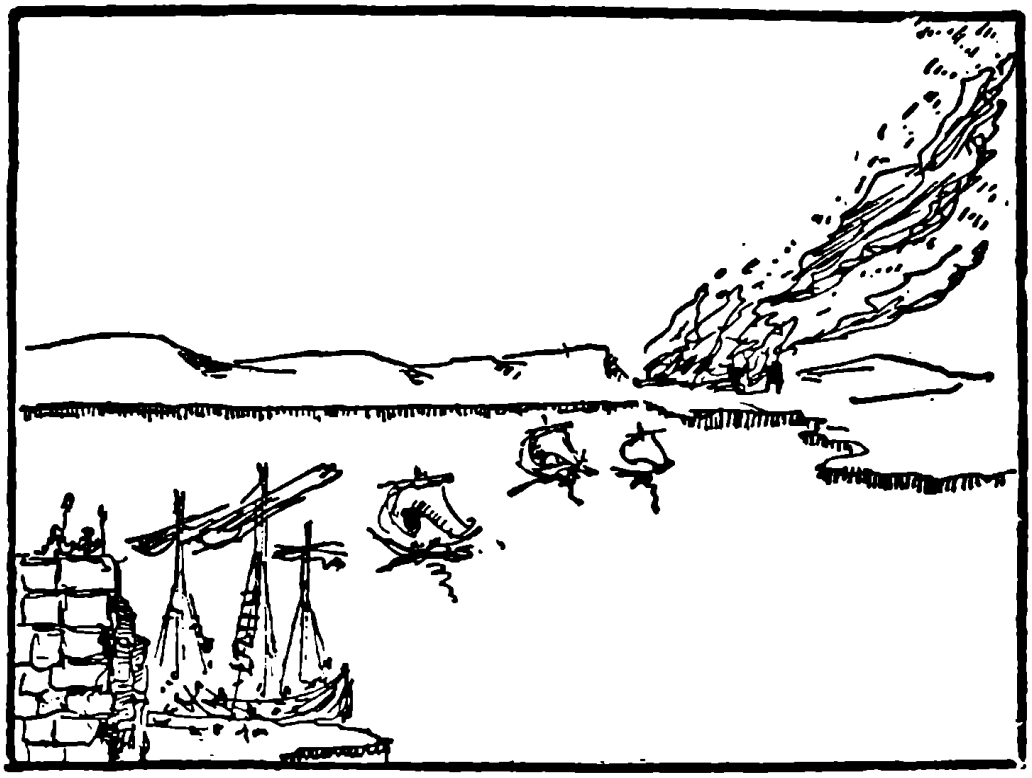

الفرس يحرقون اثينا

لقد خسر الاغريق المر ، وسقط من بعده الجزء الاكبر من بلاد اليونان فى ايدى الفرس . ثم سار الفرس نحو اثينا ، والقوا بالحامية من فوق صخور الاكروبول ، واحرقوا المدينة ، وفرالناس الى جزيرة سلاميس . وبدا ان الاغريق قد فقدوا كل شىء ، ولكن حدث فى العشرين من شهر سبتمبر عام ٤٨٠ (ق.م) ان اجبر تمستوكليس الاسطول الفارسى على خوض غمار معركة حربية فى المضايق الصغيرة التى تفصل جزيرة سلاميس عن بلاد اليونان نفسها ، وتمكن فى ساعات قليلة من القضاء على ثلاثة ارباع السفن الفارسية .

وهكذا تبدد كل اثر لانتصار ترموبيل ، واضطر اكزرسيس على الانسحاب ، ولكنه قرر ان يرجىء ميعاد الموقعة الفاصلة الى العام التالى ، ثم سار بجيوشه الى تساليا ، وهناك انتظر قدوم الربيع .

على ان الاسبرطيين ادركوا ما يكتنف موقفهم من حرج ، فتركوا ملجاهم الامين ـ وهو السور الذى ابتنسوه على برزخ كورنثه ـ وخرجوا بقيادة بوزانياس لملاقاة ماردنيوس القائد الفارسى . وانقض الاغريق المتحدون ـ وكانت عدتهم نحو مائة الف مقاتل من الفتى عشرة مدينة مختلفة ـ على الجيش الفارسى ـ وكانت عدته ثلثمائة الف مقاتل ـ بالقرب من بلاتيا . واخترق الرجالة الاغريق مرة اخرى حاجزا من السهام الفارسية ، ودارت الدائرة على الفرس ، كما حدث فى ماراتون ، فارتدوا على اعقابهم الى غير رجعة .

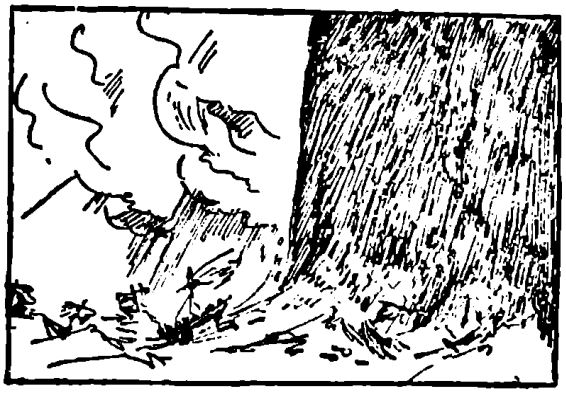

حل الدمار بالاسطول الفارسى

ومن عجيب الاتفاق ان السفن الاغريقية قضت على اسطول العدو بالقرب من راس ميكاله بآسيا الصغرى فى اليوم نفسه الذى احرزت فيه الجيوش الاغريقية انتصارها على جيوش الفرس بالقرب من بلاتيا .

www.ibtesama.com/vb/

وبذلك أسدل الستار على أول صدام بين آسيا واوربا ، وهو الذى أسبغ على أثينا اكاليل المجد ـ كما أن اسبرطة قاتلت فيه قتال الشجعان ، وابلت بلاء حسنا .

ولو أن هاتين المدينتين قد استطاعتا أن تصلا فيما بينهما الى اتفاق ، وصحت عزيمتهما على نسيان ما كان بينهما من منافسات صغيرة الشأن ، لأتيح لهما أن تصبحا زعيمتى دولة اغريقية موحدة الكلمة ، قوية الباس .

ولكنهما ـ وا أسفاه ! ـ قد تركتا ساعة الظفر ونشوة النفوس بلذة الانتصار تفلت من ايديهما ، وكانت هذه الفرصة لا تعوض .

أثينا تناهض اسبرطه

كيف تقاتلت اثينا واسبرطة قتالا طويلا خطيرا فى سبيل زعامة اليونان ؟

كانت اثينا واسبرطة مدينتين اغريقيتين يتحدث سكانهما لغة واحدة ، ولكنهما كانتا تختلفان فيما عدا ذلك من الامور . كانت مدينة اثينا تنهض من السهل عالية الذرى ، توافيها نسائم البحر خالصة نقية ، وتنظر الى العالم نظرة الطفل السعيد بالحياة . اما اسبرطة فقد اقيمت فى مهد واد عميق ، واتخذت من الجبال التى تكتنفها حاجزا يرد عنها الافكار الوافدة . وكانت اثينا مدينة نافقة التجارة ، فى حين كانت اسبرطة معسكرا مسلحا يعشق اهله الجندية لذاتها . وكان اهل اثينا يؤثرون الجلوس تحت اشعة الشمس ومساجلة الاشعار أو الاستماع الى اقوال الحكماء . اما الاسبرطيون فلم يكن لهم أى اثر ادبى ، ولكنهم كانوا على دراية بفن القتال ، وقد ضحوا بجميع النزعات الانسانية فى سبيل مثلهم الاعلى ، وهو التاهب للقتال .

ومن ثم فليس بعجيب ان ينظر الاسبرطيون ـ أهل الصرامة والجد ـ الى انتصار اثينا نظرة الحسد الخبيث . ثم ان الجهود التى ذكاها فى اثينا الدفاع عن الوطن المشترك اخذت تنصرف آنئذ الى خدمة اغراض ادنى الى السلام : فقد اعيد بناء الاكروبول ، وجعل فيه هيكل قد من المرمر للآلهة اثينا . وجد بركليس زعيم الديمقراطية الاثينية فى طلب المثالين المشهورين والرسامين والعلماء من قاصى البلاد ودانيها لتجميل مدينة اثينا والرقى بشبابها بحيث يكونون جديرين بمدينتهم . وكان فى الوقت نفسه يرقب اسبرطة بعين الحذر ، فابتنى اسوارا عالية تربط اثينا بالبحر وتجعلها امنع معقل فى ذلك الوقت .

وقد ادت مناوشة بين مدينتين اغريقيتين صغيرتين الى المعركة الحاسمة ، فاستعر بين اثينا واسبرطة أوار حرب ظلت ثلاثين عاما ، وانتهت بنكبة مروعة حلت باثينا .

ففى العام الثالث من هذه الحرب دخل الطاعون هذه المدينة واهلك اكثر من نصف اهلها ، ومن بينهم بركليس الزعيم العظيم . واعقب الطاعون عهد قبحت فيه الزعامة وتزعزعت ثقة الناس فيها ، ثم نال شاب موهوب يدعى **السبيادس** ثقة الجمعية العمومية فاقترح شن الغارة على مستعمرة سراقوسة الاسبرطية فى صقلية . وقد جهزت حملة لهذا الغرض ، وتاهب الاثينيون كل التاهب للقتال . غير ان السبيادس اشتبك فى شجار وقع فى طريق من الطرق ، فاضطر الى الفرار وخلفه على القيادة قائد آخر قعيد فاتر الهمة ، ففقد فى بادىء الأمر اسطوله ثم فقد جيشه . اما من بقى من الاثينيين فقد القى بهم فى محاجر سراقوسة فماتوا جوعا وعطشا .

واتت هذه الحملة على الشباب من اهل اثينا ، وواجهت المدينة مصيرها ، واستسلمت عام ٤٠٤ قبل الميلاد بعد حصار طويل هدمت فيه اسوارها العالية ، واستولى الاسبرطيون على اسطولها ، ولم تعد اثينا قصبة امبراطورية عظيمة اقامتها بحد السيف فى ايام مجدها . بيد ان الرغبة العجيبة فى المعرفة واستقصاء الامور التى امتاز بها مواطنوها الاحرار ايام عظمتها ومجدها ـ لم تخب بزوال اسوارها والاستيلاء على سفنها ، بل ظلت هذه الرغبة حية وزادت ازدهارا ، كذلك لم تعد اثينا تتحكم فى مصائر بلاد الاغريق ، ولكنها اصبحت ـ بفضل كونها مقر اول جامعة عظيمة ـ تؤثر فى عقول المثقفين فيما وراء حدود هلاس الضيقة .

www.ibtesama.com/vb/

الاسكندر الأكبر

يقيم امبراطورية عالمية ، والمصير الذى انتهى اليه هذا الطموح العظيم

كان الآخيون ـ عندما غادروا مواطنهم على ضفاف الدانوب طلبا لمراع جديدة ـ قد مكثوا مدة من الزمن بين جبال مقدونيا . وكان الاغريق ـ منذ ذلك الحين ـ قد ارتبطوا مع اهل هذه البلاد الشمالية بصلات تتفاوت فى انتظامها ومظهرها . اما اهل مقدونيا فقد حرصوا من ناحيتهم على متابعة مجرى الاحوال فى اليونان .

واتفق ان كان على عرش مقدونيا ـ فى الوقت الذى انتهت فيه الحروب المشئومة بين اثينا واسبرطة ـ ملك اريب ، يدعى فيليب ، اوتى من الفطنة مالم يؤته غيره .

وقد اعجب هذا الملك بالحيوية الاغريقية البادية فى آدابهم وفنهم ، ولكنه كره ما اظهره الاغريقيون من الافتقار الى ضبط النفس فى الشئون السياسية . فقد احنقه ان يرى قوما اكتملت صفاتهم ، يبددون رجالهم واموالهم فى قتال لاطائل تحته ، ومن ثم وضع حدا لهذه المشكلة باقامة نفسه سيدا على بلاد اليونان باسرها ، ثم طلب من رعاياه الجدد ان يشتركوا معه فى حملة على الفرس يرد بها على الحملة التى شنها **اكزرسيس** على اليونان قبل ذلك بمائة وخمسين عاما .

ومما يؤسف له ان فيليب قتل قبل ان يبدأ هذه الحملة التى اعدها اعدادا حسنا ، فالقى عبء الاخذ بثار اثينا على عاتق ولده **الاسكندر** ، وكان تلميذا محببا **لأرسطو** احكم معلمى الاغريق فاطبة .

غادر الاسكندر اوربا فى ربيع ٣٣٤ قبل الميلاد ، فبلغ الهند بعد سبعة اعوام قضى خلالها على فينيقية المنافسة القديمة للتجار الاغريق . وغزا مصر ، وعبده شعب وادى النيل وعدوه من نسل الفراعنة ، ووريث ملكهم . وهزم آخر ملوك الفرس ، وقضى على الامبراطورية الفارسية ، وأمر باعادة بناء بابل ، وقاد جيوشه الى قلب جبال الهملايا ، وجعل العالم كله وقتذاك اقليما مقدونيا يدين له بالولاء . ثم توقف عن الزحف وجهز بما كان يجيش فى نفسه من اطماح تفوق ماكان قد حققه بعد .

فقد راى الاسكندر ان يخضع تلك الامبراطورية التى اقامها وشيكا للثقافة الاغريقية ، ومن ثم قضى بأن يتعلم شعوبها اللغة الاغريقية ، وان يعيشوا فى مدن على مثال المدن الاغريقية . واصبح جنود الاسكندر معلمين وهادين ، وغدت معسكرات الجند مراكز للحضارة الاغريقية يرفرف عليها السلام . وقد اخذت شمائل الاغريق وعاداتهم تفيء على اهل هذه البلاد من بركاتها ، ثم اخذت تفيض وتفيض ، واذا بالاسكندر يقع صريع الحمى وتدركه المنية فى قصر الملك حمورابى ملك بابل عام ٣٢٣ قبل الميلاد .

ثم انحسر هذا الفيض ، ولكنه خلف وراءه آثار حضارة رفيعة .

وهكذا ادى الاسكندر خدمة جليلة الشان عظيمة الخطر على الرغم من كل ماناخذه عليه من طموح صبيانى وغرور ساذج . ولم تعش امبراطوريته طويلا بعد وفاته اذ تقاسمها عدد من قواده الطامعين ، ولكنهم ظلوا امناء على ذلك الحلم ، حلم اقامة عالم عظيم متكاتف تسوده الآراء والمعارف الاغريقية والاسيوية .

وقد احتفظ هؤلاء القواد باستقلالهم الى ان ضم الرومان القسم الغربى من آسيا ، وكذلك مصر الى املاكهم . ولقد وقع تراث الحضارة الهيلينية العجيب فى ايدى القواد الرومان (وهى خليط من الحضارات الاغريقية والفارسية والمصرية والبابلية) ، وسيطرت هذه الحضارة خلال القرون التالية على العالم الرومانى سيطرة نشعر بآثارها فى حياتنا حتى اليوم .

www.ibtesama.com/vb/

خلاصة

عرض موجز للفصول العشرين الأولى

لقد كنا ننظر حتى الآن ناحية الشرق من قمة برجنا العاجي . ولكن تاريخ مصر وما بين النهرين تأخذ اهميته منذ ذلك الحين فى النقصان شيئا فشيئا ، ومن ثم لا مناص من أن انتقل بك الى دراسة البلاد الغربية .

وقبل أن نأخذ فى سبيل ذلك دعنا نقف برهة من الزمن لنوضح ما رأيناه ...

● لقد كشفت لك بادىء الأمر على انسان ما قبل التاريخ ، فتبدى لك مخلوقا بسيطا جدا فى عاداته ، غليظا كل الغلظة فى سجاياه وشمائله . وذكرت لك أن ذلك المخلوق كان أقل الحيوانات الكثيرة حظا من الدفاع عن نفسه ، تلك الحيوانات التى كانت تجوب المجاهل الأولى لقارات العالم الخمس ، ولكنه سعى الى تدبير معاشه بفضل ما أوتيه من عقل اكبر واسمى من عقول هذه الحيوانات .

● ثم اقبلت الثلاجات ، وحلت قرون عدة سادها البرد ، وأصبحت الحياة على وجه الأرض من العسر بحيث لم يجد الانسان مناصا من أن يجهد فكره اضعافا مضاعفة اذا أراد الحياة . على أن ارادة الحياة كانت ــ وما زالت ــ هى الدافع الاول الذى يدفع كل كائن حى الى استفراغ جهده كله حتى النزع الاخير . ومن ثم انطلق العقل الانسانى فى العصر الجليدى الى العمل بكل طاقته . ولم يكتف هؤلاء القوم الشديدو المراس بالمكافحة فى سبيل البقاء خلال موجات البرد الطويلة التى قضت على كثير من الحيوانات المفترسة ، بل انه ما ان عاد الجو الدفىء المعتدل، حتى كان انسان ماقبل التاريخ قد تعلم امورا كثيرة ، وبلغ من شان هذه الميزات انها جعلت خطر الفناء الذى كان يهدده اثرا من آثار الماضى البعيد .. وكان هذا الخطر شديدا ملحا خلال الخمسمائة سنة الاولى من وجود الانسان على هذا الكوكب .

● ولقد قصصت عليك كيف ان اسلافنا الأولين كانوا يسيرون سيرا وئيدا فى سبيل التقدم ، واذا بشعب وادى النيل يبرز فجاة من دياجير الظلام لأسباب لانعرفها ، وينشىء أول مركز من مراكز الحضارة .

● ثم بينت لك حال بلاد مابين النهرين التى كانت المدرسة العظيمة الثانية التى تعلم فيها الجنس البشرى . ثم صنعت لك خريطة لجزائر بحر ايجه ، وهى تلك المعابر التى حملت معارف الشرق القديم وعلومه الى الغرب الفتى حيث كان يعيش الاغريق .

● ثم حدثتك عن القبيلة الهندية الأوربية « الهيلينيين » التى نزحت من قلب آسيا قبل ذلك بآلاف من السنين ، ثم اندفعت فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد الى شبه جزيرة اليونان الصخرية ، واصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم الاغريق .

● ثم قصصت عليك قصة المدن الاغريقية الصغيرة التى كانت دولا بمعنى الكلمة ، حيث تجلت (وكلمة تجلت هنا لها مدلول حافل بالمعانى) فى ثوب جديد ، اجل واسمى من اى حضارة سبقتها .

● ولو انك نظرت الى الخريطة لتبينت ان الحضارة كانت فى ذلك الوقت ، تظهر فى نصف دائرة تبدأ من مصر ، ثم تتحرك ناحية الغرب عن طريق بلاد ما بين النهرين وجزائر بحر ايجة الى ان تبلغ القارة الاوربية . وقد حمل المصريون والبابليون والفينيقيون وكثير من القبائل السامية (ولا يغيب عن بالنا فى هذا المقام ان اليهود انما كانوا شعبا من الشعوب السامية المتعددة) فى الاربعة آلاف سنة الاولى ، المشعل الذى كان ينير العالم ، ثم اسلموه بعد ذلك الى الاغريق الهندو اوربيين الذين اصبحوا اساتذة قبيلة هندية اوربية اخرى تعرف بالرومان (انظر الشكل صفحة ٥٢) .

● وقد حدث فى الوقت نفسه ان اندفع الساميون ناحية الغرب على طول شواطىء افريقية الشمالية ، واقاموا انفسهم سادة على النصف الغربى للبحر المتوسط ، فى الوقت الذى كان النصف الشرقى منه فى حوزة الاغريق ، وهم من الجنس الهندى الاوربى .

● ولقد ادى ذلك ــ كما سنبين لك حالا ــ الى نضال هائل بين هذين الجنسين المتنافسين ، فافضى هذا النضال الى قيام الامبراطورية الرومانية الظافرة التى حملت ذلك المزيج من حضارة مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان الى اقصى اطراف القارة الاوربية ، حيث قامت عليها حضارة مجتمعنا الحديث .

● ● ●

واني لاعلم ان كل هذه الحوادث ستبدو لك مختلطة اشد الاختلاط . ولكنك اذا وعيت هذه الاصول التاريخية القليلة ، فان ذلك سييسر لك معرفة باقى قصة التاريخ الانسانى . وستوضح لك الخرائط ماعجزت الكلمات عن ايضاحه .

ولنرجع الآن ــ بعد هذا الفصل القصير ــ الى قصتنا فنروى لك قصة الحرب المشهورة بين روما وقرطاجنة .

www.ibtesama.com/vb/

روما وقرطاجنة

اقتتلت مستعمرة قرطاجنة السامية ـ التى كانت على الساحل الشمالى لافريقية ـ ومدينة روما الهندية الاوربية ـ التى كانت على الساحل الغربى لايطاليا ـ فى سبيل امتلاك غربى البحر المتوسط فقضى على قرطاجنة .

كانت قرية كرت هدشت ـ المحلة التجارية الفينيقية الصغيرة ـ تقوم على رابية تشرف على البحر الافريقى ، وهو منفرج من المياه اتساعه تسعون ميلا ، يفصل افريقية عن القارة الاوربية . ولقد كانت هذه البقعة اصلح ما تكون لاقامة مركز تجارى ، بل كانت موقعا فريدا فى هذا الباب .. وسرعان ما نمت هذه القرية ، واثرت ثراء واسعا . ولما خرب بختنصر ملك بابل مدينة صور فى القرن السادس قبل الميلاد ، قطعت قرطاجنة كل صلة لها بفينيقية ، واصبحت دولة مستقلة بنفسها ، او قل انها كانت اعظم مركز امامى غربى للاجناس السامية .

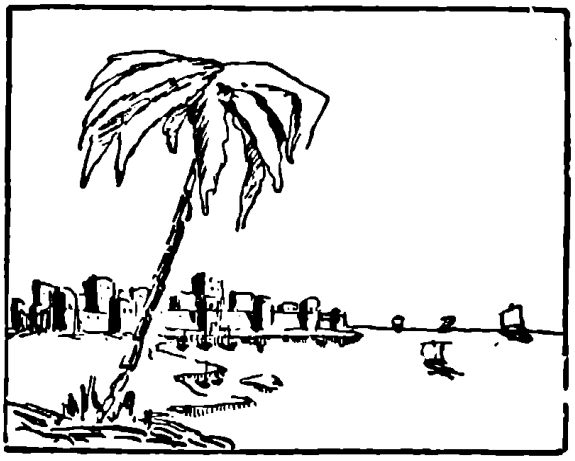

قرطاجنة

ومما يؤسف له ان هذه المدينة قد ورثت كثيرا من الحلال التى اثرت عن الفينيقيين منذ الف سنة ، اذ كانت مركزا كبيرا للتجارة والعمل تحميه بحرية قوية ، ولكنها لا تحفل بمعظم مناحى الحياة الرفيعة السامية . وكان يحكم المدينة والبلاد المجاورة لهما ومستعمراتها البعيدة فئة قليلة من الاثرياء على جانب كبير من القوة والسلطان . والكلمة اليونانية التى تدل على الثراء هى « بلوتوس » (Ploutos) لذلك نجدهم يطلقون على حكومة الاثرياء اسم « البلوتوقراطية » (Plutocracy) وكانت مقاليد الحكومة فى قرطاجنة فى ايدى الاثرياء ، وقوة الدولة الحقيقية فى ايدى نفر من اصحاب السفن الكبيرة واصحاب المناجم والتجار ، يجتمعون معا للتشاور فى امورهم فى غرفة خلفية بمكتب من المكاتب . وكانوا ينظرون الى مدينتهم نظرتهم الى مشروع تجارى ينبغى ان يدر عليهم ربحا معقولا . على انهم كانوا اناسا واسعى الفطنة ، موفورى النشاط ، دءوبين على العمل .

وامتد نفوذ قرطاجنة على جيرانها بمضى الزمن حتى دان لها الجزء الاكبر من الشاطىء الافريقى واسبانيا وبعض اقاليم فرنسا ، واخذت هذه البلاد تؤدى الجزية والمكوس والارباح لتلك المدينة العظيمة المطلة على البحر الافريقى .

على ان دولة كهذه يحكمها الاغنياء كانت بطبيعة الحال تبقى دائما تحت رحمة الجماهير ، فما دام العمل موفورا ، والاجور عالية ، رضى جمهور المواطنين وقرت عيونهم ، وسمحوا لخيارهم بأن يحكموهم ، لا يسألونهم شيئا يقلق بالهم . اما اذا توقفت السفن فى مرافئها ، ولم ترد المعادن الغفل الى افران الصهر ، وتعطل عمال الارصفة ، فعند ذلك يظهر التذمر ، ويطلب الناس عقد الجمعية العمومية ، كما كان الحال فى الايام الغابرة عند ما كانت قرطاجنة جمهورية تحكم نفسها بنفسها .

واضطرت حكومة الاغنياء ـ دفعا لهذا الامر ـ ان تحفظ للدولاب العمل فى المدينة سيره باقصى سرعته .

ولقد احرزت هذه الحكومة نجاحا عظيما فى ذلك خمسمائة عام تقريبا . ثم ترامت اليها شائعات من الشاطىء الغربى لايطاليا اقلقت بالها ، وازعجتها ازعاجا شديدا .. فقد بلغها ان قرية صغيرة على ضفاف نهر التيبر قد بلغت فجاة درجة كبيرة من الجاه والسلطان ، وانها بسبيل اقامة نفسها سيدة على جميع القبائل اللاتينية التى تسكن وسط ايطاليا . لا ينازعها فى ذلك احد . وقيل ايضا ان هذه القرية ـ التى كانت تعرف باسم **روما** ـ قد عزمت على بناء سفن للمتاجرة مع صقلية والشاطىء الجنوبى لفرنسا .

www.ibtesama.com/vb/

ولم يكن فى استطاعة قرطاجنة ان تسكت على هذه المنافسة ، فلا مناص اذن من تدمير هذا المنافس الفتى ، والا فقد حكام قرطاجنة هيبتهم بصفتهم اصحاب السلطان المطلق فى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وقد استقصيت هذه الشائعات فى حينها واليك ما تمخضت عنه من حقائق :

هذه البلاد من ناحية الشمال .. فقد حاولت بعض القبائل الهندية الاوربية فى تاريخ غير معلوم أن تلتمس طريقها عبر ممرات الالب ، ثم اندفعت نحو الجنوب الى ان ملأت كعب الحذاء الايطالى المشهور وطرفه بقراهم وقطعانهم .

ونحن لانعرف شيئا عن هؤلاء الفاتحين الاولين .

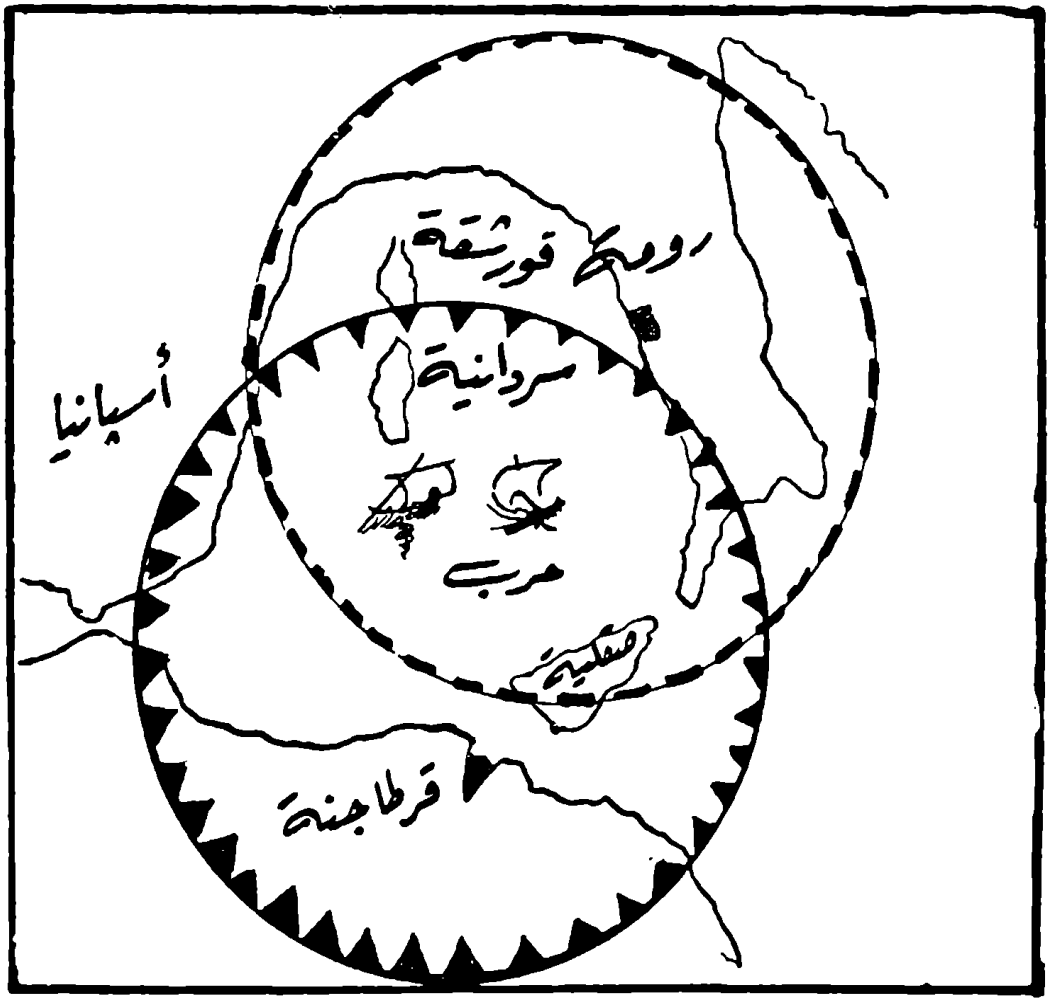

مناطق النفوذ المتنازع عليها بين روما وقرطاجنة

ظلّ الشاطىء الغربى لايطاليا مدة طويلة بعيدا عن الحضارة ، فى حين كانت جميع الثغور اليونانية الحسنة الموقع ، المواجهة للشرق ، تشرف على جزائر بحر ايجه الدائمة الحركة . اما الشاطىء الغربى لايطاليا فكان لا يمتد افقه الى ابعد من امواج البحر المتوسط الموحشة . لقد كانت هذه البلاد فقيرة ، لذلك قلما كان يزورها التجار الاجانب ، وقد قنع اهلها بالعيش آمنين بين تلالهم وسهولهم المليئة بالمستنقعات . وجاءت اول غزوة خطيره منيت بها

ولم يقم من بينهم شاعر **كهوميروس** يتغنى بأمجادهم ، وكانت اخبارهم عن تأسيس مدينة روما ـ وقد كتبت بعد ذلك بثمانمائة عام ، عندما اصبحت هذه المدينة الصغيرة امبراطورية ـ مجموعة من الأساطير ليست من التاريخ فى شىء . والحق ان اعتداء كل من **روموليوس وريموس** على املاك الآخر يدخل فى باب القراءة المسلية (وانى لانسى دائما من الذى اعتدى ، او على ارض من وقع الاعتداء) . الا ان تأسيس روما كان امرا اقرب من هذا بكثير الى الواقع المألوف .

www.ibtesama.com/vb/

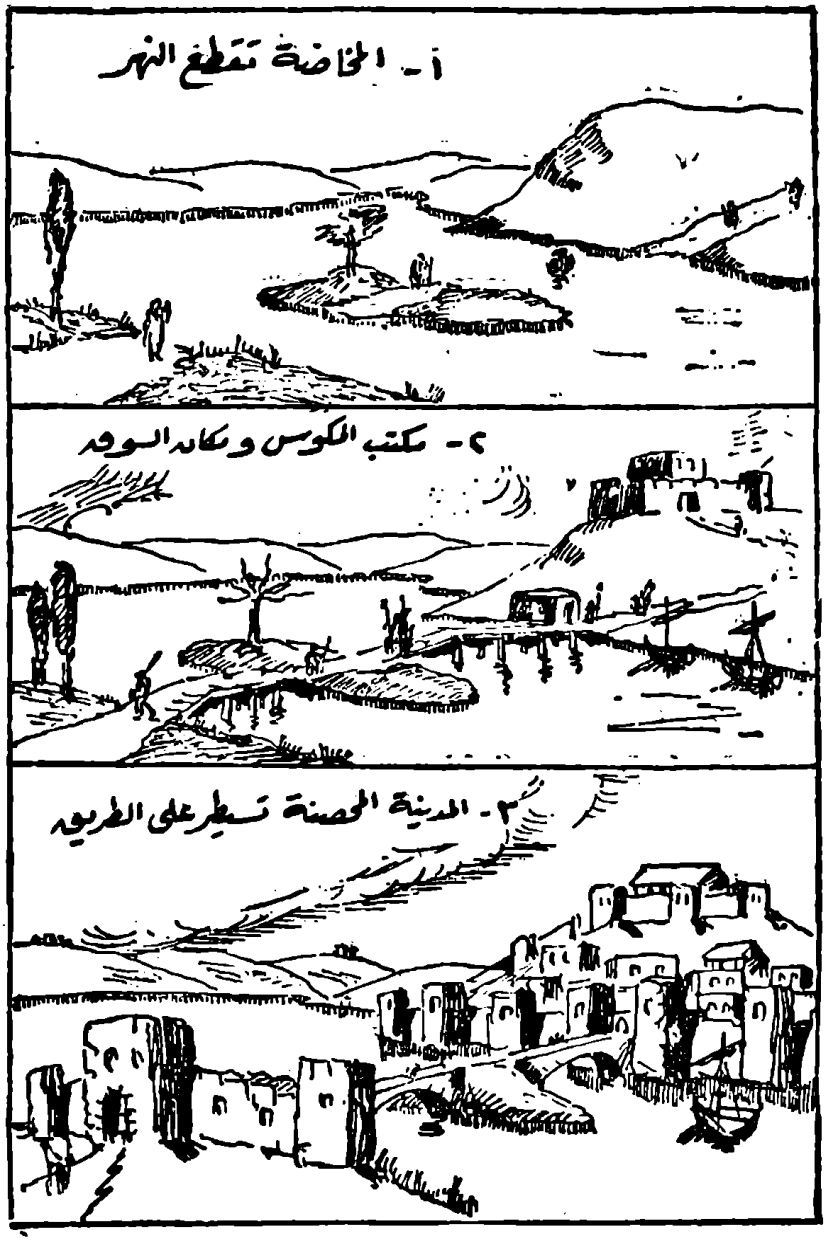

كيف قامت مدينة روما

بدأت هذه المدينة كغيرها من آلاف المدن فى غير ذلك من الأضقاع .. فقد كانت مكانا مناسبا للمقايضة ولتجارة الخيول لوقوعها فى قلب سهول أواسط ايطاليا كما كان نهر التيبر يصلها بالبحر مباشرة . وكان الطريق البرى من الشمال الى الجنوب يصادف عند روما مخاضة ملائمة يمكن استخدامها على طول أيام السنة . وكانت التلال المنيعة التى تنهض على ضفاف النهر ملجأ أمينا يحتمى به الاهالى من غائلة أعدائهم الذين كانوا يقطنون الجبال ، أو الذين كانوا يعيشون فيما وراء أفق البحر المجاور .

وكان أهل الجبال ـ ويعرفون باسم **السابيين** ـ قوما غلاظا تحدوهم رغبة خبيثة فى السلب السهل اليسير ، فضلا عن أنهم كانوا على حظ ضئيل من الحضارة ، يستعملون فؤوسا حجرية ودروعا من الخشب ، ولا قبل لهم بالرومان المزودين بالسيوف المصنوعة من الصلب . أما سكان البحر فكانوا أعداء ذوى خطر ، وهم الذين عرفوا **بالأتروريين** . وكانوا ـ ولا يزالون ـ من أسرار التاريخ الكبرى ، اذ لا يعرف أحد من أين أتوا ، وما أصلهم ، وما الذى دفعهم الى الهجرة من مواطنهم الأصلية ؟ وقد عثرنا على أطلال

www.ibtesama.com/vb/

مدنهم ومقابرهم ومنشآتهم المائية على طول الشاطىء الايطالى . وكتابات هؤلاء القوم مألوفة لدينا ، ولكن لم يستطع أحد بعد فك رموز الأبجدية الأتورورية . ومن ثم لم نفد شيئا بعد من هذه الكتابات ، بل بقيت عقبة فى طريقنا . ولعل أصح الفروض التى قيلت فى نشأتهم هى ان الأتروريين وفدوا فى الأصل من آسيا الصغرى ، وان حربا طاحنة او وباء من الأوبئة التى تفشت فى تلك البلاد ، قد دفعهم الى مغادرتها والتماس موطن آخر فى جهة من الجهات . ومهما يكن السبب فى نزوحهم عن موطنهم فقد كان للأتروريين شأن عظيم فى التاريخ ، ذلك انهم حملوا معهم بذور الحضارة القديمة من الشرق الى الغرب ، فعلموا الرومان الذين أتوا من الشمال ـ كما نعلم ـ المبادىء الاولى للعمارة ، وشق الطرق والفن والطهو والطب والفلك .

وكان الرومان يكرهون أساتذتهم الاتروريين ، كما كان الاغريق يبغضون أساتذتهم الايجيين سواء بسواء ، فتخلصوا منهم فى أول فرصة ملائمة . وقد أتيحت لهم هذه الفرصة عندما فطن التجار الاغريق الى أنه من الممكن ايجاد صلات تجارية بينهم وبين ايطاليا عندما وصلت السفن الاغريقية بالفعل لأول مرة الى سواحل ايطاليا .

لقد وفد الاغريق الى ايطاليا للتجارة ، ولكنهم مكثوا فى البلاد لتعليم أهلها . فقد وجدوا أن القبائل التى تسكن الاقليم الرومانى ـ وكانوا يعرفون باسم **اللاتين** ـ يرغبون رغبة أكيدة فى اكتساب كل المعارف ذات الصبغة العملية . وادرك اللاتين لأول وهلة الفائدة العظمى التى يمكن أن تعود عليهم من تعلم ابجدية مكتوبة ، لذلك نجدهم ينقلون الابجدية الاغريقية .. كما أنهم أدركوا الفوائد التجارية التى تعود عليهم من الأخذ بنظام السكة والمقاييس والموازين على نهج منظم . ثم شرب الرومان آخر الأمر كأس الحضارة الاغريقية حتى الثمالة ، بل هم قد رحبوا بدخول آلهة الاغريق الى بلادهم ، فانتقل الاله **زيوس** الى روما ، واصبح يعرف باسم **جوبيتر** ... وتبعه سائر الآلهة .

على أن هذه الآلهة الرومانية لم تكن على مثال آلهة الاغريق المرحة التى كانت تصحب الاغريق فى سبل حياتهم وفى تاريخهم ، فقد كانت آلهة الرومان بمثابة موظفى الدولة ، لكل واحد منهم ادارته الخاصة يديرها فى حرص عظيم وادراك عميق للعدالة لايحيد عنها . ولكن الرومان لم يعملوا قط على انشاء علاقات شخصية ودية بينهم وبين آلهتهم ، ولم تكن تربطهم بهم تلك الصداقة المحببة التى كانت قائمة بين الهيلينيين القدماء وتلك الآلهة التى كانت تسكن قمة جبل أوليمب السامقة .

ولم يقلد الرومان نظام الحكم الاغريقى ، ولكن تاريخ روما القديم يشبه تاريخ أثينا وغيرها من المدن الاغريقية ، لأن الشعبين كانا من الجنس الهندى الاوربى . ولم يجد الرومان مشقة فى التخلص من ملوكهم أسباط زعماء قبائلهم الأقدمين . وما ان طرد الملوك من المدينة حتى اضطر الرومان الى الحد من سلطان الأشراف . ومرت عدة قرون قبل ان يتيسر لهم انشاء نظام أتاح لكل مواطن حر من سكان روما فرصة الاشتراك فى تدبير شئون مدينته .

وامتاز الرومان فيما بعد على الاغريق بميزة كبيرة، ذلك انهم كانوا يدبرون شئون بلادهم من غير أن يسترسلوا فى الجدل والنقاش ، اذ كانوا اقل خيالا من الاغريق ، يؤثرون الأعمال على الأقوال . وكانوا يدركون ميول العامة ادراكا جعلهم يستطيعون تجنب اضاعة الوقت الثمين فى الكلام الذى لاطائل تحته ، ولذلك جعلوا تصريف امور المدينة بالفعل فى أيدى قناصل يعاونهم مجلس من الشيوخ . وقد جرت العادة بانتخاب الشيوخ من بين الأشراف ، على أن سلطتهم حددت تحديدا دقيقا .

ومرت روما فى وقت من الأوقات بذلك الصراع بين الفقراء والأغنياء الذى حمل أثينا على الاخذ بقوانين دراكو وصولون . ولقد شب هذا النزاع فى روما فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وانتهى الأمر بأن حصل الاحرار على مجموعة من القوانين المكتوبة تحميهم من جور القضاة الارستقراطيين ، وذلك بانشاء المحاكم الخاصة بالدفاع عن الحقوق العامة . وكانت هذه المحاكم تتألف من قضاة ينتخبون من بين احرار المدينة ، وكان لهم حق حماية اى مواطن من أى فعل يصدر من عمال الحكومة ويظن ان فيه مجافاة للحق والعدل . وكان للقنصل الحق فى الحكم بالاعدام ، ولكن التهمة اذا لم تثبت ثبوتا قاطعا جاز للمحكمة أن تتدخل لانقاذ حياة المواطن .

على أننى اذا ذكرت كلمة روما فالذى يبدو هو أننى اشير الى تلكم المدينة الصغيرة التى كان يسكنها بضعة آلاف من الناس . وترجع قوة روما الحقيقية الى ما يتبعها من الاقاليم الكائنة خارج أسوارها . وكان حكمها لهذه الاقاليم القائمة خارج أسوارها هو الذى أبرز فى وقت مبكر مقدرة روما العجيبة على الحكم الاستعمارى .

وكانت روما فى عهد جد قديم المدينة الوحيدة المنيعة

www.ibtesama.com/vb/

التحصين فى ايطاليا الوسطى ، ولكنها كانت دائما ابدا تفتح ذراعيها للقبائل اللاتينية الأخرى اذا تهددها خطر الغزو .

ولقد ادرك جيرانها اللاتينيون الفوائد التى تعود عليهم من اتجادهم الوثيق مع صديق قوى مثل روما ، فسعوا الى ايجاد نوع من التحالف للهجوم والدفاع . وكانت الدول الاخرى ـ كالمصريين والبابليين والفينيقيين ، بل الاغريق ايضا ـ يصرون فى مثل هذه الظروف على أن يخضع « البرابرة » لسلطانهم ، ولكن الرومان لم يصنعوا مثل هذا ، بل انهم قد اعطوا الأجانب فرصة لكى يصبحوا شركاء فى حكومة متحدة (" res-publica " or " common-wealth ")

كان الرومان يقولون : « انتم تريدون أن تنضموا الينا . حسنا ... فلتفعلوا ، وسنعاملكم معاملة المواطنين الرومان الأقحاح ، ونحن نقتضيكم لقاء ذلك ان تحاربوا من أجل روما أم الجميع كلما استوجب الأمر ذلك » . وكان الاجانب يقدرون هذا الكرم فيخلصون لروما اخلاصا لايتزعزع عرفانا منهم بالجميل .

وكانت المدينة الاغريقية اذا هاجمها مهاجم بادر الأجانب المقيمون فيها الى الخروج منها باسرع مايستطيعون ، فلم يكن ثمة مبرر يدفعهم الى الدفاع عن شيء لايعد بالنسبة لهم سوى مأوى وموقوت يسمح لهم بالاقامة فيه مادامو يدفعون مايجب عليهم دفعه من أجر . ولكن عندما كان العدو يطرق ابواب روما كان اللاتينيون جميعا يهبون للدفاع عنها لأن الخطر كان يهدد امهم جميعا ، فروما هى موطنهم الحق ... وان كانوا يعيشون على مسيرة مئات من الأميال بعيدا عنها ، ولم تكتحل اعينهم قط برؤية تلالها المقدسة .

ولم تكن الهزائم ولا النكبات تغير من هذا الشعور . فقد شق اهل بلاد غالة المتوحشون طريقهم الى ايطاليا فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، وهزموا الجيش الرومانى بالقرب من نهر آليا ، وتقدموا نحو مدينة روما ، وحسبوا أن الاهالى سوف يتقدمون اليهم طالبين السلام ، فانتظروا . . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل وجدوا انفسهم بعد وقت قصير محاطين بالسكان يناصبونهم العداء ، فتعذر عليهم الحصول على الزاد والمؤونة ، وبعد سبعة اشهر اضطرهم الجوع الى الانسحاب . وقد اثبتت سياسة روما الخاصة بمعاملة الاجانب على قدم المساواة مع المواطنين الرومان ، انها سياسة ناجحة غاية النجاح ، جعلت روما اقوى كثيرا من ذى قبل .

وهذا الموجز لتاريخ روما القديم يوضح لنا ذلك الفرق الهائل بين غاية الرومان من الحكومة السليمة وبين الحكومة فى العهد القديم كما تتمثل فى قرطاجنة .

كان الرومان يعتمدون على قيام تعاون اساسه الاخلاص والمودة بين عدد من المواطنين المتساوين فى كل شيء . اما القرطاجنيون فقد ساروا على منوال مصر وآسيا الغربية ، فالزموا رعاياهم بالطاعة فى غير مامقتض (ومن ثم كانت طاعة تبذل عن كره) ، فاذا عزت عليهم استأجروا الجنود المرتزقة للحرب فى سبيلهم .

وندرك الآن لم كانت قرطاجنة قمينة بأن تخشى مثل هذا العدو الاريب القوى البأس ، ولم حرصت حكومة الاغنياء على تحين الفرص للاشتباك فى قتال يدمر هذا العدو الرهيب قبل فوات الاوان .

على أن القرطاجنيين ادركوا بحكم كونهم رجال اعمال ناجحين ، ان الاندفاع فى هذه الامور لا طائل وراءه ، ومن ثم اقترحوا على الرومان ان يخطوا حول روما وقرطاجنة دائرتين على الخريطة ، وان تكون لكل مدينة منهما دائرة نفوذها بحيث لا تعتدى احداهما على الاخرى . وبادر كلا الطرفين الى ابرام هذا الاتفاق ، كما بادر الى خرقه عندما راى كل منهما ان الحكمة تدعوهما الى ارسال جيوشهما الى صقلية الوافرة الخصب ، والتى كانت تحكمها حكومة سيئة السيرة تغرى الاجانب بالتدخل فى شئونها .

وتعرف الحروب التى اعقبت ذلك باسم الحروب البونية الاولى . وقد استمرت اربعا وعشرين سنة ، وكان ميدانها عرض البحر . وكان يلوح فى بادىء الامر ان الاسطول القرطاجنى المدرب سوف يلحق الهزيمة بالاسطول الرومانى الحديث النشأة . ولقد اتبع القرطاجنيون حيلهم الحربية القديمة ، فكانت سفنهم تنطح مراكب العدو ، أو تهجم عليها من الجانب هجمة جريئة فتحطم مجاديفها ، ثم تقتل بحارة هذه

سفينة حربية رومانية سريعة

www.ibtesama.com/vb/

السفن المسكينة بسهامها أو تحرقهم بكرات اللهب .. لكن المهندسين الرومان اخترعوا سفنا جديدة عليها جسر خشبى يقف عليه جنود الرومان اذا هاجموا سفن العدو .. فانتهت بذلك فجأة انتصارات القرطاجنيين ، وحلت هزيمة منكرة بأسطول قرطاجنة فى موقعة **ميلاى** ، واضطرت قرطاجنة الى طلب الصلح ، وكان من نتيجته أن غدت صقلية من املاك الرومان .

وتجددت هذه الحروب بعد ثلاث وعشرين سنة ، اذ احتلت روما جزيرة سردانية لحاجتها الى النحاس، كما احتلت قرطاجنة الجزء الجنوبى من اسبانيا بأسره طلبا للفضة ، وانتهى ذلك بان اصبحت قرطاجنة جارة مباشرة للرومان . غير ان الرومان لم يرضوا عن ذلك ، فأمرت الدولة جيوشها بان تعبر جبال البرانس لمراقبة جيش الاحتلال القرطاجنى ، وبهذا اعد المسرح مرة اخرى للحرب بين هاتين الدولتين المتنافستين . وللمرة الثانية كانت احدى المستعمرات الاغريقية هى السبب الذى شبت من اجله نار الحرب. فقد كان القرطاجنيون يحاصرون مدينة **ساجونتوم** على الشاطىء الشرقى لاسبانيا ، فما كان من اهل هذه المدينة الا أن طلبوا العون من روما . وكانت روما ـ كما هو شأنها على الدوام ـ مستعدة لتلبية هذا النداء ، ووعد مجلس شيوخها بان يرسل الجيوش اللاتينية لمساعدة اهل هذه المدينة . غير ان اعداد الحملة استغرق وقتا كانت قرطاجنة قد استولت فيه على ساجونتوم ودمرتها . وقد تم هذا على غير ارادة روما تماما فقرر مجلس شيوخها اعلان الحرب .

وكانت الخطة الموضوعة ان يعبر جيش روما البحر الافريقى وينزل فى الاراضى القرطاجنية ، على حين يتولى جيش رومانى آخر حجز الجيوش القرطاجنية فى اسبانيا ومنعها من المبادرة الى معونة مدينة قرطاجنة . وكانت هذه الخطة بارعة ، وتوقع الناس ان يحرز الرومان فوزا عظيما . على ان مشيئة الاله كانت قد قضت بغير ماتوقع الناس ..

كان ذلك فى خريف عام ٢١٨ قبل ميلاد المسيح ، وقد خرج من ايطاليا الجيش الرومانى الذى انفذ لمهاجمة القرطاجنيين فى اسبانيا . وكان الناس ينتظرون فى شغف انباء نصر تام هين يسير ، واذا بشائعة مروعة تترامى من سهل البو .. ذلك ان اهل الجبال الهمج رأوا ـ وقلوبهم ترجف فزعا ـ ان مئات الآلاف من رجال سمر يصطحبون وحوشا عجيبة كل منها فى حجم البيت ، قد ظهروا فجأة بين الثلوج التى تحيط بممر **جرايان** القديم ، وهو الممر الذى طرد منه هرقل قبل ذلك بالف عام ثيران **جريون** وهو فى طريقه من اسبانيا الى اليونان . وسرعان ماظهر عند ابواب روما سيل لاينقطع من اللاجئين المشعثين يرددون تفاصيل وافية عن هذا الخطب . لقد عبر **هانيبال بن هملكار** جبال البرانس على رأس جيش عدته خمسون الف مقاتل وتسعة آلاف فارس وسبعة وثلاثون فيلا من الفيلة المدربة على القتال ، واوقع الهزيمة بالجيش الرومانى ، وعلى رأسه **سكبيو** ، على ضفاف نهر الرون . ثم قاد جيشه آمنا عبر ممرات الالب الجبلية على الرغم من ان ذلك كان فى شهر اكتوبر ، وكانت الطريق مغطاة بطبقة كثيفة من الجليد . وانضمت الى جيش هانيبال قوات من الغاليين ، فتمكن بمساعدتهم من ان يهزم جيشا رومانيا آخر قبل ان يعبر **تربيا** ، وان يحاصر **بلاسنتيا** آخر محطة شمالية للطريق الذى يربط روما باقاليم الالب .

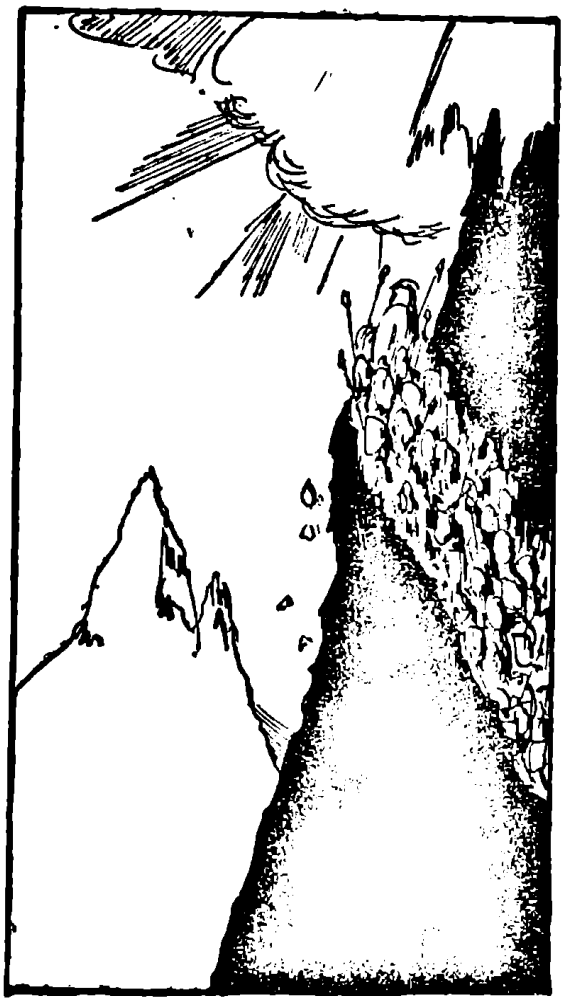

هانيبال يعبر جبال الالب

www.ibtesama.com/vb/

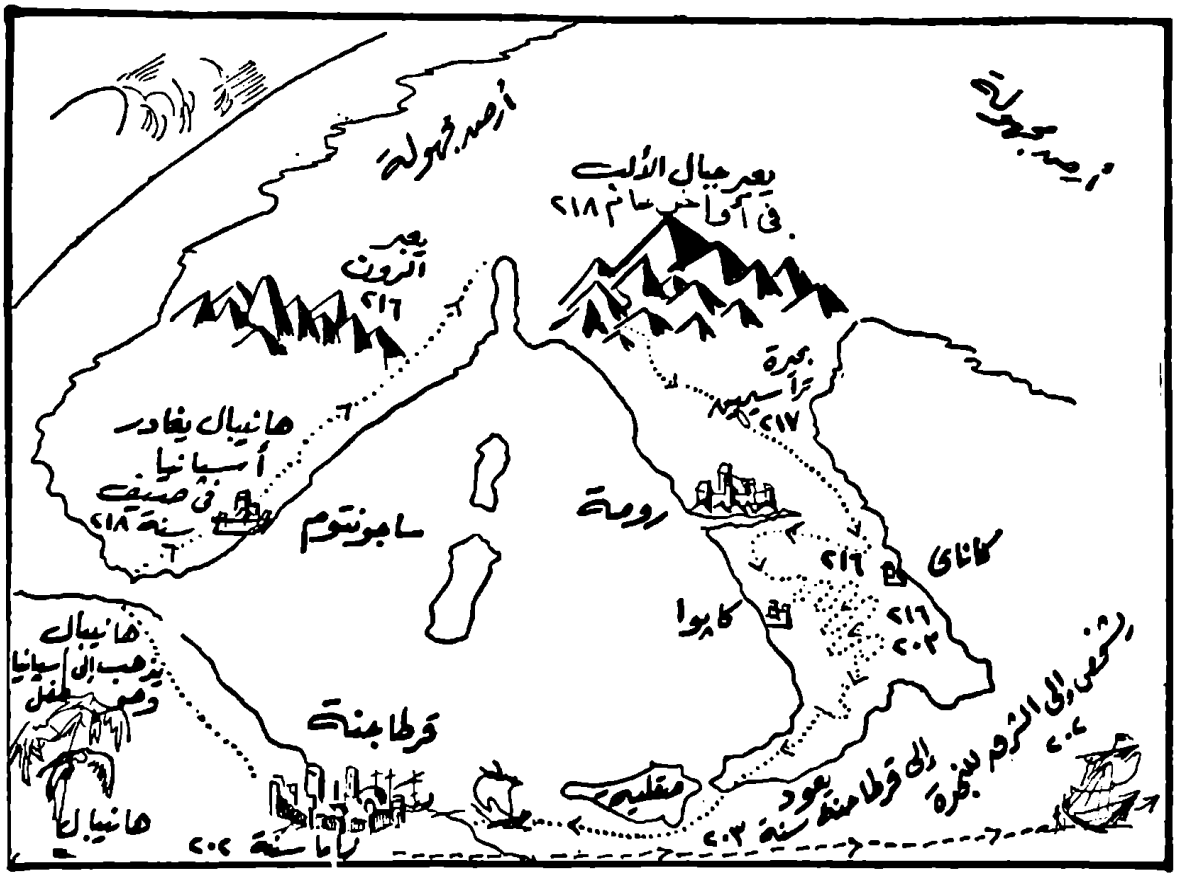

حملة هانيبال

وفوجىء مجلس الشيوخ الرومانى بهذه الهزائم ، ولكنه ظل هادئا صادق العزم كما هو شانه ، واخفى امرها عن الناس ، وارسل جيشين آخرين لصد المغير .

وحاول **هانيبال** ان يفاجىء هذه الجيوش فى ممر ضيق يلتف حول بحيرة تراسيمين ، وهناك قتل جميع الضباط الرومان ومعظم رجالهم . لقد دب الرعب هذه المرة فى قلوب اهل روما ، ولكن مجلس الشيوخ ظل محتفظا بهدوء اعصابه ، فاعد جيشا ثالثا بقيادة **كوينتوس فابيوس ماكسموس** ، واعطى له مطلق الحرية فى التصرف بما يراه لحفظ سلامة الدولة . وادرك كوينتوس ان الامر يقتضيه اصطناع الحذر الشديد والا فقد كل شيء . وكانت جنوده الطرية العود غير المدربة ـ وهم آخر عدة فى جعبة روما ـ لا قبل لهم بجنود هانيبال العمالقة . . . لذلك تحاشى كوينتوس منازلة هانيبال ، ولكنه داب على تعقبه مدمرا كل ما فى البلاد من زاد ، مخربا الطرق ، مهاجما سرايا العدو . كما عمد بصفة عامة الى اضعاف الروح المعنوية للجنود القرطاجنيين بالتزامه ضربا من حرب العصابات تقلق العدو اشد القلق ، وتفل من عزيمته الى اقصى حد . غير ان هذه الوسائل لم ترض الجموع الخائفة التى كانت تجد الامن وراء اسوار روما ، اذ كانت هذه الجماهير تريد عملا ، وان يتم ذلك العمل على جناح السرعة .

وفى ذلك الوقت اخذ بطل شعبى يدعى **فارو** يجوب انحاء المدينة ذاكرا لكل شخص يقابله انه يستطيع ان يصنع امرا يفوق بكثير ما صنعه فابيوس الشيخ البطيء الحركة ، فانتخبته روما قائدا اعلى لجيوشها وسط مظاهر التهليل والتكبير . ولقد منى هذا القائد فى موقعة **كاناى** عام ٢١٦ باشد هزيمة عرفها التاريخ الرومانى ، اذ قتل من رجاله اكثر من سبعين الف مقاتل . وبهذا اصبح هانيبال سيد ايطاليا باسرها .

واخذ هانيبال يتنقل فى شبه الجزيرة الايطالية من طرف الى طرف ، معلنا للملأ انه منقذهم من نير روما ، طالبا من الاقاليم المختلفة الانضمام اليه فى قتاله .

وهنا تعود حكمة روما فتثمر ثمرة من ثمارها النبيلة ، فقد ظلت جميع المدن الرومانية على ولائها ، ما عدا **سراقوسه وكابوا** . وعندئذ وجد المنقذ هانيبال ، ان الناس يعارضونه على الرغم من بذل صداقته لهم .

www.ibtesama.com/vb/

وكان فى الوقت نفسه بعيداً غاية البعد عن موطنه ، ومن ثم اوجس خيفة من موقفه . فارسل الى قرطاجنة طالبا امدادات جديدة من الرجال والعتاد ، ولكن قرطاجنة كانت للاسف عاجزة عن ان ترسل له ماطلبه منها .

لقد كان الرومان بفضل الجسور الخشبية التى ابتدعوها سادة البحر ، فلم يكن امام هانيبال الا الاعتماد على نفسه قدر الطاقة ، فاخذ يلحق الهزيمة تلو الهزيمة بالجيوش الرومانية التى انفذت اليه ، ولكن جنوده اخذت تتناقص فى الوقت نفسه بسرعة ، كما ان الفلاحين الايطاليين قد تجنبوا ذلك الذى فرض نفسه منقذا للشعب الرومانى .

ووجد هانيبال نفسه بعد سنوات عدة احرز فيها عدة انتصارات متصلة انه اصبح محاصرا داخل البلاد التى تم له فتحها . غير ان الحظ اخذ يواتيه فترة من الزمن ، فقد هزم اخوه **هزدروبال** الجيوش الرومانية فى اسبانيا ، ثم عبر الالب ليشد من ازراخيه هانيبال ، فارسل رسلة الى الجنوب لتطمئن قدومه وتطلب من جيش هانيبال ان يلتقى به فى سهل التيبر ، ولكن حدث لسوء الحظ ان وقع الرسل فى ايدى الرومان ، وانتظر هانيبال دون جدوى وصول اخبار اخرى من اخيه ، فلم يصل الى مفتكره ستوى راس اخيه ملفوفا بعناية وموضوعا فى سلة ليتنبئه بما آل اليه امر آخر الجيوش القرطاجنية .

وما ان خرج هزدروبال من الميدان ، حتى استطاع **بوبليوس سكيبو** الشاب ان يستعيد فتح اسبانيا فى يسر ، وبعد ذلك باربع سنوات كان الرومان على تمام الاهبة للقيام بهجومهم الاخير على قرطاجنة : واستدعى هانيبال الى وطنه ، فعبر البحر الافريقى ، وحاول تنظيم وسائل الدفاع عن مدينته . وفى عام ٢٠٢ قبل الميلاد خذلت وقفة زاما ، وفيها هزم القرطاجنيون وفر هانيبال الى مدينة صور ، ومن هناك ذهب الى آسيا الصغرى ليؤلب السوريين والمقدونيين على روما . ولم يفلح هانيبال فى جهوده هذه الا قليلا ، ولكن وجوده ومظاهر نشاطه بين تلك الشعوب قد اعطى للرومان القدر فى ان يقوموا بحروبهم فى بلاد الشرق ، وأن يضموا الى دولتهم الجزء الاكبر من العالم الايجى .

واخذ هانيبال يفر من مدينة الى اخرى طريدا لا وطن له ، ثم ادرك آخر الأمر أن نهاية احلامه وامانيه قد دنت ، فقد دمر الاعداء مدينته المحبوبة قرطاجنة ، واضطر اهلها الى عقد صلح شائن ، كما اغرقت بحريتها ، وحرم عليها القيام بحرب دون ان تاذن لها روما بذلك ، وفرضت عليها غرامة فادحة تؤديها الى روما سنين يخطئها الحصر . ولم تهيئ لهم الحياة اسباب الامل فى مستقبل احسن وافضل ، ومن ثم تناول هانيبال السم عام ١٩٠ قبل الميلاد وقضى على حياته .

موت هانيبال

وبعد ذلك باربعين سنة فرض الرومان على القرطاجنيين حربهم الاخيرة . ولقد صمد اهل تلك المستعمرة الفينيقية القديمة لبأس هذه الجمهورية الرومانية الفتية ثلاث سنين طوالا ، ولكن الجوع اجبرهم على التسليم . وبيع ذلك العدد الضئيل الذى بقى بعد الحصار من رجالها ونسائها فى سوق العبيد ، واضرمت النار فى المدينة ، وظلت النيران مشتعلة اسبوعين فى مخازنها وقصورها ، واتت الحريق على دار الاسلحة العظيمة . وعندئذ حلت اللعنة على هذه الاطلال التى جللتها النيران بالسواد ، ثم عادت الجيوش الرومانية الى ايطاليا لتحتفل بانتصاراتها .

وظل البحر المتوسط خلال الالف سنة التالية بحرا اوربيا ، ولكن ما ان سقطت هذه الامبراطورية الرومانية حتى قامت آسيا بمحاولة جديدة للسيطرة على هذا البحر الداخلى العظيم ، كما ستتعلم ذلك عندما احدثك عن النبى محمد عليه السلام .

www.ibtesama.com/vb/

قامت الامبراطورية الرومانية اتفاقا ، فلم يدبر قيامها احد .. لقد كانت حادثة وقعت ، فلم يهب قائد مشهور او سياسى او سفاح قائلا : « ايها الاصدقاء ، ايها الرومان ، ايها المواطنون : ينبغى لنا ان نقيم امبراطورية فاتبعونى ، وسنغزو معا جميع البلاد من ابواب هرقل حتى جبال طوروس» .

لقد انجبت روما قوادا مشهورين وسياسيين محنكين وسفاحين ، وحاربت جيوشها فى بقاع العالم جميعا . ولكن الامبراطورية الرومانية لم تنشأ على خطة مرسومة من قبل فالرجل الرومانى العادى كان فى واقع الامر مجرد مواطن يمقت النظريات التى تدور حول الحكم ، فاذا ما اخذ واحد من الناس يصيح قائلا : « فلتتجه الامبراطورية الرومانية الى الشرق ... » وغير ذلك من الاقوال — هرول الرومانى تاركا الفوروم ، ذلك ان الظروف هى التى حملته على الاستزادة من الأراضى ، فلم يكن يدفعه الى ذلك مطمح او مطمع . لقد كان بطبعه وميوله مزارعا يؤثر الاستقرار فى وطنه ، ولكن اذا هاجمه مهاجم لم يجد بدا من الدفاع عن نفسه ، واذا ما لاح له عدو ذو خطر من وراء البحار ، اضطر آخر الامر الى محاربة هذا العدو فى عقر داره .. فاذا ما تم له النصر مكث لينظم ويدبر امر هذه البقاع الجديدة المفتوحة ، حتى لاتقع فى ايدى البرابرة الرحل فيصبحوا خطرا يهدد سلامة الرومان .

قد يبدو لنا هذا القول ادنى الى التعقيد ، ولكنه كان امرا سهلا جدا لدى المعاصرين كما سترى ذلك بعد قليل .

عبر سكيبو البحر الافريقى عام ٢٠٣ قبل الميلاد ، ونقل ميدان الحرب الى افريقيا ، واستدعت قرطاجنة هانيبال على عجل ، ولكن الهزيمة حلت به بالقرب من زاما لان جنوده المرتزقة لم يتحمسوا لنصرته . وطلب منه الرومان التسليم ، ولكنه فر طالبا نجدة ملوك مقدونية وسوريا كما ذكرت فى الفصل السابق . وكان ملوك هاتين الدولتين (وهما من بقايا

كيف قامت روما

www.ibtesama.com/vb/

امبراطورية الاسكندر الاكبر) يفكرون فى ذلك الوقت فى ارسال حملة الى مصر آملين أن يقتسموا وادى النيل الخصيب فيما بينهم . فلما سمع ملك مصر بذلك ، طلب عون روما ، وتهيا المجال لقيام طائفة من المكائد على جانب كبير من الخطورة ، وطائفة اخرى لاحباطها . غير أن الرومان لافتقارهم الى الخيال ، اسدلوا الستار قبل ان تبدا الرواية تماما . فقد اوقعت جيوشهم هزيمة منكرة بالكتائب الاغريقية الثقيلة التى كان المقدونيون لايزالون يستخدمونها فى حروبهم . وحدث هذا فى الوقعة التى شبت فى سهول **كينو سيفالاى** (اى رؤوس الكلاب) من اعمال تساليا الوسطى عام ١٩٧ قبل الميلاد .

واتجه الرومان بعد ذلك جنوبا نحو اتيكا ، واذاعوا بين الاغريق انهم جاءوا لتخليص ارض هيلين من نير المقدونيين . على أن الاغريق لم يكن لهم فى سالف ايامهم عهد بهذه الحالة التى تشبه الرق ، فمارسوا حريتهم الجديدة على وجه سيىء غاية السوء . فقد عادت جميع دول المدن الصغيرة الى النضال فيما بينها كما صنعوا فى ايامهم الخالية . وصبر الرومان على هذه الحال صبرا طويلا ، على الرغم من انهم لم يالفوا الا قليلا هذه المنافرات السخيفة التى تصدر عن شعب يحتقرونه ، وكان مقتهم لها اشد وانكى . على انهم ضاقوا بهذه المنازعات التى لاتنتهى وعيل صبرهم ، فغزوا بلاد الاغريق ، وحرقوا كورنثة تشجيعا لبقية الاغريق الآخرين ، وبعثوا حاكما رومانيا على اثينا ليلى امر هذه الولاية المشاغبة . وبذلك غدت مقدونيا وبلاد اليونان بمثابة دولتين حاجزتين تحميان حدود روما الشرقية .

وفى الوقت نفسه كانت تقوم فيما وراء الدردنيل مباشرة مملكة سوريا . وقد اظهر ملكها **انطيوخس** الثالث حاكم هذه البلاد المترامية الاطراف ، اهتماما عظيما عندما اخبره هانيبال ضيفه العظيم ، انه من السهل عليه الاغارة على ايطاليا ونهب مدينة روما .

وقد انفذ **لوسيوس سكيبيو** ـ اخو **سكيبيو** الافريقى الذى هزم هانيبال وجنوده من القرطاجنيين عند زاما ـ الى آسيا الصغرى ، فقضى على جيوش ملك سوريا بالقرب من مغنيسيا عام ١٩٠ قبل الميلاد . وثار اهل سوريا بعد ذلك على ملكهم وانزلوا به العقاب . وبذلك غدت آسيا الصغرى تحت الحماية الرومانية ، واصبحت جمهورية روما الصغيرة سيدة على معظم البلاد التى تحف بالبحر المتوسط .

الامبراطورية الرومانية

كيف اصبحت الجمهورية الرومانية امبراطورية بعد قرون سادها الاضطراب والفتن ؟

لما عادت الجيوش الرومانية الى وطنها بعد هذه الحروب الكثيرة المظفرة ، قابلها الشعب بمظاهر الاحتفال والتبجيل .. ولكن مما يبعث على الاسف ان هذه العظمة المفاجئة لم تزد من سعادة روما ، بل كان الامر على عكس ذلك . فان هذه الحملات التى لم يكن لها نهاية قد انزلت الخراب بالمزارعين الذين وقع على كاهلهم عبء الكدح فى سبيل اقامة هذه الامبراطورية ، اذ وضعت هذه الحروب كثيرا من السلطان فى ايدى القواد الظافرين وبطانتهم الذين اتخذوا من الحرب وسيلة للسرقة على نطاق واسع .

كانت الجمهورية الرومانية القديمة فخورة بالبساطة التى كانت من خصائص حياة رجالها المشاهير . اما الجمهورية الحديثة فقد عراها الخجل من تلك الاردية الحائلة الخلقة ، والمبادىء السامية التى كانت شائعة فى ايام اسلاف الرومان الاولين . لقد غدت الجمهورية الجديدة موطن شعب ثرى يحكمه اناس اثرياء لصالح الاثرياء ، وهذا هو الذى ادى بهذه الجمهورية الى الفناء كما ساخبرك فيما بعد .

غدت روما فى اقل من قرن ونصف قرن سيدة على جميع البلاد التى تحيط بحوض البحر المتوسط تقريبا . وكان اسير الحرب فى تلك الايام الخوالى يفقد حريته ويصبح رقيقا . وكان الرومانى يعد الحرب عملا خطيرا كل الخطورة ، فلم يرحم عدوه المقهور اية رحمة .. فلما سقطت قرطاجنة استرق نساء هذه المدينة واطفالها وعبيدها . وكان مثل هذا المصير ينتظر ايضا اهل اليونان ومقدونيا واسبانيا وسوريا الذين ركبهم العناد ، واجتراوا على الانتقاض على السيادة الرومانية .

www.ibtesama.com/vb/

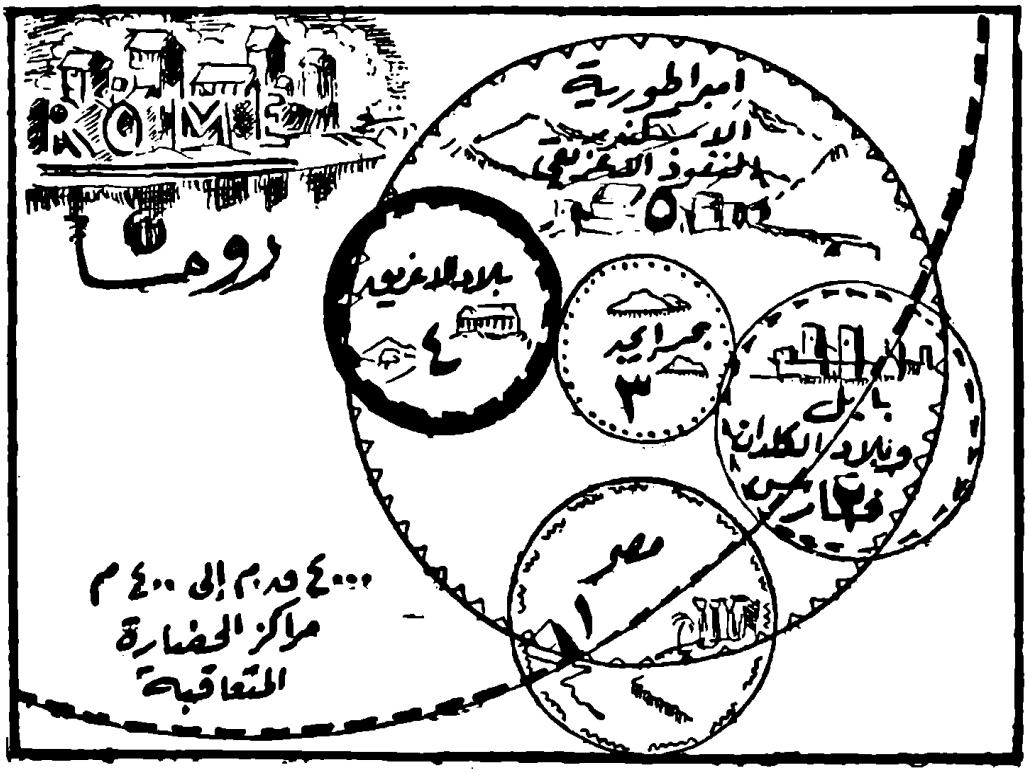

الحضارة تنتقل من الشرق الى الغرب

لقد كان العبد منذ الفين من السنين مجرد آلة مسيرة ، ففى ايامنا هذه يستثمر الغنى امواله فى المصانع ، اما اغنياء روما ـ وهم اعضاء مجلس الشيوخ والقواد واثرياء الحرب ـ فكانوا يستثمرون اموالهم فى شراء الارض والعبيد . اما الارض فكانوا يشترونها ويغنمونها من الاقاليم المفتوحة حديثا ، واما العبيد فكانوا يشترونهم من السوق الحرة حيثما يجدون سعرهم ارخص ما يكون . وكانت اسواق العبيد زاخرة بهم خلال الجزء الاكبر من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد . وكان من نتيجة ذلك ان اخذ اصحاب الاراضى يسخرون هؤلاء العبيد فى الفلاحة الى ان يخروا صرعى من الجهد والنصب ، فيشترون عبيدا جددا من اقرب سوق لاسرى **الكورنثيين** او القرطاجنيين .

والآن ، انظر مصير الفلاح الذى ولد حرا .

لقد قام الفلاح بواجبه نحو روما ، فحارب من اجلها دون ان يشتكى او يتذمر ، ولكنه كان اذا عاد الى وطنه بعد غيبة عشر سنين او خمس عشرة سنة او عشرين سنة ، الفى ارضه خرابا بلقعا قد غطاها العشب ، واسرته وقد حل بها الخراب . ولكنه كان مع ذلك رجلا صلب العود ، مستعدا لاستئناف حياته من جديد . . فياخذ فى حرث ارضه وزرعها انتظارا للمحصول ، ثم يحمل غلاله الى السوق مع ماشيته ودجاجه ، وهناك يجد كبار الملاك الذين يستخدمون العبيد فى ضياعهم يزاحمونه فى السوق مزاحمة شديدة . وقد ظل الفلاح الحر يسير على هذا المنوال سنوات ، يجاهد فى سبيل الحصول على رزقه ، ثم يستسلم فيترك الريف يائسا ، ويذهب للعيش فى اقرب مدينة . ولم تكن حاله بالمدينة بأحسن من حاله فى الريف ، اذ يعضه الجوع بنابه ، ولكنه كان يشارك آلاف الناس الذين لم يرثوا شيئا عن اسلافهم ما هم فيه من بؤس . وكان هؤلاء الناس يحشرون فى اكواخ قذرة بضواحى المدن الكبيرة معرضين للمرض والموت من جراء الاوبئة الخطيرة .

كانوا جميعا ساخطين اشد السخط ، فقد حاربوا فى سبيل بلادهم وكان هذا جزاءهم . كانوا دائما ابدا على استعداد للانصات الى اولئك الخطباء الذين يفتنون الناس بمعسول الكلام ، ويتساقطون على مظالم الناس تساقط النسور على الجيفة ، لذلك سرعان ما اصبحوا شرا خطيرا يهدد سلامة الدولة . اما الطبقة الحديثة الثراء فكانت تهز اكتافها استخفافا قائلة « لدينا جيشنا وشرطتنا وهم فى استطاعتهم

www.ibtesama.com/vb/

ايقاف الرعاع عند حدهم » ثم يحتمون وراء أسوارهم العالية لبيوتهم الخلوية الجميلة يشرفون على زرع بساتينهم ، وقراءة اشعار هوميروس ، وكان قدنقلها عبد من العبيد اليونان الى اللاتينية فى اوزان سداسية شائقة .

على ان التقاليد القديمة التى كانت تؤثر خدمة مجموعة شعوب روما المتحدة ، ظلت باقية فى بعض الاسر . فقد تزوجت **كورنيليا** ابنة سكيبو الافريقى من رومانى يدعى **جراكوس** ، وانجبت منه ولدين هما **تيبريوس وجايوس** .

ولما شب الولدان دخلا ميدان السياسة وحاولا القيام ببعض الاصلاحات الضرورية . ودلت الاحصاءات على ان معظم اراضى شبه جزيرة ايطاليا كانت فى حوزة الفين من الاسر النبيلة . وحاول تيبريوس جراكوس عندما انتخب « تريبونا » مساعدة الاحرار ، فاحيا من جديد قانونين قديمين يحدان من الملكية الزراعية . وكان يأمل من وراء ذلك احياء الطبقة القديمة من الملاك الصغار الاحرار المستقلين التى لا غنى عنها ، فما كان من الطبقة الحديثة الثراء الا ان رمته بانه لص وعدو الدولة . وقام الشغب فى الطرقات ، واستؤجرت عصابة من الاشقياء لقتل التريبون المحبوب من الناس ، فهجموا عليه فى اثناء دخوله دار الجمعية وضربوه حتى قضوا عليه . وبعد ذلك بعشر سنوات حاول اخوه جايوس القيام باصلاحات فى نظام الدولة على الرغم من معارضة طبقة قوية من اصحاب الامتيازات ، فاصدر قانون الفقراء ، وكان القصد منه مساعدة الفلاحين البائسين . وانتهى الامر بان امتهن الجزء الاكبر من المواطنين مهنة الشحاذة .

وانشأ جايوس مستعمرات للفقراء البائسين فى انحاء بعيدة من الامبراطورية ، ولكنها لم تجتذب هذا الصنف من الناس . واغتيل جايوس جراكوس قبل ان تزداد شروره ، اما اتباعه فقتلوا او كان نصيبهم النفى .

لقد كان هذان المصلحان الاولان من افاضل الناس . اما المصلحان اللذان خلفاهما فكانا من طينة مختلفة عنهما تمام الاختلاف ، اذ كانت صناعتهما الحرب ، ويدعى اولهما **ماريوس** والآخر **سـلا** ، وكان لكل منهما اتباع كثيرون .

كان **سلا** زعيم اصحاب الاراضى . اما ماريوس ـ وهو القائد المظفر فى الوقعة التى حدثت عند سفح الالب ، والتى قضى فيها على **التيوتون والكمبرى** ـ فقد كان الزعيم الشعبى للاحرار الذين لم يرثوا شيئا .

وحدث فى عام ٨٨ قبل الميلاد ان اقلقت الشائعات الصادرة من آسيا الصغرى مجلس شيوخ روما اقلاقا شديدا ، فقد كان **متريداتس** ، ملك البلاد التى تحف بالبحر الاسود ، رجلا يونانيا من ناحية امه ، وكان يرى انه فى الامكان قيام امبراطورية اسكندرانية جديدة . وبدا حملته فى سبيل السيادة على العالم بذبح جميع المواطنين الرومان ، رجالا ونساء واولادا ، ممن اتفق وجودهم فى آسيا الصغرى فى ذلك الوقت ، وكان مثل هذا العمل معناه الحرب لا محالة .

جهز مجلس الشيوخ جيشا لمحاربة ملك **بنطش** ومعاقبته على جرمه . ولكن من يكون على راس هذا الجيش ؟ .. اختلف القوم فى ذلك ، فمجلس الشيوخ يرى ان يكون سلا هو قائد هذا الجيش لانه القنصل ، اما الجماهير فكانت ترى ان **ماريوس** هو الرجل الذى يصلح لهذا المركز ، لانه تولى القنصلية خمس مرات ، كما كان هو المدافع عن حقوق الشعب .

والحق ان الامر الواقع هو الذى يسود ، فقد اتفق ان كان **سـلا** متوليا بالفعل قيادة الجيش ، ومن ثم سار الى المشرق لهزيمة متريداتس ، اما ماريوس فقد فر الى افريقيا ، وانتظر هناك الى ان جاءته الاخبار بان **سـلا** قد عبر البحر الى آسيا الصغرى . وعندئذ عاد الى ايطاليا ، وجمع حوله جمعا كبيرا من الساخطين ، وسار بهم الى روما ودخل المدينة هو ومن معه ممن يحترفون السلب والنهب ، وظل خمسة ايام وخمس ليال يعمل القتل فى اعدائه من حزب مجلس الشيوخ ، ثم افلح فى ان ينتخب قنصلا ، ولكنه مات على اثر ذلك فى الاضطراب الذى حدث فى الاسبوعين الاخيرين .

واعقب ذلك فترة اضطراب دامت اربع سنوات ، وبعد ذلك اعلن **سـلا** ـ وكان قد اوقع الهزيمة بمتريداتس ـ انه اتخذ الاهبة للعودة الى روما للاخذ ببعض ثاراته القديمة ، ولقد بر بوعده ، اذ ظلت جنوده اسابيع منصرفة الى تقتيل المواطنين المتهمين بميولهم الديمقراطية . وفى يوم من الايام القى القبض على مواطن شاب شوهد فى صحبة عمه ماريوس ، وكاد يشنق لولا ان شفع فيه لحداثة سنه .. ذلك الشاب هو يوليوس قيصر الذى سوف نلتقى به فى الصفحات التالية .

www.ibtesama.com/vb/

اما سـلا فقد غدا دكتاتورا ، اى الحاكم المطلق على جميع الاراضى الرومانية . واستمر حكمه اربع سنوات ، ثم مات فى نهايتها فى فراشه حتف انفه بعد ان قضى آخر سنى حياته يعنى فى رفق بزراعة الكرنب ، كما كان شأن كثير من الرومان الذين قضوا حياتهم فى قتل بنى وطنهم .

ولم تتحسن الامور بعد وفاة سلا ، بل ازدادت سوءا ، فقد سار قائد آخر يدعى **جنايوس بومبيوس** ـ وكان صديقا حميما لسلا ـ نحو الشرق لاستئناف القتال مع **متريداتس** الذى كان لا ينفك عن الشغب ، واجلى هذا العدو القوى الباس العالى الهمة الى الجبال حيث تناول السم وقتل نفسه لانه كان يعلم المصير الذى كان ينتظره اذا وقع اسيرا فى ايدى الرومان . واعاد **بومبيوس** سلطان روما على سوريا ، وهدم بيت المقدس ، واخذ يتجول فى آسيا الصغرى محاولا احياء سنة الاسكندر الاكبر ، ثم عاد اخيرا عام ٦٢ قبل الميلاد الى روما ومعه اثنتا عشرة سفينة محملة بالملوك والامراء والقواد الذين هزمهم ، وقد اجبروا جميعا على السير فى موكب الظفر لهذا الرومانى الطائر الصيت الذى افاء على مدينته من الغنائم مايفوق حلم كل محب للمال والثروة .

وكان من المتعين فى ذلك الوقت ان يكون على راس الحكومة الرومانية رجل قوى الشكيمة ، وكانت هذه الحكومة قبل ذلك بشهور قليلة قد وقعت فى يد ارستقراطى رومانى تافه الشأن يدعى **كاتلين** ، قامر باموال جميعا ، وامل ان يسترد خسارته بالقيام باعمال السلب على نطاق صغير . غير ان شيشرون ـ وهو محام خبير بالنفوس ـ كشف عن خطته ، وحلر مجلس الشيوخ منه ، واجبر **كاتلين** على الفرار . ولكن كان هناك شاب آخر تراوده الاطماع نفسها . بيد انه لم يكن ثمة متسع من الوقت ينفق فى لغو الحديث ، فما كان من بومبيوس الا ان الف حكومة ثلاثية تولت امور البلاد . واصبح رئيسا لهذه الحكومة الناشطة .

وكان **جايوس يوليوس قيصر** الذى ذاع صيته فى حكم اسبانيا يلى **بومبيوس** فى المرتبة ، اما ثالث الثلاثة فكان رجلا مستخفا بالامور يدعى **كراسوس** لم ينتخب الا لثرائه الفاحش ، فقد كان مقاولا ناجحا يورد للجيش مؤنته ، وسرعان ماخرج على راس حملة لقتال الفرثيين لقى فيها حتفه .

وكان **يوليوس قيصر** اقدر هؤلاء الثلاثة ، وقد رأى انه فى حاجة الى احراز نصر آخر يزيد من مجده

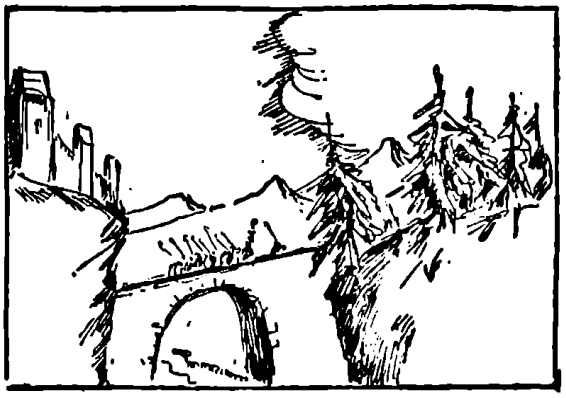

قيصر يسير قربا

الحربى ، ويجعله بطلا شعبيا . فعبر جبال الالب ، وفتح ذلك الجزء من العالم الذى يعرف اليوم باسم فرنسا ، ثم اقام جسرا خشبيا متينا على نهر الرين ، واغار على بلاد التيوتون المتبربرين . واخيرا ركب البحر وذهب الى انجلترا ، ولا يعلم احد الا الله المصير الذى كان خليقا بأن ينتهى اليه لو لم يضطر الى العودة الى ايطاليا .. فقد بلغ قيصر انباء اقامة بومبيوس دكتاتورا مدى الحياة ، وكان معنى ذلك بطبيعة الحال ان قيصر سيسلك فى قائمة القواد المتقاعدين ، فلم يرق له ذلك ، وتذكر انه بدأ حياته مناصرا لماريوس . لذلك عزم يوليوس قيصر على أن يلقى على مجلس الشيوخ وعلى دكتاتورهم درسا جديدا ، فعبر نهر روبيكون الذى يفصل الالب الفرنسى عن ايطاليا ، فقوبل فى كل مكان بالترحاب ، وعدوه حبيب الشعب ، ودخل مدينة روما فى غير مشقة ، وفر بومبيوس الى بلاد الاغريق ، فتبعه قيصر وهزم اتباعه بالقرب من **فرسالوس** . وعبر بومبيوس البحر المتوسط وهبط مصر ، وما ان ارسى حتى قتل بأمر من بطلميوس ملك مصر الشاب .

ووصل يوليوس قيصر الى مصر بعد ذلك بايام قليلة ، فالقى نفسه قد وقع فى كمين ، اذ هاجمه المصريون والحامية الرومانية التى ظلت على ولائها لبومبيوس . غير ان الحظ واتاه وتمكن من اضرام النار فى الاسطول المصرى . وقد حدث ان تساقط شرر السفن المحترقة على سقف مكتبة الاسكندرية الشهيرة (وكانت مشرفة على البحر على مسافة قليلة من مكان هذه الموقعة البحرية) فاشتعلت فيها النيران واحترقت ، ثم هجم بعد ذلك على الجيش المصرى ، واغرق الجند فى النيل ومعهم بطلميوس ، وانشأ حكومة جديدة

www.ibtesama.com/vb/

على راسها كليوبترة اخت بطليموس . وبلغ قيصر بعد ذلك ان فرناسيز ابن متريداتس ووريثه قد آثر القتال ، فسار قيصرنحو الشمال وهزم فرناسيز فى وقعة دامت خمسة ايام ، وارسل اخبار انتصاراته الى روما فى جملته المشهورة (veni, vidi, vici) وهى جملة لاتينية معناها : « اتيت ، ورايت ، وغزوت » . وعاد من بعدها الى مصر حيث وقع اسير غرام كليوباتره التى تبعته الى روما ليراس الحكومة هناك عام ٤٦ قبل الميلاد . وقد سار قيصر على راس ما لا يقل عن اربعة مواكب من مواكب النصر كان لها الظفر فى اربع حروب مختلفة .

وقام قيصر بين اعضاء مجلس الشيوخ يقص عليهم قصة انتصاراته ، فما كان من المجلس الا ان اعترف بفضله واقامه دكتاتورا مدة عشرة اعوام ، فكان ذلك نذير شؤم ونحس . وقام الدكتاتورالجديد بمحاولات خطيرة لاصلاح الحكومة الرومانية ، فاتاح للمواطن الحر ان يصبح عضوا فى مجلس الشيوخ ، ومنح حقوق المواطن لجماعات تعيش بعيدا عن روما ، كما حدث فى الايام الاولى من التاريخ الرومانى . وسمح للاجانب ان يكون لهم بعض الراى فى الحكومة ، واصلح الادارة فى الولايات البعيدة ، وكانت بعض اسر الاشراف قد اصبحت تعدها من املاكها الخاصة . وصفوة القول ان قيصر قام باعمال كثيرة لصالح اغلبية الشعب ، ولكنها احنقت عليهاقوىالشخصيات فى الامبراطورية ، فكان ان دبر خمسون شابا من الطبقة الارستقراطية مؤامرة لانقاذ الجمهورية .

ففى الخامس عشر من شهر مارس ــ وفقا للتقويم الجديد الذى نقله قيصر من مصر الى روما ــ اغتيل يوليوس قيصر وهو يدخل مجلس الشيوخ . وهكذا خلت روما مرة اخرى من سيد يلى امورها .

وكان ثمة رجلان حاولا ان يسيرا على نهج قيصر الى المجد : احدهما انطونيوس كاتب سره السابق ، والثانى اكتافيوس سبط قيصر ووريثه . وظل اكتافيوس فى روما ، اما انطونيوس فقد ذهب الى مصر ليكون بالقرب من كليوباتره ، وقدوقع فى غرامها كما كانت عادة القواد الرومان على ما يظهر . . .

نشب القتال بين الرجلين ، وأوقع اكتافيوس الهزيمة بانطونيوس فى وقعة اكتيوم ، فقتلانطونيوس نفسه وخلف كليوبتره بمفردها تواجه العدو ، فحاولت جهدها ان توقع اكتافيوس فى غرامها ، ولكنها لم تفلح فى اغراء هذا الارستقراطى الشديد الكبرياء ، فقتلت نفسها . وبذلك غدت مصر ولاية رومانية .

اما اكتافيوس ، فكان شابا عظيم الحكمة لم يقع فى الخطا الذى وقع فيه عمه المشهور . فقد عرف كيف ياسر الناس بسحر الكلام ، وكان متواضعا اشد التواضع فى مطالبه عندما رجع الى روما . ولم يرغب اكتافيوس فى ان يصبح دكتاتورا ، بل قنع بلقب « المحترم » . ولكن عندما خاطبهمجلس الشيوخ بعد ذلك بسنوات قلائل بلقب اغسطس ــ اى صاحب المجد ــ لم يعترض . وبعد ذلك ببضع سنوات اخذ الناس فى الطرقاتيطلقون عليه اسم قيصر ، اما الجند فقد اعتادوا ان يروا فيه القائد الاعلى ، ويشيرونإليه بقولهم الزعيم والامبراطور . وعلى هذا المنوال غدت الجمهورية امبراطورية ، ولكن الرجل الرومانىالعادى قلما كان يدرى حقيقة هذه الكلمة .

وفى العام الرابع عشر من الميلاد توطد مركز اكتافيوس بوصفه الحاكم المطلق ، حتى اصبحت له قداسة لم تعهد فى غير الآلهة من قبل ، وغدا خلفاؤه اباطرة بحق ، اى حكام اعظم امبراطورية شهدها العالم .

والواقع ان المواطن الرومانى العادى كان قد ضاق بالفوضى والاضطراب وبرم بهما ، فلم يكن يعبابشخص من يحكمه مادام يكفل له الحياة فى امن لايزعجه الشغب الذى كان يسود الطرقات دائما ابدا . ولقد افاء اكتافيوس على شعبه السلام اربعين سنة لم تساوره فيها رغبة فى بسط رقعة املاكه . وفى العام التاسع للميلاد فكر فى غزو البرارى الشمالية التى يسكنهاالتيوتون ، ولكن فاروس قائده قتلهوورجاله فى احراج تيوتوبورج ، فلم يحاول الرومان بعد ذلك تمدين هذا الشعب المتوحش .

وقد ركز الرومان جهودهم فىتلك المشكلةالمستفحلة الا وهى الاصلاح الداخلى . ولكن اوان الاصلاح المجدى كان قد فات ، لأن الثورات والحروب الخارجية التى استمرت قرنين منالزمان ، كانتقداطاحت برؤوس خيرة رجال الأجيال الناشئة مرارا وتكرارا ، كما انزلت الخراب بطبقة الفلاحين الاحرار ، وادخلتنظام العمل الذى يقوم على الرقيق ، وهو النظام الذى لم يكن لأى رجل حر امل بان ينافس فيه العبيد ، واحالت المدن الى خلايا يسكنها جمهور من الفلاحين الآبقين المعدمين المعتلين ، واقامت طائفة كبرى من صغار الموظفين ذوى الرواتب الضئيلة اضطروا للارتشاء فى سبيل الحصول على الطعام واللباس لهم

www.ibtesama.com/vb/

ولن يعولونهم . والأسوأ من هذا كله أن الشعب قد اعتاد اعمال العنف وسفك الدماء والتلهى بالملاهى البربرية التى تقوم على تعذيب الغير وايلامهم .

وكانت الدولةالرومانية فى ظاهر الأمر ، خلال القرن الأول للميلاد ، كياناسياسياعظيما بلغ من ضخامتهأن امبراطورية الاسكندر اصبحت ولاية من ولاياته الصغرى . وكان يعيش فى ظل هذا المجد ملايين وملايين من الفقراءالمرهقين يعملونكالنمل فى بناء عش تحت حجر ثقيل .. اذ كانوا يعملون لغيرهم ، ويشاركون الحيوان وطعامه ، ويعيشون فى الحظائر ، ويموتون ميتة الكلاب .

كان ذلك بعد تاسيس مدينة روما بسبعمائةوثلاث وخمسين سنة ، اذ كان **جايوس يوليوس قيصر اكتافيانوس اغسطس** يعيش فى قصره على تل بالاتين منهمكا فى تدبير امبراطوريته ، فى حين كانت مريم زوجة يوسف النجار تعيش فى قرية صغيرة بعيدة من قرى سوريا ترعى طفلها الصغير الذى ولدته فى حظيرة من حظائر بيت لحم .

يالهذا العالم العجيب ! فقد شاء القدر ان يدخل القيصر والحظيرة فى صراع سافر ، ولما يمض على ذلك الا وقت قصير . ثم كتب النصر للحظيرة على القصر .

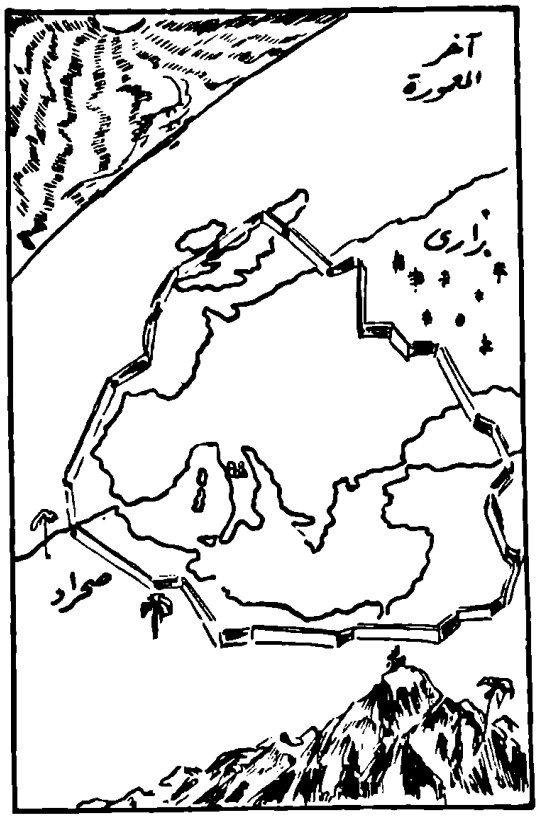

الامبراطورية الرومانية العظمى

يسوع الناصرى

قصة يشوع الناصرى ...
الذى سماه الاغريق يسوع

فى خريف عام ٨١٥ من تقويم المدينة (لعله يوافق عام ٦٢ من التاريخ الميلادى) كتب طبيب رومانى يدعى **اسقليبيوس كولتيلوس** الى ابن اخيه ، وكان فى صحبة الجيش الرومانى بسوريا مايلى :

ابن اخى العزيز

دعيت منذ ايام قليلة لعيادة رجل مريض يدعى بولس ، والظاهر انه كان مواطنا رومانيا انحدر من ابوين يهوديين ، وكان مثقفا ثقافةطيبة لطيفالمعشر . ولقد علمت انه جاءروما لقضية له مستانفة منإحدى محاكمنا الاقليمية فى قيصرية او فى غيرها من مدن شرقى البحر المتوسط . وقيل لى ان هذا الرجل فظ عنيف يتفوه بعبارات ضدالشعب وضد القانون ، ولكنى وجدته على جانب كبير من الذكاء والأمانة .

وقد اخبرنى صديق لى اعتاد أن يصحب الجيوش الرومانية فى آسيا انه قد سمع شيئا من هذا الرجل وهو فى مدينة **افسوس** ، حيث كان يعظ الناس ويدعوهم الى اله جديد غريب . وقد سألت هذا المريض عنمبلغ ذلك منالصحة ، وهل كانذلكالرجل يحرضالشعبعلىالانتقاض علىامبراطورنا المحبوب ؟ فاجابنى بولس أن المملكة التى تحدث عنها ليست فى هذه الدنيا ، ثم اضاف الى ذلك كثيرا من العبارات لم افهمها ، ولعله كان يهذى من الحمى .

لقد كان لشخصية هذا الرجل اثر عظيم فى نفسى ، وقد اسفت عندما سمعت انه قتل بعد ذلك بايام قلائل عندما كان فى طريق **اوستيا** . . ولذلك فانى اكتب لك هذه الرسالة كى تستقصى لى ، عندما تزور بيت المقدس مرةاخرى ، طرفامن اخبارصديقى **بولس** واخبار النبى اليهودى العجيب الذى كان استاذه على

www.ibtesama.com/vb/

مايظهر . ان عبيدنا قد اخذ بالهم ينشغل بذلك الذى يدعى المسيح ، كما ان القليلين منهم الذين تحدثوا صراحة عن هذه المملكة الجديدة (كيفما كان امرها) كان جزاؤهم الصلب . واني لأرغب في معرفة حقيقة هذه الشائعات كلها » .

عمك المحب
كولتيلوس

الاراضى المقدسة

وبعد ذلك بأسابيع ستة أجاب **جلاديوس انسا** ابن أخيه ، وكان ضابطا بفرقة المشاة الغالية السابعة بما يلى :

عمى العزيز

تلقيت خطابك ، وعملت بارشاداتك ، فان فرقتنا قد أرسلت الى بيت المقدس منذ أسبوعين لقيام عدة ثورات فى تلك المدينة خلال القرن الماضى ، بحيث لم يعد بها شيء كثير من سمات المدينة القديمة . وقد مضى علينا الآن فى بيت المقدس شهر ، وسوف نتابع سيرنا هذا الى بطره حيث قامت بعض القبائل العربية ببعض الشغب ، وسوف أجيبك هذه الليلة عما سألتنى عنه ، ولكن أرجو الا تتوقع منى تقريرا ضافيا :

لقد تحدثت مع بعض المسنين من اهل هذه المدينة ولكن لم يستطع أن يزودنى بمعلومات دقيقة الا عدد قليل . ومنذ بضعة أيام وفد على المعسكر تاجر جوال اشتريت منه بعض الزيتون وسألته : هل اتفق له أن سمع عن المسيح المشهور الذى قتل وهو شاب ؟ فقال : انه يذكر ذلك جيدا ، لأن والده قد أخذه الى جلجثة (وهو تل خارج المدينة) ليشهد صلب المسيح وليريه ماحل بالمناهضين لقوانين شعب **يهوذا** . وقد أعطانى هذا التاجر عنوان شخص يدعى يوسف كان صديقا شخصيا للمسيح ، وقال انه يحسن بى أن اذهب لمشاهدته اذا شئت مزيدا من التفصيل . وقد ذهبت هذا الصباح لزيارة يوسف ، فاذا به رجل طاعن فى السن يشتغل بصيد السمك من احدى البحيرات الهذية ، وكانت ذاكرته قوية . وقد استطعت ان استخلص منه آخر الأمر رواية بينة الى حد ما عن الحوادث التي وقعت فى الأيام المضطربة التى سبقت مولدى .

كان يجلس على العرش امبراطورنا المظيم الأمجد **طيبريوس** . وكان على أرض الميعاد وسمرية ضابط يدعى **بيلاطس البنطى** . ولم يكن يوسف يعرف الشيء الكثير عن **بيلاطس** ، على انه كان قيما يظهر ضابطا مستقيما خلف وراءه سمعة طيبة عندما كان واليا على هذا الاقليم . وفى عام ٧٨٣ أو ٧٨٤ (ولا يذكر يوسف أيهما) استدعى بيلاطس الى بيت المقدس لشغب قام فيها .

فقد قيل ان شابا بالناصرة ، ابوه نجار ، اخذ يدبر الانقضاض على الحكومة الرومانية . ومن العجيب ان ضباط مخابراتنا ، الذين كالوا لايفوتهم شيء على العادة ، لم يكونوا قد سمعوا شيئا عن ذلك .. فلما تحروا الأمر بعثوا يقولون ان النجار مواطن صالح لاغبار عليه ، وان لا وجه لمؤاخذته .

ولكن زعماء اليهود الجامدين انزعجوا انزعاجا على حد قول يوسف .. فقد كانوا يكرهون اشد الكره ان يروا هذا الناصرى وقد ذاع صيته بين جماهير اليهود الفقراء .

لذلك اخبروا بيلاطس أن هذا الناصرى جهر بأن اى يونانى أو رومانى ، بل اى فلسطينى ، يسعى الى العيش عيشة مستقيمة شريفة ، يكون فى مرتبة اليهودي الذى ينفق ايامه فى دراسة شرائع موسى القديمة سواء بسواء . ويبدو ان بيلاطس لم يتأثر بهذه الحجة ، فلما هددت الجماهير المجتمعة حول المعبد بالاقتصاص من عيسى وقتل جميع اتباعه — قرر ان يحتجز النجار ابقاء على حياته .

والظاهر ان بيلاطس لم يدرك المعنى الحقيقى لطبيعة هذا النزاع .. ذلك انه كان كلما سأل الاحبار اليهود ان يفسروا له مظالمهم ، صاحوا به « هرطقة وخيانة » ، ثم تعتريهم ثورة جامحة . واخبرنى يوسف أن بيلاطس انتهى به الأمر الى ان ارسل فى طلب يشوع (وهو اسم الناصرى ، اما الاغريق الذين كانوا يعيشون فى تلك البقعة من العالم فكانوا يطلقون عليه دائما اسم يسوع) ليدرس حالته بنفسه . فتحدث اليه ساعات عدة ، وساله عن التعاليم الخطرة التى قيل انه كان يدعو اليها عند شواطىء بحر الجليل . ولكن عيسى

www.ibtesama.com/vb/

أجابه بانه لم يتحدث قط فى السياسة ، فهو لايهتم باجساد الناس قدر اهتمامه بارواحهم ، وكل ماكان يقصد اليه هو ان ينظر الناس جميعا الى جيرانهم نظرتهم الى اخواتهم ، وان يحبوا الله الواحد الاحد الذى هو ابو المخلوقات جميعا .

غير ان بيلاطس — وكان على مايظهر واسع العلم بعقائد الرواقية وآراء غيرهم من الفلاسفة الاغريق — لم يجد فى اقوال عيسى اى شىء يزيغ عقائد الناس .

وقد قال لى محدثى أن بيلاطس قام بمحاولة اخرى للابقاء على حياة هذا النبى الرءوف فارجأ قتله . وكان احبار اليهود فى الوقت نفسه قد اثاروا ثائرة الشعب اليهودى، فجن من الغضب، وزاد الشغب فى بيت المقدس عن ذى قبل ، ولم يكن هناك من الجند الرومان من يمكن الاستعانة به الا القليل ، وارسلت الانباء الى السلطات الرومانية فى قيصرية منبئة بان بيلاطس قد وقع فريسة لتعاليم الناصرى ، ورفعت العرائض من كل انحاء المدينة بعزل بيلاطس لانه عدو الامبراطور . وانتم تعلمون ان لدى حكام الاقاليم تعاليم صارمة تقضى بان يتحاشوا اى اصطدام سافر بينهم وبين رعاياهم الأجانب . ورأى بيلاطس آخر الامر ان يجنب البلاد شر الفتنة ، فضحى بسجينه يشوع الذى سلك مسلكا ينطوى على اعتزاز عظيم بالكرامة، وعفا عن كل الذين يمقتونه .. فصلب وسط تهليل الجماهير وضحك الرعاع فى بيت المقدس .

ذلك ما اخبرنى به يوسف التاجر ودموعه تجرى على وجناته المتغضنة فاعطيته قطعة ذهبية وتركته ، ولكنه ابى ان ياخذها ! وطلب الى ان اقدمها لمن هو افقر منه . وقد سألته بعض اسئلة عن صديقك بولس ، فقد كان يعرفه معرفة قليلة ، ويظهر انه كان صانع خيام ترك مهنته لكى يبشر بكلمات اله محب غفور يختلف اختلافا بينا عن يهوه الذى كان احبار اليهود لاينفكون يحدثوننا عنه . والظاهر ان بولس قام بعد ذلك برحلات كثيرة فى آسيا الصغرى وبلاد اليونان ذاكرا للعبيد انهم جميعا ابناء اب واحد ودود ، وان السعادة تنتظرهم جميعا : فقيرهم وغنيهم ، ممن ساروا على النهج القويم فى حياتهم ، واحسنوا الى البؤساء والمعذبين .

وانى لآمل ان اكون قد اجبت على اسئلتك بما تحب . ويبدو لى انه ليس فى هذه القصة كلها مايلحق بى ضررا بليغا من حيث سلامة الدولة وامنها . ولكننا نحن الرومان لم نستطع قط فهم الشعوب التى تقطن هذا الاقليم . وانى لآسف لقتلهم صديقك بولس ، وانى لمشوق الى العودة الى الوطن .

وانى مازلت دائما ابن اخيك المطيع » .

جلاديوس انسا

سقوط روما

غروب شمس روما

تذكر الكتب المدرسية فى التاريخ القديم ان روما سقطت عام ٤٧٦ ميلادية ، لان هذه السنة هى التى اطيح فيها بعرش آخر اباطرتها . على أن روما التى لم تبن فى يوم واحد، قد استغرق سقوطها وقتا طويلا . فقد جاء هذا الانحلال بطيئا غاية البطء ، متدرجا غاية التدرج ، حتى ان معظم الرومان لم يدركوا كيف اخذ عالمهم القديم يسير الى هذه النهاية . كانوا يشكون من عدم استقرار الأمور فى زمانهم ، ويتذمرون من ارتفاع أسعار الغذاء وانخفاض اجور العمال ، كما كانوا يصبون لعناتهم على المستغلين النهازين للفرص الذين احتكروا الحبوب والصوف والعملة الذهبية . وكانوا يثورون من حين الى حين فى وجه حاكم مغتصب لم يكن لهم بمثله عهد . غير ان غالبية الشعب الرومانى كانوا خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد يأكلون ويشربون على قدر ما أتيح لهم من مال ، ويكرهون ويحبون بحسب الطبائع التى فطروا عليها ، ويذهبون الى المسرح عندما يكون هناك مشهد للمصارعة يؤمه الناس بلا اجر ، او يتضورون جوعا فى الأحياء المكتظة القذرة فى المدن الكبيرة ، لايعلمون شيئا من امر امبراطوريتهم التى كانت قد شاخت وكتب عليها الفناء .

وكيف كان يتيسر لهم ان يدركوا مايتهددهم من خطر وروما تحسن التظاهر بما تصيبه من مجد فى الخارج ؟

www.ibtesama.com/vb/

روما

لقد كان ثمة طرق ممهدة تربط اقاليم الامبراطورية المختلفة بعضها ببعض ، وشرطة امبراطورية تقوم بواجبها ولا تأخذها أية رحمة بقطاع الطرق واهل السلب والنهب . وكانت حدودها محروسة حراسة جيدة تدفع القبائل الهمجية التى كانت فيما يظهر آخذة فى احتلال البرارى فى شمالى اوربا . وكان العالم كله يؤدى الجزية لمدينة روما العظيمة . وقام حفنة من الرجال الاكفاء يعملون ليل نهار للقضاء على اخطاء الماضى ، ويمهدون السبيل للعودة الى الاحوال السعيدة التى كانت سائدة ايام الجمهورية الأولى .

غير أن الاسباب الخفية لاضمحلال الدولة ، وهى الأسباب التى تحدثنا عنها فى فصل سابق ، لم تكن قد زالت بعد ، ومن ثم عز الاصلاح .

لقد كانت روما قبل كل شىء مدينة لها حكومتها الخاصة ، كما كان الحال فى اثينا وكورنثة ايام هلاس الاولى ، وكان فى استطاعتها بسط سلطانها على شبه جزيرة ايطاليا . أما فرض سيادتها على العالم اجمع فامر سياسى لايمكن تحقيقه ، وهو ان تحقق فلا يمكن أن يدوم . فقد قتل زهرة شبابها فى الحروب التى لم يخمدلها أوار ، وحل الخراب بفلاحيها لطول تغيبهم فى ميادين القتال ، وللضرائب التى فرضت عليهم ، فاصبحوا فقراء يحترفون الشحاذة او اجراء لاصحاب الاراضى الأغنياء الذين قدموا اليهم المأوى والمطعم لقاء خدمتهم لهم ، واستعبدوهم فجعلوهم رقيق أرض .. وهم أولئك البائسون الذين لاتنطبق عليهم صفة الرقيق ولا صفة الأحرار ، والذين اصبحوا جزءا من الارض التى يشتغلون فيها ، شانهم شان الأبقار والأشجار سواء بسواء .

وقد أصبحت الامبراطورية ، بل الدولة هى كل شىء ، وتضاءل شان المواطن العادى حتى اصبح لايساوى شيئا . اما العبيد فقد استمعوا الى اقوال القديس بولس ، وآمنوا بالرسالة التى جاء بها نجار الناصرة المتواضع : فلم يثوروا فى وجه اسيادهم ، بل عملوا بما لقنوه من الاخلاد الى المسالمة ، فاطاعوا حكامهم ، ولكنهم كانوا قد فقدوا مع ذلك كل اهتمام بأمور هذا العالم ، فقد ثبت لهم انه مقام بؤس وشقاء . وكانوا مستعدين للقتال ببلاء حسن املا فى دخول مملكة السماء ، ولكنهم كانوا عازفين عن الاشتباك فى حروب تشن تحقيقا لمصلحة عاهل طموح ينزع الى المجد بشن الغارات على الغير كالفرثيين أو النوميديين او الاسكتلنديين .

وهكذا ازدادت الأمور سوءا على سوء ، وانطوت قرون ، وسار الاباطرة الأولون على شريعة الزعامة التى اسلست لزعماء القبائل الأقدمين قيادة رعاياهم . اما اباطرة القرنين الثانى والثالث فقد كانوا اباطرة قتال : صناعتهم الحرب ، يدينون بمناصبهم لحراسهم « البريتوريان » . وكانوا يقتلون بعضهم بعضا فى سرعة عجيبة ، ويشقون طريقهم الى العرش بالاغتيال ، ويطاح بعرشهم بالاغتيال ، بمجرد أن يبلغ خلفاؤهم درجة من الثراء تتيح لهم رشوة الحراس للقيام بثورة جديدة .

وكان البرابرة خلال ذلك يطرقون ابواب الحدود الشمالية ، ولم يعد لدى الدولة الرومانية جيوش وطنية لصد تقدمهم ، فكانت تستأجر الجنود المرتزقة لقتال هؤلاء المغيرين . ويتفق أن يكون هؤلاء الجنود المرتزقة من اورومة العدو المهاجم ، ومن ثم كانوا أحرياء بالتسامح والتهاون مع العدو اذا اشتبكوا معه فى قتال . وانتهى الأمر بالسماح لبعض القبائل بالاقامة داخل حدود الامبراطورية على سبيل التجربة ثم تبعهم غيرهم . وسرعان ما اشتكت هذه القبائل مر الشكوى من طمع جباة الضرائب من الرومان الذين كانوا يستنفدون اموالهم ، ولكن شكواهم لم تجد اذنا مصغية ، فساروا الى روما وصاحوا مطالبين باجابة مطالبهم .

واصبحت روما من ثم مكانا غير ملائم لسكنى

www.ibtesama.com/vb/

الامبراطور ، فرمى الامبراطور قسطنطين (حكم من عام ٣٢٣ الى ٣٣٧ م) ببصره الى قصبة جديدة للامبراطورية ، فاختار **بيزنطة** مفتاح التجارة بين اوربا وآسيا ، وقد اطلق على هذه المدينة اسم القسطنطينية . ومن ذلك الوقت انتقل بلاط الامبراطور الى الشرق . ولما مات قسطنطين راى ولداه ان حسن ادارة الامبراطورية يقتضيهما اقتسام الامبراطورية الرومانية فيما بينهما : فعاش اكبرهما في روما وحكم الغرب ، واقام الاصغر في القسطنطينية وحكم الشرق .

ثم جاء القرن الرابع فحلت غزوات الهون المروعة، وهم اولئك الفرسان الاسيويون الذين كانت تكتنفهم الاسرار ، والذين استقروا فى شمالى اوربا اكثر من قرلين ، واستمروا يسفكون الدماء الى ان ادركتهم الهزيمة بالقرب من **شالون سيرمارن** بفرنسا عام ٤٥١ . وما ان بلغ الهون نهر الدانوب حتى اخذوا يضيقون الخناق على القوط الذين اضطروا بدورهم الى الاغارة على روما للنجاة بانفسهم . وحاول الامبراطور **فالنس** صدهم ، ولكنه قتل بالقرب من ادرنة عام ٣٧٨ م .

وبعد ذلك باثنتين وعشرين سنة ، سار هؤلاء القوط الغربيون بقيادة ملكهم **الاريك** نحو الغرب ، وانقضوا على روما . ولم يعمد هؤلاء الى سلب المدينة ، ولم يخربوا الاقصورا قليلة فيها . ثم جاء من بعدهم الوندال ، فكانوا اقل من هؤلاء احتراما لتقاليد هذه المدينة المقدسة ، واعقبهم البرغنديون ، ثم القوط الشرقيون ، ثم الالمان ، ثم الفرنجة .. فلم تقف هذه الغزوات عند حد . ووقعت روما آخر الامر تحت رحمة كل افاق طموح يستطيع ان يجمع حوله عددا من الاتباع .

وفى عام ٤٠٢ م فر الامبراطور الى رافنا ، وهى ميناء حصين ، وهناك تمكن **ادوكر** عام ٤٧٥ — وهو قائد فرقة من المرتزقة الالمان رغب فى توزيع مزارع ايطاليا فيما بينهم — من ان يزيح الامبراطور **رومولوس اغسطولوس** — وهو آخر اباطرة القسم الغربى — عن العرش فى لين وحزم ، ونادى بنفسه حاكما على روما ، وبايعه الامبراطور الشرقى الذى كان منصرفا كل الانصراف الى شئونه الخاصة . وظل ادوكر عشرة اعوام يحكم ما تبقى من اقاليم القسم الغربى من الامبراطورية .

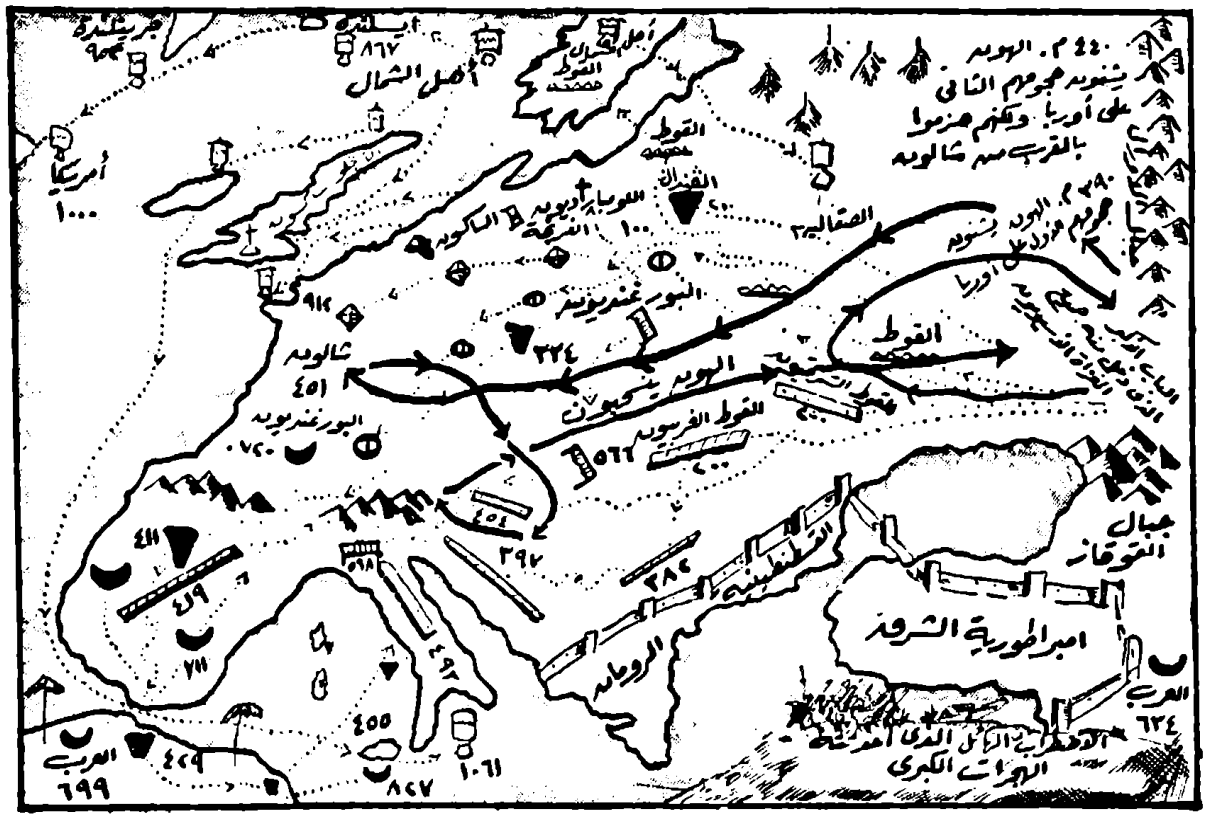

غزوات البرابرة

www.ibtesama.com/vb/

وبعد ذلك بسنوات قلائل ، اغار **تيودوريك** ملك القوط الشرقيين على دولة ادوكر التى كونها حديثا ، واستولى على رافنا ، وقتل ادوكر وهو على مائدة غدائه ، واقام دولة قوطية وسط اطلال القسم الغربى من الامبراطورية . ولم تعمر هذه الدولة كثيرا ، اذ تجمع فى القرن السادس خليط من اللومبارديين والسكسون والصقالبة والآوار ، واغاروا على ايطاليا، وقضوا على هذه الدولة القوطية ، وانشاوا دولة جديدة جعلوا عاصمتها **بافيا** .

حينما نقل البرابرة الى مدينة رومانية

واصبحت مدينة روما الامبراطورية آخر الامر نسيا منسيا يجثم عليها الخمود والقنوط ، اذ نهبت قصورها القديمة مرارا وتكرارا ، وحرقت مدارسها ، وهلك المدرسون جوعا ، وطرد الاثرياء من بيوتهم الخلاوية ، وسكنها برابرة شعث خباث الرائحة ، واهملت الطرق ، وتهدمت الجسور القديمة ، وتوقفت التجارة . واصبحت الحضارة مهددة بالزوال فى الجزء الغربى من القارة ، وهى تلكم الحضارة التى كانت ثمرة عمل شاق انفق المصريون والبابليون واليونان والرومان فى اقامته آلافا من السنين ، وسما بالانسان الى اوج فاق اعز احلام اسلافه الاقدمين .

صحيح ان القسطنطينية ظلت فى اقصى الشرق مركز امبراطورية دامت الف سنة اخرى ، الا انها كانت ابعد من ان تكون جزءا من القارة الاوربية ، ذلك ان مصالحها كانت محصورة فى الشرق ، كما انها اخذت تنسى اصلها الغربى . ثم حلت اللغة اليونانية محل اللغة الرومانية شيئا فشيئا ، ونبذت الابجدية الرومانية، وكتب القانون الرومانى بالحروف اليونانية ، وقام بتفسيره نفر من القضاة اليونان . وغدا الامبراطور اسيويا مستبدا عبده رعاياه ، كما عبد المصريون ملوك طيبة اشباه الآلهة فى وادى النيل قبل ذلك بثلاثة آلاف سنة . ولما تطلع مبشرو الكنيسة البيزنطية الى ميادين جديدة لنشاطهم ، اتجهوا صوب المشرق ، وحملوا معهم حضارة بيزنطة الى برارى روسيا المترامية الاطراف .

اما الغرب ، فقد ترك تحت رحمة البرابرة ، وظل القتل والحرب والتحريق والسلب والنهب هو الغالب اثنى عشر قرنا ، ولكن شيئا واحدا دون غيره حفظ اوربا من الدمار التام والارتداد بالانسان الى حياة الكهوف والضوارى ، وهذا الشىء هو الكنيسة ، اى اولئك الجماعة من الرجال والنساء المستضعفين الذين ظلوا عدة قرون يجهرون بانهم انصار المسيح نجار الناصرة ، الذى قتل انقاذا للامبراطورية الرومانية العظيمة من قيام الفتن والقلاقل فى مدينة صغيرة تقوم فى مكان ما على الحدود السورية .

قيام الكنيسة

كيف اصبحت روما قصبة العالم المسيحى ؟

كان الرجل الرومانى العادى الفظ الذى عاش فى ظل الامبراطورية لا يحفل الا قليلا بالآلهة العظام التى عبدها اسلافه . كان يذهب الى المعبد مرات قليلة كل عام بحكم العادة فحسب ، وكان يتجمل بالصبر وهو يشاهد الناس يحيون اعيادهم الدينية فى مواكب يحف بها الجلال . ولكنه كان يعد عبادة جوبيتر ومينيرفا ونبتون امرا اقرب الى عبث الاطفال ، او اثرا من آثار الحياة الساذجة التى كان يحياها الرومانى فى ايام الجمهورية الاولى ، وليست مسألة جديرة بدراسة رجل احاط بمؤلفات الرواقيين والابيقوريين وغيرهم من فلاسفة الاغريق .

وهذه النظرة جعلت الرومانى رجلا عظيم التسامح . واصرت الحكومة على ان يظهر افراد الشعب جميعا ـ سواء كانوا من الرومان ، او الاجانب اليونانيين

www.ibtesama.com/vb/

او البابليين او اليهود ـ شيئا من الاحترام لصورة الامبراطور التى كانت معلقة فى كل معبد تقريبا ، ولكن ذلك كان مجرد شعيرة لا تدل على اى معنى متأصل فى النفس . وصفوة القول أن كل فرد كان حرا فى ان يبجل او يحترم او يعبد من الآلهة ما شاء ، ومن ثم امتلأت روما بكل عجيب من ضروب المعابد الصغيرة والهياكل المخصصة لعبادة الآلهة المصرية والافريقية والاسيوية .

ولما وصل جواريو عيسى الاولون الى روما ، واخذوا يدعون الى مذهبهم الجديد الذى ينادى بأن الناس كافة اخوة ، لم يعترض على ذلك احد . فقد اخذ رجل الشارع يتوقف وينصت الى ما يقولون . وكانت روما ، قصبة العوالم ، حافلة على الدوام بالوعاظ المتجولين ، كل يدعو الى اسرار عقيدته . وكان معظم اولئك الذين جعلوا من انفسهم قوامين على الاديان يلجأون الى المحسوسات ، فيعدون اتباع الههم الخاص بالعطايا الثمينة والنعيم المقيم . وسرعان ما لاحظت الجماهير فى الشوارع ان اولئك الذين عرفوا بالمسيحيين (أى اتباع المسيح او الذين مسحوا بالزيت) يتحدثون لغات مختلفة عن ذلك كل الاختلاف . فقد بدا عليهم انهم لم يتأثروا بالثراء الطائل او المناصب الجليلة ، بل مجدوا محاسن الفقر والتواضع والدعة . ولم تكن هذه الفضائل هى الفضائل نفسها التى جعلت روما سيدة العالم . وقد كان من الطريف ان يستمع المرء الى عجيبة تقول للجماهير وهم فى اوج مجدهم ، ان نجاحهم فى هذا العالم الدنيوى قد لا يجلب لهم السعادة الابدية .

ثم ان المبشرين المسيحيين بتلك العجيبة . . . كانوا يقصون القصص المفزعة عن المصير الذى ينتظر اولئك الذين ينتهون عن الاستماع الى كلمات الله الحق . وكان ديدن القوم أن اهتبال الفرص لا يتفق بحال مع دواعى الحكمة . وكانت آلهة الرومان القديمة لا تزال باقية بطبيعة الحال ، ولكن هل كانت من البأس بحيث تستطيع ان تحمى انصارها من سلطان هذا الدين الجديد الذى جاء اوربا من آسيا البعيدة ؟ لقد اخذ الشك يساور نفوس الناس فعادوا الى الاستماع الى المزيد من تفسير هذا الدين الجديد ، واخذوا بعد حين يجتمعون بالرجال والنساء الذين كانوا يبشرون بأقوال المسيح ، فوجدوا انهم يختلفون تمام الاختلاف عما عهدوا فى جمهور الكهنة من الرومان . . فقد كانوا جميعا فقراء معدمين ، رحماء بالعبيد والحيوان : لا يسعون الى الثراء ، ولكنهم ينفقون كل ما يقع فى ايديهم . وقد حمل المثل الذى ضربوه بسيرتهم القائمة على انكار الذات كثيرا من الرومان على التضحية بالدين القديم ، والالتحاق بجماعات النصارى الصغيرة الذين كانوا يجتمعون خفية فى الغرفات الخلفية لبعض البيوت الخاصة او فى جهات ما خارج المدينة ، وهجر الناس المعابد .

واستمرت الحال على ذلك عاما بعد عام ، وتزايد عدد المسيحيين ، واختير القساوسة للسهر على مصالح الكنائس الصغيرة ، واقيم اسقف على راس جميع الجماعات المسيحية فى كل اقليم . وكان بطرس الذى تبع بولس الى روما اول اساقفة هذه المدينة ، فأصبح خلفاؤه بمرور الزمن يعرفون باسم البابوات ، فقد كان يخاطب الواحد منهم بلقب الأب او البابا .

وغدت الكنيسة نظاما له صولة داخل الامبراطورية ، وراقت التعاليم المسيحية فى اعين الذين يئسوا من هذا العالم ، كما اجتذبت عددا كبيرا من الرجال الاقوياء الذين الفوا انفسهم عاجزين عن ان يكون لهم شان فى ظل الحكومة الامبراطورية ، وانسوا من انفسهم القدرة على استخدام مواهبهم فى القيادة بين اتباع المعلم الناصرى المتواضعين .

واضطرت الحكومة اخيرا ان تحتاط لذلك الامر . فقد كانت الامبراطورية الرومانية ـ كما سبق أن بينت ـ متسامحة تسامحا نشأ من عدم المبالاة . . . كانت تبيح لكل فرد ان يعمل على خلاص نفسه بما يحب ، ولكنها كانت تصر على ان تلزم الطوائف المختلفة الهدوء فيما بينها والامن ، وان تمتثل لتلك الحكمة القائلة «عش ودع غيرك يعيش» . غير ان الجماعات المسيحية رفضت أن تسلك سبيل التسامح على اى وجه من الوجوه ، وجهرت بأن الههم هو وحده اله السموات والارض الحق ، اما سائر الالهة فخداعون محتالون . وبدا هذا القول مؤذيا لشعور الطوائف الأخرى ، كما ان رجال الشرطة كانوا يأبون مثل هذه الاقوال ، واصر المسيحيون على موقفهم .

وسرعان مانشأت صعاب اخرى ، اذ ابى المسيحيون مسايرة الشعائر التى تقضى بتبجيل الامبراطور ، كما كانوا يتوارون اذا دعوا الى الانخراط فى الجيش . . فهددهم القضاة الرومان بالعقاب ، ولكن المسيحيين اجابوا بأن هذا العالم التعس ما هو الا معبر الى عالم علوى سعيد ، وانهم اشوق مايكونون الى لقاء الموت فى سبيل تحقيق مبادئهم . وقد تحير الرومان من مسلك هؤلاء المسيحيين ، فكانوا يقتلونهم حينا ويتركونهم احيانا . وحدث خلال السنوات الأولى

www.ibtesama.com/vb/

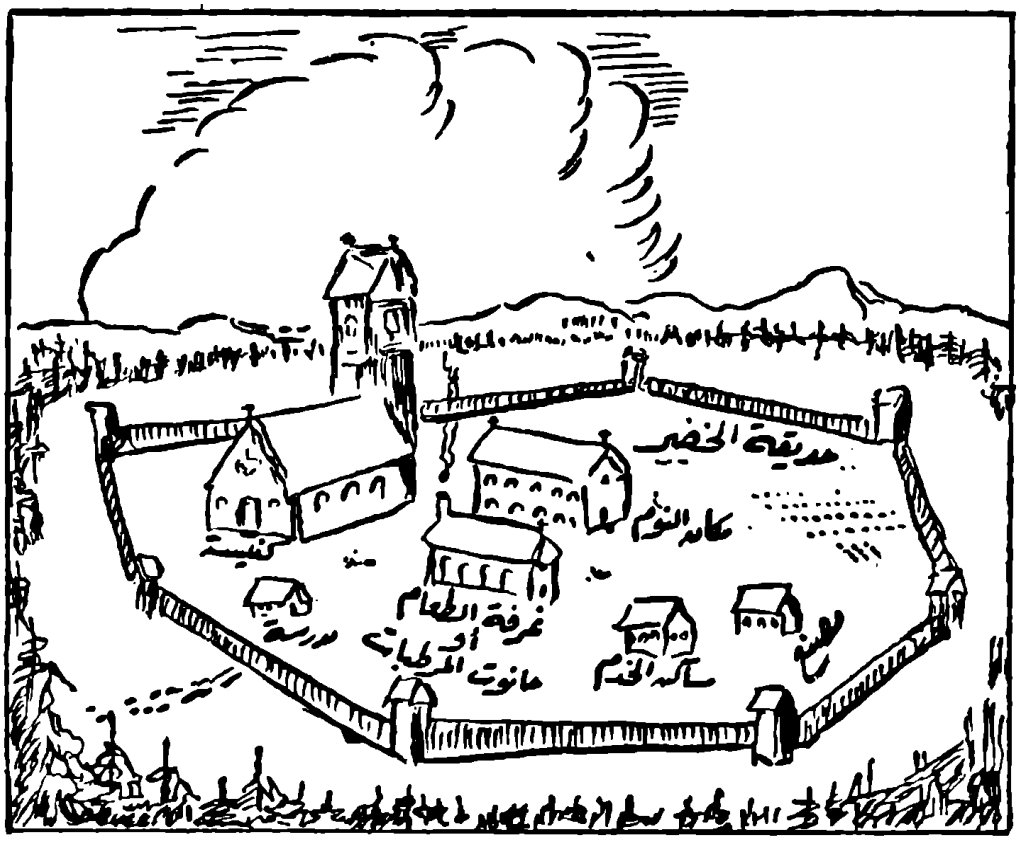

دير

اعتداء من جانب الرعاع على المسيحيين ، ولكن هذا الفعل كان من صنيع ذلك الفريق من العامة الذين كانوا يرمون جيرانهم النصارى الوادعين بكل جريمة يتصورها العقل (فقد رموهم مثلا بذبح الاطفال واكلهم ، وجلب الامراض والطواعين ، والتخلى عن وطنهم وقت الشدة) لان اقدامهم على ذلك كان ضربا من ضروب الرياضة لا يضر صاحبه ولا يتهدده بالخطر ، فقد كان المسيحيون يحجمون عن مقابلة الاعتداء بمثله .

وظل البرابرة فى الوقت نفسه يغيرون على روما ، ولما فشلت الجيوش الرومانية فى صد المغيرين ذهب المبشرون النصارى يدعون الى السلام بين التيوتون المتوحشين . وكان هؤلاء المبشرون رجالا اقوياء لايهابون الموت ، يتحدثون بلغة لاتترك مجالا للشك فى عاقبة الذين لايساورهم الندم على ما اجترحوا . وقد تاثر التيوتون باقوالهم غاية التاثر ، وكانوا حتى ذلك الحين يحترمون أعمق الاحترام حكمة مدينة روما القديمة . وكان هؤلاء المبشرون من أهل روما ، ولعلهم كانوا يقولون الصدق ، لذلك سرعان ما أصبحوا قوة لها خطرها فى بلاد التيوتون والفرنجة المتوحشة ، فكان للفئة القليلة منهم قوة تعادل قوة فصيلة من الجند المحاربين . واخذ الاباطرة يدركون الفائدة الجليلة التى قد تعود عليهم من هؤلاء المسيحيين ، فمنحوهم فى بعض الأقاليم حقوقا مساوية لأولئك الذين ظلوا على ولائهم للآلهة القديمة . غير أن التغير العظيم حدث خلال النصف الأخير من القرن الرابع .

كان على عرش الامبراطورية الرومانية قسطنطين الذى كان يطلق عليه احيانا ـ ولا ندرى لذلك سببا ـ اسم قسطنطين الاكبر . وكان وغدا غليظ القلب لايرحم . غير أن الناس الوادعين المسالمين لم يكن لهم فسحة من الأمل فى البقاء فى خضم ذلك العصر الحافل بالكفاح المرير . وكابد قسطنطين مر الحياة وحلوها فى عهده الطويل المتقلب . فقد فكر ذات مرة عندما اوشك الاعداء أن يوقعوا به الهزيمة ، أن يجرب سلطان هذا الدين الأسيوى الجديد الذى كان حديث الناس اجمعين ، ووعد بأن يعتنق المسيحية اذا انتصر فى

www.ibtesama.com/vb/

الحرب القادمة ، فحالفه النصر . ومن ثم اقتنع بسلطان اله المسيحيين ، وقبل ان يعمد . وقد اعترف رسميا منذ ذلك الوقت بالكنيسة المسيحية ، ودعم ذلك مركز الدين الجديد تدعيما .

على ان المسيحيين ظلوا فئة قليلة من الشعب لا تزيد على ٥٪ أو ٦٪ من مجموعه، فلم يجدوا بدا فى سبيل النصر من رفض كل حل وسط ، فقالوا بوجوب القضاء على الآلهة القدامى. وحاول الامبراطور **يوليان** ـ وكان محبا للحكمة اليونانية ـ أن ينقذ الى حين الآلهة الوثنية من ان تنزل بها شرور اخرى ، ولكنه مات متأثرا بجراحه فى حملة فارس . واعاد خليفته **يوفيان** الكنيسة الى كل ما كان لها من مجد ، فاخذت المعابد القديمة تقفل ابوابها الواحد بعد الآخر . واعتلى العرش بعد ذلك الامبراطور **يوستنيانوس** الذى ابتنى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية وقضى على مدرسة الفلسفة فى اثينا، وهى المدرسة التى اسسها افلاطون.

وكان ذلك خاتمة العالم اليونانى القديم الذى اباح للناس ان يفكروا كما يشاؤون ويحلموا كما يحبون . وقد اثبتت التعاليم الخلقية للفلاسفة التى يكتنفها شىء من الغموض ، انها لا تصلح لقيادة سفينة الحياة بعد ان ذهب طوفان الهمجية والجهالة بالوضع المقرر للامور . واصبحت الحاجة ماسة الى شىء اقرب الى الواقعية وادنى الى التحديد . وقد زودت الكنيسة الناس بهذا الشىء . فقد ظلت كالصخرة فى عصر ساده الشك ، وتبلبلت فيه الافكار ، ولم تتراجع قط عن المبادىء التى آمنت بصحتها وقدسيتها .

وقد اثارت هذه الشجاعة الراسخة اعجاب الجماهير ، وقادت سفينة الكنيسة الرومانية بسلام فى خضم الشدائد التى قضت على الدولة الرومانية .

غير ان الحظ كان له بعض النصيب فى الانتصار الاخير الذى احرزته العقيدة المسيحية ، ذلك انه بعد زوال امبراطورية تيودوريك الرومانية القوطية فى القرن الخامس ، كانت ايطاليا بعيدة بعض الشىء عن الغزوات الاجنبية . اذ كان اللومبارديون والسكسون والصقالبة الذين خلفوا القوط قبائل ضعيفة متاخرة. وكان فى استطاعة اساقفة روما فى هذه الظروف الاحتفاظ باستقلال مدينتهم . وسرعان ما دانت بقايا الامبراطورية المشتتة فى انحاء شبه الجزيرة لدوقات روما (او اساقفتها) ، وعدتهم حكامها السياسيين وزعماءها الروحانيين .

وقد تهيأ المسرح لقيام رجل قوى ظهر عام ٥٩٠ وعرف باسم **جريجورى** ، وكان ينتسب الى الطبقات الحاكمة فى روما القديمة ، كما كان محافظا لمدينة روما ، ثم اصبح بعد ذلك راهبا ثم اسقفا ، وانتهى به الامر بأن ساقته الظروف على غير رغبة صادقة منه الى كنيسة القديس بطرس ليتبوا عرش البابوية ، ذلك أن رغبته كانت منصرفة الى ان يكون مبشرا بالمسيحية فى انجلترا الوثنية .

ولم يمكث هذا الرجل على عرشه الا اربعة عشر عاما فقط . فلما توفى كان العالم المسيحى فى اوربا الغربية قد اعترف رسميا باساقفة روما البابوات رؤساء على الكنيسة المسيحية باسرها .

على ان هذا السلطان لم يمتد الى الشرق، فقد ظل اباطرة القسطنطينية يتبعون السنة القديمة التى قضت بالاعتراف بخلفاء اوغسطس وتيبريوس ، رؤساء الحكومة ورؤساء الدين المقرر فى الدولة فى آن واحد .

وفى عام ١٤٥٣ غزا الترك الامبراطورية الرومانية الشرقية ، واستولوا على القسطنطينية ، وقتل **قسطنطين باليولوغس** آخر اباطرة الرومان على درج كنيسة القديسة صوفيا .

وحدث قبل ذلك بسنوات قلائل ان تزوجت **زوى** ابنة اخيه توماس من ايفان الثالث قيصر الروسيا ، وبذلك اصبح دوقات موسكو الاعظمون الوارثين لتقاليد القسطنطينية . واصبح النسر ذو الوجهين المأثور عن بوزنطة القديمة (وهو يذكرنا بالايام التى كانت روما فيها منقسمة قسمين : قسم شرقى وقسم غربى) هو شعار روسيا الحديثة . واصطنع القيصر الذى لم يكن سوى اكبر النبلاء مرتبة ، الترفع والعزة التى كان يصطنعها اباطرة الرومان تجاه رعاياهم، فكان عظيمهم وحقيرهم عبيدا لا وزن لهم .

واصطبغ البلاط بالصبغة الشرقية التى استعارها الاباطرة الشرقيون من آسيا ومصر ، والتى شبهها هؤلاء الاباطرة ، تفاخرا منهم ، ببلاط الاسكندر الاكبر . وقد ظل هذا التراث العجيب الذى اورثته الامبراطورية البوزنطية المتداعية لعالم سليم الطوية لا يساوره الشك باقيا فى عنفوانه ستة قرون اخرى وسط سهول روسيا المترامية الاطراف . وكان القيصر **نقولا** آخر من لبس تاج القسطنطينية وعليه النسر ذو الوجهين . وماعهد قتله ببعيد ، فهو قد قتل والقيت جثته فى بئر كما قتل ابنه وبناته ، والغيت جميع الحقوق والامتيازات التى كان يتمتع بها ، ونزل بمرتبة الكنيسة الى الحالة التى كانت عليها فى روما قبل ايام قسطنطين .

www.ibtesama.com/vb/

محمد (صلى الله عليه وسلم)

النبى العربى الذى اوشك اتباعه ان يفتحوا العالم المعروف باسره تمجيدا لله الاله الواحد الحق

لم تتعرض بشيء للشعوب السامية منذ ايام قرطاجنة وهانيبال . وانت تذكر ان اخبارهم كانت تشغل جميع الفصول التى افردناها لقصة العالم القديم . لقد حكم البابليون والاشوريون والفينيقيون واليهود والاراميون والكلدان - وجميعهم من الساميين - آسيا الغربية ثلاثين قرنا او اربعين . ثم غزاهم الفرس - وهم من الجنس الهندى الاوربى - الذين وفدوا من الشرق ، ثم من بعدهم اليونان الذين وفدوا من الغرب ؛ وهم ينتمون ايضا الى هذا الجنس . وبعد وفاة الاسكندر المقدونى بمائة عام حاربت قرطاجنة - وكانت من مستعمرات الفينيقيين الساميين - الرومان الهندواوروبيين فى سبيل السيادة على البحر المتوسط ، وقد هزمت قرطاجنة فى هذا القتال ، وحل بها الدمار ، وظل الرومان اسياد العالم ثمانمائة عام . على ان قبائل اسيوية اخرى ظهرت على مسرح الحوادث فى القرن السابع للميلاد ، وتحدت سلطان الغرب . وهذه القبائل هم العرب ، وكانوا رعاة مسالمين يجوبون الصحارى منذ اقدم الازمنة دون ان تبدو من جانبهم دلائل على طموحهم الى التوسع والسلطان .

آمن هؤلاء العرب بالاسلام الذى بشر به محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وامتطوا صهوة جيادهم ، واندفعوا الى قلب اوربا فى اقل من قرن ، وابلغوا فلاحى فرنسا الدعوة الى الله ذى الجلال الواحد الأحد . وان محمدا رسوله .

وقصة محمد بن عبد الله قصة شائقة كانها فصل من الف ليلة وليلة .

بدا محمد حياته راعى ابل ، وكانت هذه الرعاية مدرسته الأولى ، فقد علمته فى هذه السن الباكرة كيف يدبر شئون الناس ، وكيف يفكر ، وكيف يقاتل (وما من نبى قبله الا رعى الابل) . فلما بلغ الاربعين من عمره نزل عليه الوحى الالهى ، بينما كان يتعبد فى غار حراء على مقربة من مكة ، وقرأ عليه اول سورة من سور القرآن ، وطلب اليه ان يرددها معه ، فرددها وهو خائف وجل ، ثم اسرع الى بيته ، حيث اطمأن قلبه ، وعرف ان الذى نزل عليه انما هو الناموس الذى انزل من قبل على عيسى وموسى وسائر النبيين ، وهكذا اصبح محمد رسولا كريما ارسله الله رحمة منه وهدى ليبلغ البشر رسالة الاسلام دين السلام ، وبدأ يدعو قومه الى عبادة الله الواحد القهار ، وكانوا اذ ذاك يعبدون الاصنام كما كان يفعل اسلافهم منذ آلاف السنين . وكان يقوم فى مكة ، مدينتهم المقدسة ، بناء صغير مربع هو الكعبة يضم قطعا من حجر مقدس ، وتقوم من حوله الاصنام : لكل قبيلة من القبائل صنم تعبده من دون الله . فاخذ يهاجم هذه الوثنية ، وينبه قومه الى ان هذه الاصنام انما هى رجس من عمل الشيطان ينبغى نبذها والدخول فى دين الله . وكان قبل ذلك قد تزوج من سيدة من اكرم سيدات قريش هى خديجة بنت خويلد ، وكانت تؤمن بمحمد ايمانا عظيما ، فلما حمل اليها رسالة ربه كانت اول من آمن به ، وكانت ذات مال ، فاعانه مالها على التفرغ للرسالة الكبرى التى وعاها قلبه . فاخذ يدعو الاقربين من اهله وجيرانه : فمنهم من آمن وصدق ، ومنهم من انكر وسخر وصارح بالعداء . وخافت قريش على مكانتها بين العرب ، فتصدى معظم رجالها لمقاومة الدعوة ، وصمد لهم محمد (صلعم) صابرا محتسبا . وما زال يدعو ويجادل ويهدى ، بينما توالى نزول الوحى عليه يحمل آيات القرآن كلها هدى ورحمة . وطال الصراع بينه وبين اولئك الوثنيين الذين لم تتفتح قلوبهم للدعوة الكبرى ، فانقضت ثلاث عشرة سنة دون ان تجتذب الدعوة الا نفرا صغيرا من المكيين . فتطلع ببصره الى ماوراء مكة ، وكانت الاسباب قد اتصلت بينه وبين نفر من اهل يثرب التى عرفت فيما بعد بالمدينة ، وادرك ان الاحوال فيها اوفق لانتشار الدعوة منها فى مكة ، واتفق مع جماعة من اليثربيين على ان يهاجر الى مدينتهم ، وفعلا هاجر اليهم وهو فى الثالثة والخمسين من عمره . وفى هذه البلدة الجميلة المتحضرة ، دخلت الدعوة الاسلامية فى طورها الحاسم : طور القوة والسير الى الامام . وكان قد هاجر معه صاحبه

www.ibtesama.com/vb/

الامين ابو بكر الذى عرف بالصديق ، والتف الناس حوله ، وتجلى نور رسالته ، ووضع اسس الدولة الاسلامية .

فلما احس ان دعائم دعوته قد استقرت ، وان المسلمين قد اصبحوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف امام مكة واهلها من الوثنيين ـ بدأ الصراع الحاسم بينه وبينهم ، وهو صراع استمر نيفا وسبع سنوات . وفى العام الثامن كلل كفاح المسلمين بالانتصار الحاسم على مكة واهلها ، فهزمهم ودخل مكة مظفرا ، ودعا اصحابه الى هدم الاصنام ، واشترك فى ذلك بنفسه ، ثم عفا عن خصومه ، ونادى بأن الاسلام يجب ما قبله ، فدخلوا الاسلام زرافات ووحدانا ، وما هو الا قليل حتى اصبحت مكة دار اسلام ، واصبحت الكعبة محجا للمسلمين .

وثمة سببان ادبا الى نجاح الدعوة الاسلامية ، الاول : ان العقيدة التى حملها محمد للبشر كانت فى غاية البساطة . فقد دعا المسلمين الى عبادة الله الرحمن الرحيم رب العالمين ، وتبجيل الوالدين وطاعتهما ، وحذرهم من غش جيرانهم فى المعاملة ، واوصاهم بالتواضع والاحسان الى الفقراء والعاجزين ، ثم امرهم باجتناب المسكر من الشراب ، وان يعتدلوا فى ماكلهم غاية الاعتدال . وهذا هو كل ما طلبه منهم اول الامر . ولم يكن ثمة رجال دين محترفون يطلبون من المؤمنين نفقة تجرى عليهم من مال المسلمين . اما المساجد فكانت مجرد ساحات مقامة من الحجارة الكبيرة خالية من المقاعد والصور : يجتمع فيها المؤمنون للصلاة ، ويتلاقون فيها كلما ارتأوا ذلك ليقرأوا او ليتدبروا بعض سور القرآن . وكان على المسلم العادى أن يختص هو نفسه بأمر دينه ، ولم يشعر قط بانه خاضع لهيئة رجعية من رجال الدين ، كما كان الحال فى عالم المسيحية . وكان على المسلم أن يولى وجهه شطر مكة ، المدينة المقدسة ، خمس مرات فى اليوم ليؤدى صلاة بسيطة ، اما ماعدا ذلك من الأوقات فهو يترك لله تدبير امور العالم كما يشاء ، ويرضى بما قسم له صابرا على قضائه .

واما السبب الثانى الذى يفسر لنا نجاح المسلمين فى حربهم مع النصارى : فهو يتصل بمسلك جنودهم الذين كانوا يقبلون على القتال بعقيدة راسخة ، فقد وعد النبى الذين يستشهدون فى قتال العدو بدخول الجنة مما جعلهم يفضلون الموت الداهم فى ساحة القتال على حياة طويلة مملولة .

على اكتاف اولئك المؤمنين انتشرت الدعوة الاسلامية ، ودخل الناس فيها افواجا ، فما حلت السنة التاسعة للهجرة حتى كانت بلاد العرب كلها قد دانت للاسلام . وخلال هذه الفترة القصيرة أرسى محمد قواعد الحكم والحياة والآداب للجماعة الاسلامية ، وعرف كيف يسوس اولئك العرب الذين لم يعرفوا من قبل الخضوع لنظام ، فاصبحوا بفضل الله وهدى القرآن وحكمة محمد ، امة واحدة مؤمنة قادرة على النهوض بعبء دعوة الاسلام وايصالها الى البشر كافة . وكان العرب بطبيعتهم رجال حرب وشجاعة ، وكان فيهم نفر عرفوا احوال العالم خارج جزيرتهم ، ورزقهم الله ملكات سياسية طيبة ، وبهذا اكتملت لهذه الدعوى ادوات التوفيق . ولم يكد الرسول (صلعم) يفرغ من فتح مكة حتى اتجه ببصره الى نشر الدعوة خارج الجزيرة ، فأرسل رسله الى كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشى وسائر الملوك ، واخذ يوجه بعوثه الحربية نحو الشمال ، وعند ما انتقل الى الرفيق الاعلى فى السابع من يونيه ٦٣٢ م كانت جيوش المسلمين على ابواب الشام .

وانتخب المسلمون ابا بكر الصديق ليكون خليفة رسول الله فى حمل راية الاسلام . وكان ابو بكر رجلا مسنا ، ولكنه كان حكيما مؤمنا قوى الارادة ، عرف كيف يقضى على نزعات الثورة والارتداد التى استولت على بعض قبائل العرب بعد وفاة الرسول ، وتمكن فى اقل من عامين من اعادة الوحدة الاسلامية ، ثم اتجه الى اكمال ما كان الرسول قد بدأ به قبيل وفاته من تجييش الجيوش للسير بالدعوة الاسلامية خارج الجزيرة .. فبعث بالجيوش الى الشام ، وبدأت الاشتباكات الحاسمة بين العرب والبوزنطيين والفرس . ثم توفى ابو بكر ، وجاء من بعده عمر بن الخطاب ، رجل الدولة الاسلامية ومنشىء الامبراطورية . وتمكن رجاله من القضاء على دولة الفرس ، وانتزع الشام ومصر من ايدى البوزنطيين (الروم) ، ووضع الاسس الادارية لسياسة هذه الامبراطورية الكبرى التى كان مركزها المدينة .

وتوفى عمر بن الخطاب . وجاء من بعده عثمان بن عفان ، وكان من كبار الصحابة فواصل حركة الفتح شرقا وغربا ، وفى ايامه وصلت جيوش الاسلام الى اقصى فارس شرقا ، والى بحر قزوين شمالا ، اما فى الغرب فقد بدأ فتح المغرب ، ووصلت جيوش الاسلام الى بلاد النوبة . وفى الوقت نفسه انتزع المسلمون السيادة البحرية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط .

www.ibtesama.com/vb/

ثم اجتاحت الدولة الاسلامية فتن داخلية قتل فيها عثمان ، وخلفه على بن ابى طالب ابن عم الرسول (صلعم) واشتدت الفتن وثارت الحروب بين العرب بعضهم وبعض ، ولم تستقر الامور الا سنة ٦٤٠ ميلادية ، عند ما صار الامر لمعاوية بن ابى سفيان الذى انتزع الخلافة بحد السيف ، ونقل عاصمة الدولة الى دمشق ، وتحولت الخلافة الى ملك وراثى ثابت الاركان ، قلبه النابض فى الشام ، وقاعدته دمشق .

وامتدت رقعة الاسلام فى عهد بنى امية حتى وصلت الى حوض البنجاب ودخلت الهند . وفى سنة ٧١١ ميلادية عبر احد قواد المسلمين ، وهو طارق بن زياد ، المضيق الذى يفصل افريقية عن اوربا فى الطرف الاقصى الغربى للبحر الابيض ، ونزل عند الصخرة التى عرفت باسمه من ذلك الحين : صخرة جبل طارق ، واشتبك مع جيوش القوط الغربيين فى معركة حاسمة على ضفة نهر صغير فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الايبيرية يعرف بوادى البرباط . ودانت اسبانيا للمسلمين ، وقامت لهم فيها دولة زاهرة حملت مشعل الحضارة الانسانية فى غربى اوربا ثمانية قرون .

ولم يقف المسلمون عند حدود اسبانيا ، بل عبروا الجبال الفاصلة بينها وبين غاليا (فرنسا) واحتلوا جنوبيها ، واتجهوا بأقدام ثابتة نحو قلب الدولة الفرنجية ، ولكنهم كانوا قد ابتعدوا بعدا عظيما عن مركز دولتهم ، واجهدهم الكفاح المتصل ، فخسروا معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ميلادية ، ووقف تقدمهم فى الغرب واتجهت جهودهم بعد ذلك الى تنظيم ملكهم الشاسع ، واستطاعوا بالجهد والعمل ان يجعلوا من بلادهم مركز الحضارة الانسانية ، فحملت شعوبهم رايتها قرنا بعد قرن ، ونبغ فيهم من اهل الفكر والعلم من حملوا مشعل النور قرونا متوالية .

وقد اقترن هذا الازدهار الحضارى العظيم بايام الدولة العباسية التى خلفت الدولة الاموية ، وكان مركزها العراق وعاصمتها قرية قديمة كانت تسمى بغداد ، وهى التى اصبحت أعظم مدن العالم طوال العصور الوسطى ، وهى حاضرة هارون الرشيد اعظم حاكم انجبته العصور الوسطى فى الشرق .

شارلمان

كيف تاتى لشرلمان ملك الفرنجة ان يحمل لقب الامبراطور وكيف حاول ان يحيى حلم القدماء باقامة امبراطورية عالمية

أوقفت وقعة بواتييه الغزو الاسلامى من اجتياح غربى اوربا ولكن العدو الذى كان يعيش بين ظهرانيها ظل قائما ، ونعنى به الفوضى الملحة التى سادت بعد اختفاء جنود الرومان . والحق ان الذين اعتنقوا المسيحية وشيكا فى شمالى اوربا كانوا يشعرون باحترام عميق نحو اسقف روما العظيم ، ولكن هذا الاسقف المسكين لم يشعر بالامن عند ما كان يتطلع ناحية الجبال البعيدة . فالله وحده هو الذى كان يعلم عدد الحشود البربرية الجديدة التى كانت تتاهب لعبور الالب والشروع فى غزو روما مرة اخرى . وقد الجات الحاجة ، بل الحاجة الملحة ، هذا الزعيم الروحى للعالم الى التماس حليف قوى الساعد ، عظيم البأس مستعد للدفاع عن قداسته اذا ماادلهم الخطب .

وهكذا كان شأن البابوات الذين عظم حظهم من القداسة كما عظم نصيبهم من النظر العملى للامور ، فالتمسوا الصديق واخذوا آنئذ يتقربون الى أعظم القبائل الجرمانية املا فى المستقبل ، وهى القبائل التى كانت تحتل القسم الشمالى الغربى من اوربا بعد سقوط روما . وكان يطلق على هذه القبائل اسم الفرنجة . وقد ساعد احد ملوكهم الاقدمين ويدعى **ميروفيتش** الرومان فى وقعة كاتالينا عام ٤٥١ حيث اوقعوا الهزيمة بالهون . واستمر اعقابه — ويعرفون باسم الميروفينجيين — يستحوذون على املاك الامبراطورية الرومانية قطعة قطعة . وما وافى عام ٤٨٦ حتى انس الملك كلوفيس (وهى الصيغة الجرمانية للاسم المعروف « لويس ») من نفسه القدرة على الاشتباك مع الرومان فى قتال صريح ، ولكن خلفاءه كانوا ضعافا تركوا مقاليد الامور فى أيدى رؤساء وزاراتهم ، او حجاب قصورهم .

www.ibtesama.com/vb/

وخلف ببين القصير أباه شارل مارتل على رياسة القصر ، فتعذر عليه أو كاد تصريف الامور ، فقد كان مولاه منصرفا الى الدين لا تعنيه السياسة فى كثير أو قليل . وقد سأل ببين البابا النصح ، فأجابه البابا — وكان رجلا عمليا — « ان السيادة فى الدولة ملك لمن يملكها بالفعل » واستجاب ببين لهذا الايحاء واقنع **شلدريك** آخر ملوك الميروفنجيين بالترهب ، ثم نادى بنفسه ملكا بموافقة الزعماء الالمان الاخرين . غير أن ذلك العمل لم يرض ببين الاريب فلم يقنع بأن يكون زعيما للبرابرة ، ومن ثم أقام حفلا كبيرا قام فيه **بونيفاس** ، مبشر شمال غربي أوربا الطائر الصيت ، بمسحه بالزيت وتنصيبه ملكا « بفضل الله » . وكان من اليسير النطق بهذه العبارة فى حفلة التتويج ، ولكن انتزاعها اقتضى نحو الف وخمسمائة سنة من الزمان .

وقد اعترف ببين بالشكر خالصا على ما أولته الكنيسة من فضل ، فقاد حملتين الى ايطاليا للدفاع عن البابا من شر اعدائه ، وانتزع رافنا وعدة مدن أخرى من اللومبارديين ، وقدمها الى البابا ، فالحقها بالممتلكات البابوية التى ظلت محتفظة باستقلالها حتى أواخر القرن الماضى .

وبعد وفاة ببين ازدادت العلاقات الودية توثقا بين روما **واكس لاشابل** او **نيمويجين** او **انجلهايم** ، ونحن نذكر هذه المدن الثلاث لان ملوك الفرنجة لم يتخذوا مقرا واحدا لحكمهم ، بل كانوا ينتقلون من مكان الى مكان هم وجميع وزرائهم ورجال بلاطهم . ثم اتخذ البابا والملك آخر الامر خطوة قدر لها ان تؤثر فى تاريخ أوربا تاثيرا بالغ الشأن . فقد تولى العرش بعد ببين الملك شارل عام ٧٦٨ — وهو الذى يعرف عادة باسم شارلمان — فغزا بلاد السكسون فى المانيا الشرقية ، واقام المدن والاديرة فى جميع البلاد التى تشمل الجزء الاكبر من اوربا الشمالية . ثم اغار على اسبانيا عازما على محاربة المسلمين ، فلم يفز منهم بطائل ، واضطر الى الارتداد الى بلاده . وبينما كانت فرق جيشه تجتاز مضايق وتشعاله فى جبال البرانس هاجمت مؤخرته قبائل البشكنس ، وهى التى تعرف اليوم بالباسك ، وقضت على مؤخرة الجيش وقتلت قائدها المعروف **رولان** ، ونشأت حول مصرعه الملحمة الذائعة الصيت « ملحمة رولان » .

على أن شارلمان لم يجد بدا من الانصراف كلية الى العناية بشئون القسم الجنوبى من اوربا خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن الثامن : فقد هاجم البابا **ليو** الثالث عصابة من رعاع الرومان وتركوه فى الطريق مثخنا على الموت ، فاشفق عليه نفر من اصحاب المروءة وضمدوا جراحه ، وساعدوه على الفرار الى معسكر شارلمان ، وهناك ساله العون . فبادر جيش من الفرنجة الى اعادة الأمن الى نصابه ، وعاد البابا **ليو** الى قصر لاتران الذى كان قد اصبح منذ أيام قسطنطين مقر البابوات ، وكان ذلك فى شهر ديسمبر عام ٧٩٩ . وفى عيد الميلاد من العام التالى حضر شارلمان ، وكان فى روما ، القداس فى كنيسة القديس بطرس القديمة ؛ فلما نهض من صلاته وضع البابا التاج على راسه ولقبه بامبراطور الرومان ، وخلع عليه مرة اخرى لقب اغسطس ، وهو اللقب الذى لم يسمع به احد منذ مئات من السنين .

وغدا شمالى أوربا مرة اخرى جزءا من الامبراطورية الرومانية . ولكن الامر كان فى يد زعيم جرمانى لايكاد يعرف القراءة او الكتابة ولو انه كان خبيرا بالقتال . وعاد النظام مرة اخرى الى نصابه فى البلاد حتى ان امبراطور القسطنطينية ارسل اليه خطابا يثنى فيه على اعماله مخاطبا اياه بقوله : « اخى العزيز » .

ومما يؤسف له ان هذا الرجل العظيم العالى السن توفى عام ٨١٤ ، وبادر اولاده واحفاده الى القتال فى سبيل الفوز باوفى نصيب من هذه التركة الامبراطورية . وقد قسمت البلاد الكارولنجية مرتين . . بمقتضى معاهدة فردان عام ٨٤٣ م ، ثم بمقتضى معاهدة **هرسن** على نهر الموز عام ٨٧٠ . ونصت المعاهدة الاخيرة على تقسيم مملكة الفرنجة باسرها الى قسمين . اخذ شارل الجسور النصف الغربى ، ويشمل الاقليم الرومانى المعروف باسم بلاد غالة ، حيث اصبحت لغة اهله رومانية صرفة ، وسرعان ماتعلم الفرنجة التحدث بهذه اللغة . وهذا يفسر لنا تلك الحقيقة العجيبة الا وهى ان بلادا جرمانية مثل فرنسا قد قضى عليها بأن تتحدث لغة لاتينية .

واستولى الحفيد الآخر على القسم الشرقى ؛ اى على البلاد التى اطلق عليها الرومان اسم جرمانيا . وهذه البلاد المتحلة لم تكن قط جزءا من الامبراطورية القديمة على الرغم من ان الامبراطور اغسطس حاول غزو هذه الاقاليم البعيدة ناحية الشرق ؛ غير ان كتائبه ابيدت فى غابة تيوتوبورغ عام ٩ ميلادية ، فلم يتأثر اهل تلك البلاد بالحضارة الرومانية الرفيعة قط . وكان اهل هذه البلاد يتحدثون اللغة الجرمانية السائدة ؛ والكلمة التيوتونية التى تدل على معنى الشعب هى

www.ibtesama.com/vb/

كلمة « تيوت » لذلك كان المبشرون النصارى يطلقون على اللغة الالمانية اسم " lingua theotisca " أو " lingua teutisca " أى اللهجة العامية . وقد أصاب التحريف كلمة " teutisca " فأصبحت **ديوتش** (Deutsch) وهى التى تطلق اليوم على المانيا (Deutschland) . أما التاج الامبراطورى المشهور فسرعان ما سقط عن رءوس خلفاء الكارولنجيين واتخذ طريقه نحو السهل الايطالى حيث غدا العوبة يتهالك عليها عدد من الامراء الصغار الذين كانوا يسرقونه الواحد من الآخر ، ويهدرون فى سبيله كثيرا من الدماء ، ويلبسونه بموافقة البابا أو من غير موافقته ، الى ان انتهى هذا التاج الى راس جار لهم أكثر طموحا .

ثم اخذ اعداء البابا يعودون الى مناواته مناواة شديدة ، فاستنجد بأهل الشمال . ولم يطلب هذه المرة النجدة من مملكة الفرنجة الغربية ، بل عبر رسله جبال الالب ومثلوا بين يدى **اوتو** وهو امير سكسونى كان يعد الزعيم الاكبر للقبائل الجرمانية المختلفة واسرع **اوتو** الى نجدته ، وكان يشارك شعبه ميله

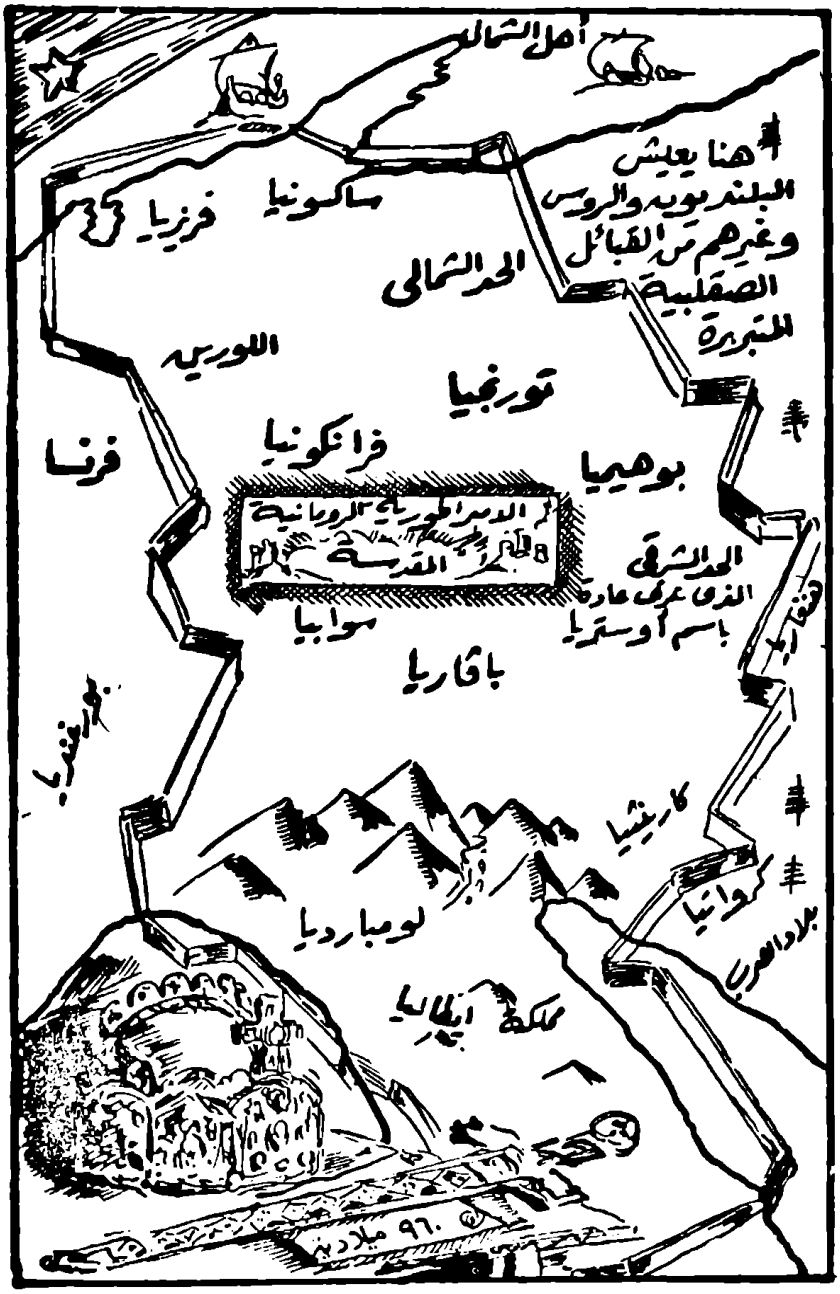

الامبراطورية الرومانية المقدسة .. ذات القومية الجرمانية

www.ibtesama.com/vb/

الى سماء شبه جزيرة ايطاليا الزرقاء واهلها المرحين الحسان الوجوه . واعترف البابا ليو الثامن بهذا الجميل ، فجعل اوتو امبراطورا ، ومن ثم اصبح النصف الشرقي من مملكة شارلمان القديمة يعرف منذ ذلك الحين باسم «الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية » .

وناضلت هذه البدعة السياسية العجيبة في سبيل البقاء سنين طويلة تبلغ ٨٣٩ عاما . وفي عام ٨٠١ ، وكان مطلع عصر جديد ، تلاشت هذه البدعة من الوجود دون ان يحس بها احد . وكان الرجل الغليظ القلب الذي قضى على هذه الامبراطورية الالمانية القديمة ابن مسجل عقود كورسيكي ، كان له شان عظيم في خدمة الجمهورية الفرنسية . لقد كان هذا الرجل سيد أوربا بفضل كتائب حرسه المشهورة ، ولكنه كان يطمع في اكثر من هذا ، فقد ارسل الى روما في طلب البابا ، فحضر ووقف في حضرة نابليون وهو يضع التاج الامبراطوري على راسه وينادي بنفسه وريثا لسلطان شارلمان .

وهكذا التاريخ ، شانه شأن الحياة .. كلما امعنت احوالها في التغير بقيت على حالها القديم ..

النورمان ، أهل الشمال

لماذا ابتهل اهل القرن العاشر الى الله ان يحميهم من غضب اهل الشمال

اقتحمت القبائل الجرمانية في وسط أوربا حصون الامبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع ، عسى ان تمكنها الظروف من سلب روما والعيش على خيرات اراضيها .

وفي القرن الثامن دارت الدائرة على هؤلاء الجرمان فاصبحوا هم انفسهم موضع السلب والنهب ، وكانوا لايرضون بذلك قط حتى ولو كان أعداؤهم هم ابناء عمومتهم الأولين اهل الشمال الذين عاشوا في الدانيمارك والسويد والنرويج .

ولسنا نعلم السبب الذي حمل هؤلاء الملاحين الأشداء على احتراف القرصنة ، ولكنهم ما ان ذاقوا مزايا حياة القرصنة وحلاوتها حتى امعنوا فيها فلم يستطيع ان يردهم عنها احد . فكانوا ينقضون على قرية فرنجية او فريزية على مصب نهر من الانهار ، فيقتلون رجالها جميعا ، ويسبون نساءها كافة ، ثم يبحرون على ظهر سفنهم السريعة ، فاذا وصل جنود الملك او الامبراطور وجدوا اللصوص قد فروا مخلفين وراءهم بضع خرائب عليها آثار النيران .

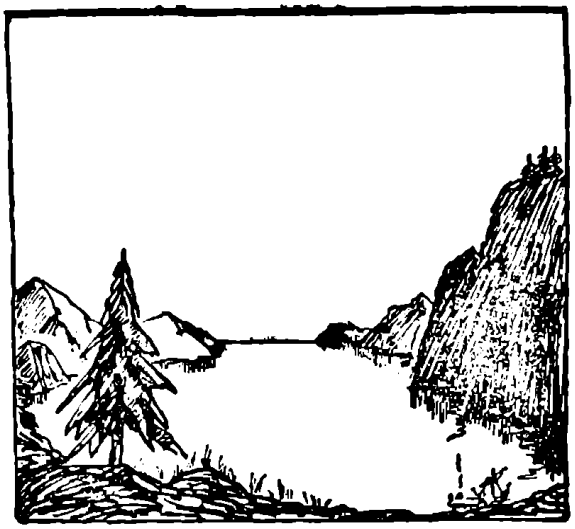

موطن اهل الشمال

وفي خلال الفوضى التي اعقبت وفاة شارلمان اظهر اهل الشمال نشاطا عظيما ، فاخذت اساطيلهم تغير على البلاد جميعا . واقام بحارة تلك الأساطيل دويلات صغيرة مستقلة على شواطىء هولندة وفرنسا وانكلترا والمانيا ، بل بلغوا في غزواتهم بلاد ايطاليا . واقلعوا عن اساليب القرصان الاسكندناويين المتبربرين (Vikings) الذين كان منظرهم في غاية الطرافة والغرابة ، وان كانوا ايضا في غاية القذارة والقسوة .

وفي مستهل القرن العاشر اغار قرصان من اهل الشمال يدعى **رولو** على شواطىء فرنسا مرارا وتكرارا ، وكان ملك فرنسا اضعف من ان يرد عادية هؤلاء اللصوص الشماليين ، فسعى الى رشوتهم ليامن شرهم ، وعرض عليهم مقاطعة فريزيا اذا وعدوا بالكف عن ازعاج باقي ممتلكاته . وقد قبل **رولو** هذا العرض واستقر في فريزيا ، واصبح اسمها بلاد النورمان او نورماندیا . غير ان حب الغزو كان قد تغلغل في دماء اولاد **رولو** الذين كانوا يشاهدون فيما وراء القناة الانجليزية على

www.ibtesama.com/vb/

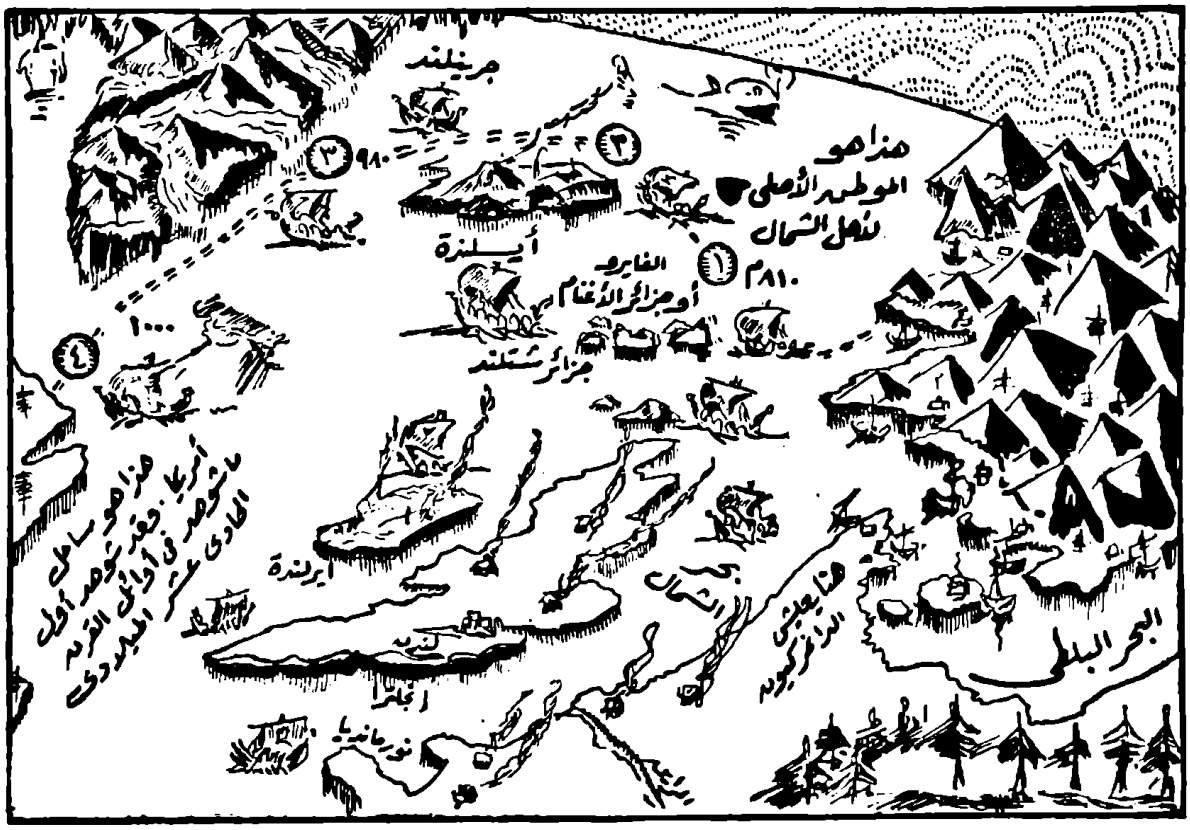

عالم أهل الشمال

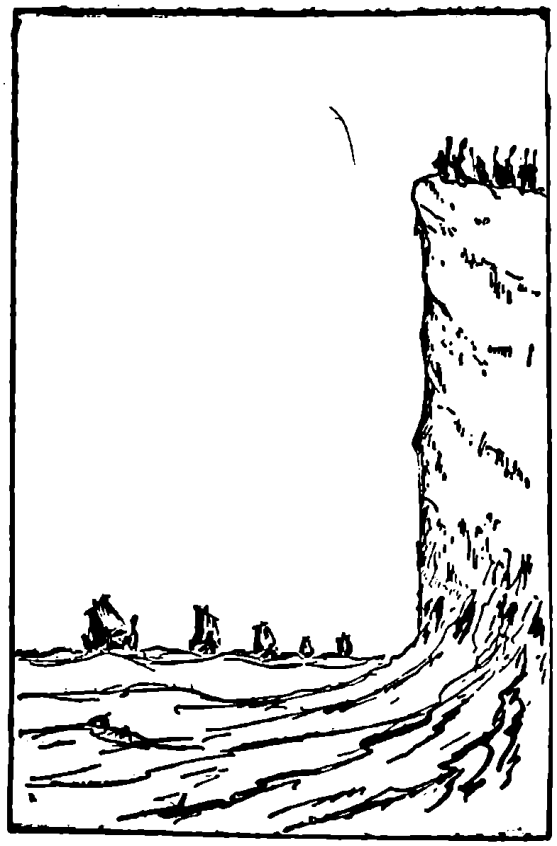

أهل الشمال قادمون ...

مسيرة ساعات من حقول انجلترا الخضراء وقنانهما البيضاء ، وقد مرت انكلترا بأيام عصيبة ، اذ كانت مستعمرة رومانية طوال مائتي سنة. وبعد أن غادرها الرومان غزاها الانكليز والسكسون وهما قبيلتان جرمانيتان من شلزويج .. ثم استولى الدانيماركيون من بعدهم على الجزء الاكبر من البلاد ، واقاموا بها مملكة تربع على عرشها الملك **كنوت** . ثم طرد الدانيماركيون منها ، وجلس على عرش البلاد في مستهل القرن الحادي عشر ملك سكسوني آخر هو **ادوارد المعترف**.

ولكن لم يكن من المنتظر ان يعيش **ادوارد** طويلا كما انه لم يعقب ولدا .

وفي سنة ١٠٦٦ مات ادوارد، فعبر وليم النورماندي لتوه بحر الشمال ، وهزم **هارولد** الذي كان قد استولى على العرش بعد وفاة **هاستنجس** وقتله ، ونادى بنفسه ملكا على انكلترا . وسنروى لك في فصل آخر كيف اصبح زعيم من زعماء الالمان امبراطورا رومانيا عام ٨٠٠ ، ثم نودي آنئذ بحفيد قرصان من القراصنة ملكا على انكلترا عام ١٠٦٦ .

ويحق لنا ان نتساءل عن السبب الذي يدفعنا الى قراءة الأساطير في حين ان حقائق التاريخ اطرف منها وأروح .

www.ibtesama.com/vb/

النظام الإقطاعى

كيف اصبحت اوربا الوسطى بعد انهوجمت من ثلاث جهات معسكرا مسلحا، وكيف كانت اوربا خليقة بان يحل بها الدمار لولا ان قيض لها اولئك الجنود المحترفون والحكام الذين كانوا جزءا من النظام الاقطاعى

أن ما أقصه عليك بعد يمثل حالة أوربا سنة ١٠٠٠ م ، حين خيم الشقاء على معظم اهلها فحملهم على الترحيب بتلك النبوءة القائلة بقرب نهاية العالم ، ومن ثم نجدهم قد هرعوا الى الاديرة حتى اذا جاء يوم الحساب كانوا منصرفين الى الصلاة والعكوف بين يدى الله .

غادرت القبائل الجرمانية فى تاريخ غير معلوم موطنها القديم فى آسيا ، واتجهت غربا نحو أوربا وشقوا طريقهم بحكم كثافة جوعهم الى الامبراطورية الرومانية ، وقضوا على الامبراطورية الغربية العظيمة ، اما الامبراطورية الشرقية ، وكانت بعيدة عن الطريق الاكبر للهجرات العظيمة، فناضلت فى سبيل البقاء واستمرت تحافظ فى وهن على تقاليد روما فى مجدها القديم . وادخلت القبائل الجرمانية فى الدين المسيحى فى أيام القلق التى اعقبت ذلك (وتعرف بعصور التاريخ المظلمة بحق وهى تشمل القرنين السادس والسابع الميلاديين) واعترفت بأسقف روما بابا على العالم أو الزعيم الروحى له . وفى القرن التاسع جاء شارلمان فتمكن بفضل عبقريته فى التنظيم من احياء الامبراطورية الرومانية وتوحيد الجزء الاكبر من أوربا الغربية فى دولة واحدة . ثم انقسمت هذه الامبراطورية فى القرن العاشر ، واصبح القسم الغربى منها مملكة مستقلة هى فرنسا ، أما النصف الشرقى فكان يعرف باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية . وادعى حكام هذه الدول المتحدة انهم الورثة المباشرون لقيصر واغسطس .

ومما يؤسف له ان سلطان ملوك فرنسا لم يمتد الى ما وراء حدود مقرهم الملكى ، فى حين كان رعايا عاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة يتحدونه جهرة متى شاء لهم هواهم ذلك ، أو اغرت به مصلحة تعود عليهم بالنفع .

ومما زاد من بؤس اهل أوربا أن المثلث الغربى من هذه القارة كان معرضا دائما ابدا للغزوات تأتيه من ثلاثة جوانب . فالى الجنوب منه ربض المسلمون يتهددونه دائما بالخطر . وكان اهل الشمال يعيثون فسادا فى الشاطىء الغربى ، أما الحد الشرقى فكان خلوا من الحصون عدا تلك الشقة القصيرة من جبال الكربات ، ومن ثم وقع تحت رحمة جموع الهون والمجر والصقالبة والتتر .

اما السلام الرومانى فكان حديثا من أحاديث الماضى البعيد ، وحلما من احلام الايام السعيدة الغابرة التى ذهبت الى غير رجعة . وكانت المسألة مسألة قتال أو موت ، فأثر الناس القتال بطبيعة الحال . وكانت أوربا بحكم هذه الظروف معسكرا حربيا كما كانت الحاجة ماسة الى قيادة قوية. وكان الملك والامبراطور يعيشان فى مقرهما بعيدا عن هذه الاحداث ، فلم يجد سكان الحدود مناصا من الاعتماد على أنفسهم (وكان معظم بلاد أوربا سنة ١٠٠٠ للميلاد حدا من الحدود) فكانوا يخضعون راضين الى ممثلى الملك الذين انفذوا لحكم الاقاليم النائية ، مادام هؤلاء يحمونهم من اعدائهم . وسرعان ما اصبح وسط أوربا مرصعا بامارات صغيرة على كل منها دوق أو كونت أو بارون او اسقف حسبما تقتضيه الامور . وقد نظمت كل هذه الامارات بحيث تكون وحدة حربية مقاتلة . واقسم هؤلاء الحكام يمين الطاعة والاخلاص للملك الذى اقطعهم هذه الامارات نظير ولائهم له ، ونظير مايؤدونه من ضرائب . وكانت وسائل الانتقال فى تلك الايام بطيئة ساذجة ، ومن ثم كان هؤلاء الحكام الذين ولاهم الملوك أو الاباطرة ، يتمتعون بقسط كبير من الاستقلال ، وكانت لهم فى اماراتهم الحقوق التى كانت للملك . ولا تحسبن انك مصيب كبد الحقيقة اذا ذهبت الى ان اهل القرن الحادى عشر قد اعترضوا على هذه الصورة من صور الحكم ، فهم قد أيدوا النظام الاقطاعى لانه كان نظاما جد عملى دعت اليه الضرورة . وكان ولى الأمر فيهم يعيش عادة فى بيت كبير من الحجر مشيد على قمة اكمة وعرة ، اومقام بين خنادق عميقة ، ولكنه كان على مرمى البصر من رعاياه . وكانت الرعايا وقت الخطر تحتشد وراء أسوار معقل سيدهم ، وذلك يفسر لنا السبب الذى كان الناس من أجله يسعون للعيش بالقرب من الحصون والقلاع،

www.ibtesama.com/vb/

وان كثيرا من المدن الاوربية نشأ حول قلعة من قلاع العهد الاقطاعى .

على ان الفارس فى صدر العصور الوسطى لم يكن جنديامحترفا فحسب، بل كان الى ذلك موظفامدنيا، فهو قاضى الجماعة ورئيس شرطتها .. يقبض على اللصوص ، ويحمى المقايضين المتجولين الذين كانواهم تجار القرن الحادى عشر . كان يسهر على السدود حتى لايغرق الفيضان البلاد ، وتلك كانت مهام النبلاء الاولين فى وادى النيل قبل ذلك بأربعة آلاف سنة . وكان الفارس ايضا يشجع الشعراء المتجولين الذين كانوا ينتقلون من مكان الى مكان يروون قصص الابطال القدماء ، الذين ساهموا فى الحروب الكبيرة التى قامت ابان الهجرات . وكان يحمى علاوة على ذلك الكنائس والأديرة التى فى حدود منطقته . ولم يكن الفارس فى تلك الايام يعرف القراءة او الكتابة ، فلم تكن هذه الامور مما يحرص عليه الرجال ، لذلك كان يستخدم عددا من رجال الدين للاشراف على حساباته وتقييد المواليد والوفيات والزيجات التى تتم فى حدود اقطاعيته .

وفى القرن الخامس عشر استرد الملوك ماكان لهم من بأس ، واصبحوا قادرين على مباشرة السلطات المخولة لهم بحكم ان الله أفاء عليهم شوكته . وعند ذلك فقد فرسان العهد الاقطاعى ماكان لهم من استقلال ، وانزلوا الى مرتبة اصحاب الاملاك فى الريف ، فلم تعد الحاجة ماسة اليهم ، واصبحوا عبئا من الاعباء . على ان اوربا كانت قمينة بأن يحل بها الدمار لو لم يقيض لها النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى. لقد ظهر فى هذه العصور كثير من الفرسان الاشرار شأنهم فى ذلك شأن الاشرار من الناس الذين يحفل بهم عصرنا الحاضر ، ولكننا نقول على وجه الاجمال ان اشراف القرنين الثانى عشر والثالث عشر ذوى البطش كانوا حكاما عاملين قاموا باجل الخدمات فى سبيل تقدم العالم . ففى خلال تلك الحقبة كانت شعلة الفنون والعلوم الكريمة التى اضاءت عالم المصريين والاغريق والرومان خابية الضياء ، ولو لم يقيض الله للعالم هؤلاء الفرسان واصدقاءهم الاخيار واولئك الرهبان لكانت الحضارة خليقة بان تندثر اندثارا ، ولالفى الجنس البشرى نفسه مضطرا الى ان يبدأ حيث انتهى ساكن الكهوف والمغاور .

الفروسية

لقد كان من الطبيعى جدا ان يسعى رجال العصور الوسطى الذين احترفوا القتال الى اقامة ضرب من النظام يحقق مصالحهم المتبادلة ويتولى حمايتهم ؛ وقد نجم عن هذه الحاجة نظام وثيق البنيان هو نظام الفروسية . ونحن لانعلم الا النزر اليسير عن اصل هذا النظام . على انه ما ان تطور حتى زود العالم بشىء كان فى اشد الحاجة اليه .. الاوهو قيام قواعد مقررة للسلوك الانسانى هذبت العادات البربرية التى سادت تلك الايام ، وجعلت الحياة ايسر مما كانت عليه خلال القرون الخمسة التى استغرقتها العهود المظلمة . ولم يكن من الامور الهينة ان يحمل على التحضر اهل الخدود الجفاة الذين قضوا معظم حياتهم فى القتال . فقد كان يغلب عليهم التقلب فى الراى : كانوا فى الصباح يقسمون صنوف الايمان على الشفقة بالناس والبر بهم ، ثم يقدمون فى المساء الى القضاء على اسراهم جميعا . غير ان التقدم يأتى دائما ابدا ثمرة العمل الوئيد المتواصل، وهكذا انتهى الامر بان حمل اشد الفرسان استهتارا بأوزاع الضمير الى الاستكانة الى احكام طائفتهم او احتمال عواقبها .

واختلفت هذه الأحكام باختلاف انحاء اوربا ، ولكنها كانت جميعا تجل الخدمة والاخلاص للواجب . وكان اهل العصور الوسطى يعدون الخدمة شيئا نبيلا غاية النبل وعملا طيبا غاية الطيبة ، فلم يكن يشين المرء ان يكون خادما مادام امينا فى عمله لايتوانى فى ادائه. اما الوفاء فكان اجل صفات المقاتل فى وقت كانت الحياة تعتمد فيه على إداء واجبات كثيرة غير محببة الى النفوس فى امانة واخلاص .

ومن ثم كان يطلب الى الفارس الشاب ان يقسم بان يكون خادما امينا لله وللملك ، وكان يعد الى ذلك بان يكون كريما يمد يد العون الى اولئك الذين تشتد حاجاتهم عن حاجاته ، وان يكون متواضعا فى سلوكه، والا يتفاخر بفعاله ، وان يكون عونا لكل من تنزل به شدة . وقد نما حول هذه الايمان مجموعة معقدة من الشيم والصفات كانت هى الوصايا العشر المصوغة

www.ibtesama.com/vb/

فى عبارة يسهل فهمها على أهل العصور الوسطى . وحاول الفرسان أن يصوغوا حياتهم على منوال اتباع آرثر الذين يطلق عليهم اسم أبطال المائدة المستديرة، ورجال بلاط شارلمان الذين أنباهم بخبرهم الشعراء المتجولون ، وهم أولئك الذين تستطيع أن تقرأ عنهم فى كثير من الكتب الشائقة .

وكان هم هؤلاء الفرسان ان يكونوا فى شجاعة لانسلوت وأمانة رولان ، فأخذوا يحملون انفسهم على الاعتزاز بالكرامة ويتخيرون الالفاظ المهذبة حتى يكونوا فرسانا جديرين بهذا الاسم مهما رثت ثيابهم وضاقت ذات يدهم . وهكذا أصبحت طائفة الفرسان مدرسة للخصال الحميدة التى لاغنى عنها لتيسير الحياة الاجتماعية ، وغدت الفروسية تدل على التأدب والمجاملة، واصبحت قلاع العصور الوسطى وحصونها تنبىء عن رقة الحاشية ودماثة الخلق ، كما أن قلعة الاقطاع أصبحت هاديا لسائر الناس تعلمهم كيف يلبسون وكيف يأكلون وكيف يطلبون من سيدة أن تراقصهم الى غير ذلك من دقائق آداب السلوك اليومية الكثيرة التى تجعل الحياة شائقة محببة .

وقد تلاشى نظام الفروسية شأنه شأن سائر الانظمة الانسانية بمجرد انتهاء الحاجة اليه . واعقب الحروب الصليبية ، التى سوف احدثك عنها فى فصل مقبل ، انتعاش كبير فى التجارة ، ونمت المدن فجأة ، واثرى سكانها، واستأجروا المدرسين الكفاة، وسرعان ما أصبحوا للفرسان اندادا . ثم ان اختراع البارود قد جرد الفارس المثقل بدروعه من المميزات التى كانت له ، كما أن استخدام الجنود المرتزقة جعل من المحال الهيمنة على الوقعة الحربية كما يهيمن المرء على رقعة الشطرنج ، فغدا الفارس نافلة من النوافل ، وسرعان ما اصبح موضع السخرية لاستمساكه بمثل لم تعدلها اية قيمة عملية . ويقال ان النبيل **دون كيشوت ده لامانشا** كان آخر هؤلاء الفرسان بحق . وقد بيع درعه وسيفه بعد وفاته لتسديد ديونه .

والظاهر أن هذا السيف قد وقع فى يد عدد من الرجال على وجه من الوجوه، فقد حمله واشنطن خلال أيام وادى الفورج العصيبة ، كما كان عدة غوردون الوحيدة حينما أبى أن يتخلى عن القوم الذين ائتمنوه على حياتهم ، وظل فى قلعته المحاصرة بالخرطوم حتى لقى حتفه . على أننى لست واثقا كل الوثوق من ان السيف قد اثبت أنه سلاح لاغنى عنه فى كسب الحرب العالمية الأولى .

البابا يناهض الامبراطور

الولاء المزدوج العجيب الذى كان يدين به اهل العصور الوسطى ، وكيف ادى الى نزاع لاينقطع بين البابوات وبين اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

يعسر علينا غاية العسر ان نفهم أهل العصور الغابرة، فجدك الذى تراه كل يوم شخص يحف به الغموض ويعيش فى عالم من الأفكار والملابس والعادات والشمائل يختلف عن عالمك . وانا اقص عليك الآن قصة بعض أجدادك الذين مر عليهم خمسة وعشرون جيلا . ولا اتوقع انك سوف تدرك معنى ماسأكتبه الا بعد ان تعيد قراءة هذا الفصل عدة مرات . كان أوساط الناس فى العصور الوسطى يعيشون عيشة بسيطة كل البساطة خالية من الاحداث ، بل ان المواطن الحر منهم القادر على الرواح والمجىء بمحض ارادته كان لايغادر بيته الا نادرا . لم تكن هناك كتب مطبوعة ، اما المخطوطات فلم يتيسر منها الا القليل . وكنت تجد فى هذا المكان أو ذاك جماعة صغيرة من الرهبان ذوى الهمة يعلمون الناس القراءة والكتابة ، وشيئا من الحساب . اما العلوم والتاريخ والجغرافيا فكانت مطمورة تحت اطلال الاغريق والرومان .

وكان كل مايعرفه الناس عن الماضى قد عرفوه من سماعهم للقصص والأساطير، وهذه المعارف التى كانت تنتقل من الأب الى الابن ، يتناولها فى كثير من الاحيان تحريف يسير فى تفاصيلها ، ولكنها تحتفظ بحقائق التاريخ الكبرى على نحو من الدقة عجيب . وبعد نيف والفى سنة كانت الأمهات فى بلاد الهند مابرحن يخفن أولادهن المشاكسين بقولهن «سوف ياخذكم الاسكندر» والاسكندر هذا ماهو الا الاسكندر الأكبر الذى زار الهند عام ٣٣٠ قبل الميلاد وبقيت قصته حية خلال هذه الأعصر الطويلة .

ولم يشاهد الناس فى مستهل العصور الوسطى قط كتابا مدرسيا فى التاريخ الرومانى ، فقد كانوا يجهلون أشياء كثيرة يعرفها اليوم كل تلميذ قبل أن

www.ibtesama.com/vb/

يغادر المدرسة الاعدادية . غير أن الامبراطورية الرومانية ، وهى بالنسبة اليك مجرد اسم لاغير ، كانت بالنسبة اليهم شيئا يفيض بالحياة . كانوا يشعرون بهذه الامبراطورية ، ويعدون الباباعن طواعية واختيار رئيسهم الروحى ، لانه كان يعيش فى روما وتتمثل فيه فكرة السيادة الرومانية العليا . ومس جميل شارلمان حبات قلوبهم عندما أحيا هو واوتو الاكبر من بعده فكرة اقامة امبراطوريةعالمية وانشاء الامبراطورية الرومانية المقدسة حتى يعود العالم الى سابق عهده . على أن وجود وارثين لسنة هذه الامبراطورية الرومانية قد أوقع مواطنى المدن الأحرار من اهل العصور الوسطى فى مازق عسير . لقد كانت النظرية التى ينطوى عليها النظام السياسى فى العصور الوسطى نظرية سليمة بسيطة . فالامبراطور هو الرئيس الدنيوى : يعمل على اسعاد رعاياه،ويدبر امورهم الدنيوية . اما البابا،وهوالرئيس الروحى ، فكان يهدى نفوسهم الى الحق .

غير أن هذا النظام كان يسير من حيث العمل سيرا سيئا جدا ، فقد داب الامبراطور على محاولة التدخل فى شئون الكنيسة ، وكان البابا يرد عدوان الامبراطور فينبئه كيف يسوس املاكه ، ثم يطلب الواحد منهما من الآخر الا يتدخل فى شئون غيره فى لغة ابعد ماتكون عن اصول المجاملة . وقدتحرجت الامور بينهما ، وكانت النتيجة المحتومة قيام الحرب بين الطرفين .

وفى وسط هذه الظروف وقف الناس حيارى لا يدرون ماذا يفعلون ، فقد كان المسيحى المخلص يطيع البابا والامبراطور ، ولكن البابا والامبراطوركانا فى خصام ، فلميدرالمواطن الحريص على اداء واجباته ، او المسيحى المخلص الى اى طرف ينحاز . لم يكن من اليسير قط الادلاء فى ذلك بالراى الصحيح . فاذا اتفق أن كان الامبراطور رجلا موفور النشاط عنده من المال ما يسمح له باعداد جيش فانه فى اغلب الاحيان يعبر الالب ويسير الى روما ثم يحاصر البابا فى قصره اذا لزم الامر ، ويجبر قداسته على اطاعة اوامر الامبراطور ، والا تحمل مغبة عصيانه هذه الاوامر .

ولكن البابا كان هو الجانب الاقوى فى معظم الاحيان ، لذلك نجده يحرم الامبراطور او الملك هو ورعاياه كافة من رعاية الكنيسة ، ومعنى ذلك اغلاق جميع الكنائس فى املاك الامبراطور أو الملك ، فلاتعميد لمولود ، ولا غفران لميت . وصفوة القول ان نصف مهام الحكومة فى العصور الوسطى كان يتعطل . وكان الناس الى ذلك يتحللون من يمين الولاء لملوكهم ، ويحرضون على الانتقاض على مولاهم ، ولكنهم كانوا اذا استمعوا لنصيحة البابا البعيد عن أوطانهم ثم انكشف أمرهم شنقهم أقرب حاكم ، وهذا بلاء شديد .

والحق ان هؤلاء المواطنين المساكين كانوا فى موقف عصيب ، فلم يكن ثمة اسوا حالا من اولئك الذين عاشوا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، عند ما اشتبك امبراطور المانيا هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع فى حربين عظميين لم يخرجا منهما بطائل اللهم الا القضاء على السلام فى ربوع اوربا خمسين سنة تقريبا .

وقامت فى منتصف القرن الحادى عشر حركة قوية ترمى الى اصلاح الكنيسة ، فقد كانت طريقة انتخاب البابا حتى ذلك الحين شاذة كل الشذوذ ، لا تسير على نهج مرسوم . وكان من صالح اباطرة الامبرطورية الرومانية المقدسة ان يكون على الكرسى البابوى رجل موال لهم ، فكانوا يحضرون الى روما فى كثير من الاحيان وقت انتخاب البابا ، ويستخدمون نفوذهم فى اجلاس احد الموالين لهم على عرش البابوية .

وتغير هذا النظام عام ١٠٥٩ اذ اصدر البابا نقولا الثانى مرسوما انتظم بمقتضاه القساوسة الكبار والشمامسة بكنيسة روما وما حولها فى هيئة تعرف باسم مجلس الكرادلة ، واعطى لهذه الهيئة الكنسية الجليلة الحق المطلق فى اختيار البابوات فيما بعد .

وفى عام ١٠٧٣ اختار مجلس الكرادلة قسا يدعى هيلد براند لكرسى البابوية ، وهو رجل انحدر من ابوين رقيقى الحال من اهالى توسكانيا ، ولقب بجريجورى السابع . وكان هذا البابا موفور النشاط لا يكل ولا يمل . وكان ايمانه بما لمنصبه المقدس من سلطات عليا يقوم على عقيدته الراسخة وشجاعته الفائقة . فقد كان يرى ان البابا ليس الرئيس المطلق للكنيسة المسيحية فحسب ، بل هو ايضا المرجع الاعلى لكل الشئون الدنيوية . فالبابا هو الذى يرفع الامراء الالمان البسطاء الى مرتبة الامبراطور ، ويستطيع ان يخلعهم وفق مشيئته . وهو يستطيع نقض اى قانون يبرمه الدوق او الملك أو الامبراطور ، ولكن الويل لكل من يناقش مرسوما بابويا ، فان العقاب يحل به سريعا بلا شفقة ولا رحمة .

وارسل جريجورى رسله الى جميع دول أوربا

www.ibtesama.com/vb/

لينبئوا ملوكها بقوانين البابا الجديدة ، ويطلبوا منهم العلم بما جاء فيها . ووعد وليم الفاتح بأن يكون مخلصا للبابا . اما هنرى الرابع ، الذى كان منذ السادسة من عمره فى حرب مع رعاياه ، فلم تكن عنده نية الخضوع لمشيئة البابا . ذلك انه جمع مجلسا من اساقفة المانيا ، ولم يترك جريمة الا اتهم بها البابا ، ثم خلعه على يد مجلس وورمز .

ورد عليه البابا بحرمانه من الكنيسة ، وطلب من امراء المانيا التملص من سيادة هذا الحاكم غير الجدير بمنصبه . وكان هؤلاء الامراء يودون من صميم قلوبهم الخلاص من هنرى ، فسألوا البابا ان يحضر الى اوجسبرج لمساعدتهم فى انتخاب امبراطور جديد . وغادر جريجورى روما وسافر نحو الشمال . ولم يكن هنرى بالرجل الغر ، فقد ادرك حرج مركزه ، فرأى ان يسوى الامر مع البابا بجميع الوسائل ، وان يفعل ذلك من فوره . فعبر هنرى جبال الالب فى عز الشتاء ، واسرع الى كانوسا ، حيث كان البابا قد توقف عن رحلته الى حين ، طلبا للراحة . وظل هنرى واقفا ثلاثة ايام بطولها ، اى من ٢٥ الى ٢٨ يناير سنة ١٠٧٧ ، امام ابواب حصن كانوسا ، وهو فى لباس الحاج النادم ، وان كان قد ارتدى دراعة تبعث الدفء تحت لباسه الكهنوتى .

واخيرا سمح له البابا بالمثول بين يديه ، وغفر له خطاياه . ولكن توبته لم تدم طويلا ، فما ان رجع

هنرى الرابع فى كانوسا

هنرى الى المانيا حتى عاد سيرته الاولى ، فجرمه البابا من رعاية الكنيسة مرة اخرى ، وقرر مجلس آخر من الاساقفة الالمان خلع جريجورى .

وفى هذه المرة عبر هنرى جبال الالب على راس جيش كبير حاصر به روما ، واجبر البابا على الانسحاب الى سالرنو حيث توفى فى منفاه . ولكن هذه الثورة العنيفة على البابا لم تحسم الامر اى حسم ، ذلك انه ما ان عاد هنرى الى المانيا حتى استؤنف النضال بين البابا والامبراطور .

كانت اسرة هوهنشتاوفن ، التى اعتلت العرش الامبراطورى فى المانيا بعد ذلك بوقت قصير ، اكثر استقلالا من اسلافها . لقد ادعى جريجورى ان البابوات اسمى مكانة من جميع الملوك ، لانهم هم المسئولون يوم القيامة عن سلوك جميع افراد رعيتهم ، والملوك من افراد هذه الرعية .

وقام فردريك هوهنشتاوفن . الذى اشتهر باسم بربروسة ، اى ذى اللحية الحمراء ، بالدعوة المناهضة لذلك ، وهى ان الامبراطورية قد اعفاها الله على سلفه ، ولما كانت هذه الامبراطورية تشمل ايطاليا وروما ، فانه بدا حملته لضم هذه الاقاليم المفقودة الى الدولة الشمالية . وغرق بربروسة فى آسيا الصغرى قضاء وقدرا خلال الحرب الصليبية الثالثة ، فتابع ولده فردريك الثانى الحرب ، وكان شابا نهل فى حداثته من مناهل الحضارة الاسلامية فى صقلية ، واتهمه البابوات بالمروق عن الدين . والحق ان فردريك كان يشعر شعورا قويا بالاحتقار الشديد لمسيحيى الشمال الغلاظ والفرسان الالمان الاجلاف والقساوسة الايطاليين الدساسين . ولكنه اصطنع الثقة وخرج فى الحرب الصليبية ، وانتزع بيت المقدس من ايدى المسلمين ، وتوج ملكا على هذه المدينة المقدسة . ولكن هذا الصنيع نفسه لم يرض البابوات ، فخلعوه واعطوا املاكه فى ايطاليا الى شارل صاحب انجو — وهو اخو لويس ملك فرنسا الذى اشتهر باسم القديس لويس — وادى هذا التصرف الى ازدياد القتال ، فان كونراد الخامس ابن كونراد الرابع — آخر ملوك اسرة هوهنشتاوفن ، حاول استعادة المملكة ، ولكنه هزم وقطع راسه فى نابلى . على ان الفرنسيين اسخطوا اهل صقلية سخطا شديدا فقتلوا عن آخرهم بعد ذلك بعشرين سنة فى صقلية فى اثناء ما يعرف فى التاريخ باسم صلاة المساء الصقلية .. وهكذا سارت الامور . ولم يهدا النزاع بين البابوات والاباطرة قط ، ولكن الخصمين تعلما بعد حين ان يدع كل منهما الآخر

www.ibtesama.com/vb/

وشانه . وفى عام ١٢٧٣ انتخب رودلف هابسبورج امبراطورا ، فلم يكلف نفسه عناء الذهاب الى روما ليتوج فيها ، ولم يعارض البابوات هذا الفعل منه ، وظلوا بدورهم بمناى عن سير الامور فى المانيا . وكان ذلك معناه قيام السلام بين البابا والامبراطور ، ولكن هذا السلام استغرق قرنين كاملين بددا فى حرب لا طائل من ورائها ، وكان من الممكن ان ينفقا فى تنظيم البلاد من الداخل . لقد كان ذلك كله ريحا خبيثة لم يفد منها احد خيرا . فقد اخذت المدن الايطالية الصغيرة توازن بين القوتين فى حرص ، وحاولت زيادة سلطانها واستقلالها على حساب الاباطرة والبابوات جميعا ، فلما بدا الهجوم على الأراضى المقدسة ، استطاعت هذه المدن أن تحل مشكلة نقل آلاف الحجاج الذين كانوا مشغوفين الى التماس الوسيلة للعبور الى هذه الاراضى المقدسة . وما ان انتهت هذه الحروب الصليبية حتى كانت هذه المدن الايطالية قد ازدادت منعة وثراء ، فتمكنت بفضل ذلك ، من تحدى البابا والامبراطور على حد سواء . لقد اقتتلت الكنيسة والدولة ففاز فريق آخر بالغنيمة ، واعنى به المدينة فى العصور الوسطى .

الحروب الصليبية

على ان هذا النضال على اختلاف انواعه تنوسى عندما استولى السلاجقة على الاراضى المقدسة ، وتدخلوا تدخلا خطيرا فى التجارة بين الشرق والغرب فهبت اوربا تحارب حرباً صليبية

كان السلام يرفرف بأجنحته على النصارى والمسلمين خلال قرون ثلاثة . وقد استولى المسلمون على الشام فى القرن السابع الميلادى ، ووقعت فى أيديهم الأراضى المقدسة . على انهم كانوا يعدون عيسى نبيا عظيما ، ولم يتدخلوا فى شئون الحجاج الراغبين فى الصلاة بالكنيسة التى شيدتها القديسة هيلانة ، والدة الامبراطور قسطنطين فى موضع القبر المقدس. وحدث فى مستهل القرن الحادى عشر أن اصبحت الكلمة العليا فى الدولة الاسلامية بآسيا الغربية لقبيلة تترية اصلها من برارى آسيا الموحشة ، تعرف باسم السلاجقة او الترك . وكانوا شعبا مسلما مؤمنا ، متحمسا لعقيدته ، أوقفوا اطماع الدولة البوزنطية ، وحموا بلاد الاسلام من غاراتها ، واستولوا على آسيا الصغرى ، وتصدوا لحماية الاسلام ، واعادة النظام الى بلاده . وازاء ذلك النشاط شعرت الدولة البوزنطية انها فى خطر ، فقد اصبحت حدود دولة الاسلام فى وسط اسيا الصغرى ، وانهزمت جيوش البوزنطيين فى كل موقعة ، وشعر الامبراطور **الكسيس** الذى لم يكن يعرف الا القليل عن آثار جيرانه المسيحيين فى الغرب بالحاجة الى عونهم ، فاستنجد بهم ، مبينا الاخطار التى تهدد أوربا اذا ما استولى الترك على القسطنطينية . وقد خشيت المدن الايطالية ، التى كانت قد انشأت لها مستعمرات على طول شواطىء آسيا الصغرى وفلسطين ، على ممتلكاتها ، فاخذت تقص قصصا مفزعة عن فظائع السلاجقة وما يقاسيه المسيحيون من عذاب ، فأثارت هذه القصص أهل أوربا جميعا .

وادرك البابا أوربان الثانى ، وكان رجلا فرنسيا من ريمس ، تلقى علومه فى دير كلونى المشهور الذى تعلم فيه البابا جريجورى السابع — ان الوقت قد حان للعمل . وكانت حالة أوربا العامة فى ذلك الوقت سيئة الى حد كبير ، اذ كانت الوسائل الزراعية البدائية التى لم تتغير منذ عهد الرومان ، قد ادت على الدوام الى ندرة الحاصلات الغذائية ، وكانت البطالة والجوع آخذين برقاب الناس ، وهما آفتان خليقتان بأن تنتهيا بهم الى السخط والشغب .

ومن هنا كان البابا يصور فى مجلس كليرمونت ، الذى عقد فى فرنسا عام ١٠٩٥ ، الفظائع الشنيعة التى حاقت بالاراضى المقدسة ، مطنبا فى وصف هذه الاراضى التى كانت تفيض باللبن والعسل منذ عهد موسى عليه السلام ، مناشدا فرسان فرنسا خاصة وشعوب أوربا عامة ، ان يتركوا نساءهم واطفالهم ، ويخلصوا فلسطين من أيدى الترك . وطغت على أوربا موجة من الهياج الدينى ، وخرج الجميع من عقولهم . فكان الناس يتركون مطارقهم ومناشيرهم ويخرجون من حوانيتهم متلمسين اقرب الطرق نحو الشرق ، سعيا الى قتال الترك . وكان الصبيان يؤثرون ترك بيوتهم والذهاب الى فلسطين لاخضاع الترك ، مدفوعين الى ذلك بحماسة الشباب وورعهم الدينى . ولم تكتحل انظار تسعين فى المائة من هؤلاء

www.ibtesama.com/vb/

المتحمسين برؤية الاراضى المقدسة ، فلم يكن لديهم من المال ما يسمح لهم بذلك . ولم يجدوا مناصا من التسول او السرقة امساكا لاودهم ، فاصبحوا خطرا يهدد سلامة الطرق العامة ، وهب اهل الريف المغضبون لقتالهم .

الحملة الصليبية الاولى

وكانت الحملة الصليبية الاولى جماعة من اوشاب النصارى ، ومن اولئك الذين وقعوا فى براثن الافلاس ، ومن طائفة من النبلاء المعدمين ، واخرى من الهاربين من وجه العدالة ، يسيرون جميعا وراء بطرس الراهب المتهوس وولتر المفلس . وبداوا حملتهم على الأراضى المقدسة بقتل جميع اليهود الذين صادفوهم فى طريقهم ، وما ان بلغوا بلاد المجر حتى قتلوا عن آخرهم .

وكانت هذه التجربة درسا للكنيسة . اذ ان الحماسة وحدها لا تكفى لتحرير الاراضى المقدسة ، فقد كان الامر يقتضى النظام ، كما يقتضى صدق العزيمة والشجاعة . وانفق المسيحيون عاما فى تدريب جيش عدته ٢٠٠ الف مقاتل وتجهيزه ، وامروا عليه جودفرى صاحب بويون وروبرت دوق نورماندى ، وروبرت كونت الفلاندر وعددا آخر من الاشراف المتمرسين فى فنون القتال .

وفى عام ١٠٩٦ خرجت هذه الحملة الصليبية الثانية فى رحلتها الطويلة ، وقدم الفرسان ولاءهم للامبراطور فى القسطنطينية ... ذلك ان التقاليد كما اخبرتكم ، لا تدول سريعا ، ومن ثم كان الامبراطور الرومانى موضع احترام الناس العظيم ، وان كان فقيرا لا حول له ولا طول . ثم عبروا البحر الى آسيا وحاربوا المسلمين الذين تصدوا لردهم ، واقتحموا بيت المقدس ، وذبحوا من اهلها المسلمين ٧٠ الفا فى يوم واحد ، وساروا الى القبر المقدس ليقدموا له آيات التمجيد والحمد وعيونهم تفيض بدموع الورع والعرفان بالجميل . ولكن الترك عادوا الى تنظيم صفوفهم بعد ان وصلتهم امدادات جديدة ، واستعادوا بيت المقدس ، وقتلوا بدورهم من تصدى لهم من اتباع الصليب . وقامت خلال القرنين التاليين سبع حملات صليبية اخرى ، فقد تعلم الصليبيون شيئا فشيئا اسرار الطريق ، فتبينوا ان الرحلة بالبر بطيئة غاية البطء ، محفوفة باشد المكاره ، فآثروا عبور جبال الالب ، ثم الذهاب الى جنوه او البندقية حيث يبحرون الى الشرق . ووجد البنادقة واهل جنوة ان مهمة نقل المسافرين عبر البحر المتوسط عمل مربح يدر عليهم الكثير ، فقد كانوا يتقاضون لقاء ذلك أجورا باهظة . فلما عجز الصليبيون الذين كان معظمهم قليل المال عن دفع هذه الاجور ، لم يكن من هؤلاء الايطاليين المستغلين الا ان تكرموا فسمحوا لهم بالعمل فى سبيل العبور ، فكان الصليبى يقاتل فترة من الوقت لصالح اصحاب السفينة التى سيعبر عليها نظير نقله من البندقية الى عكا . وهكذا وسعت البندقية املاكها الى حد كبير على شاطىء البحر الادرياوى وفى اليونان حيث غدت اثينا مستعمرة بندقية ، كما مدت رقعة املاكها فى جزائر قبرص وكريت ورودس .

على ان كل هذا لم يفد الا قليلا فى حل مشكلة الأراضى المقدسة . ذلك انه ما ان فترت الحماسة التى دبت فى نفوس المسيحيين اول الامر ، حتى غدا القيام برحلة صليبية قصيرة مجرد جزء متمم للتعليم الحر ، الذى يتثقف به كل شاب طيب الاعراق . ولكن الحماسة القديمة كانت قد ولت وذهبت ، ذلك ان الصليبيين بداوا قتالهم وهم يضمرون اشد البغض للمسلمين ، ويكنون أعظم الحب للشعوب النصرانية فى الدولة الرومانية الشرقية وفى ارمينية . ثم تغيرت قلوبهم تغيرا تاما ، فأخذوا يحتقرون الروم فى الدولة البوزنطية الذين كانوا يخدمونهم ويخونون دعوة الصليب فى كثير من الاحيان ، كما احتقروا الارمن وسائر شعوب البحر المتوسط ، وبداوا يقدرون خصال اعدائهم المسلمين الذين اثبتوا انهم ذوو مروءة وخصوم اشراف .

ومن الطبيعى ان العبرة لا تكون بالجهر بذلك ، ولكن الصليبى كان اذا عاد الى وطنه خليقا بان يتحلى بالشمائل التى عرفها فى عدوه المسلم الذى كان الفارس الغربى العادى بالقياس اليه لا يعدو ان يكون رجلا من رجال الريف الغلاظ . وقد نقل الصليبى معه ايضا طائفة من المواد الغذائية الجديدة مثل الخوخ والاسفاناخ

www.ibtesama.com/vb/

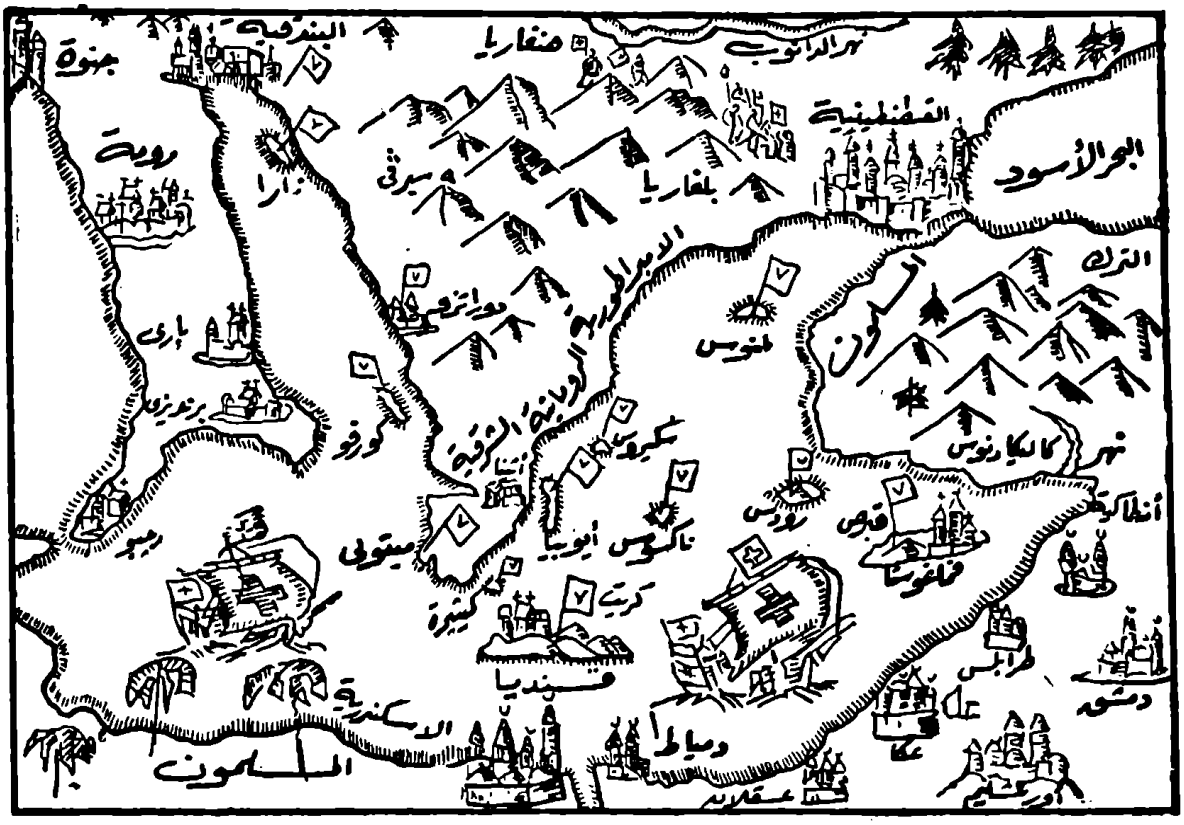

الحروب الصليبية

زرعها فى حديقته، واستغلها لنفسه ، وارتدى العباءات الضافية من الحرير والقطن المأثورة عن المسلمين .

والحق أن الحروب الصليبيـــة ، التى بدات فى صورة حملة لتاديب الاتراك السلاجقة ، اصبحت منهجا ثقافيا عاما يعـــلم ملايين من شباب اوربا معنى الحضارة .

وقد باءت الحروب الصليبية بالخيبة من الناحية الحربية والسياسية ، اذ استولى المسيحيون على بيت المقدس وعلى عدد من المدن الاخرى ، ثم ضاعت من أيديهم ثانية . وقامت عدة ممالك صغيرة فى الشام وفلسطين وآسيا الصغرى ، ولكن الترك اعادوا فتحها، وعادت حالة البلاد المقدسة بعد سنة ١٢٤٤ ـ وهى السنة التى دانت فيها بيت المقدس للمسلمين نهائيا ـ الى الحالة التى كانت عليها قبل عام ١٠٩٥ .

غير أن أوربا اصابها تغير كبير ، فقد اتيـح لاهل الغرب قبس من نور الشرق وشمسه وجمـــاله ، فاصبحوا لايرضـــون عن قلاعهم الموحشة ، وتطلعوا الى حياة ارحب وافســـح ، لا تستطيع الكنيسة ولا الدولة أن تهيئها لهم ، وقد وجدوا هذه الحيـاة فى المدن .

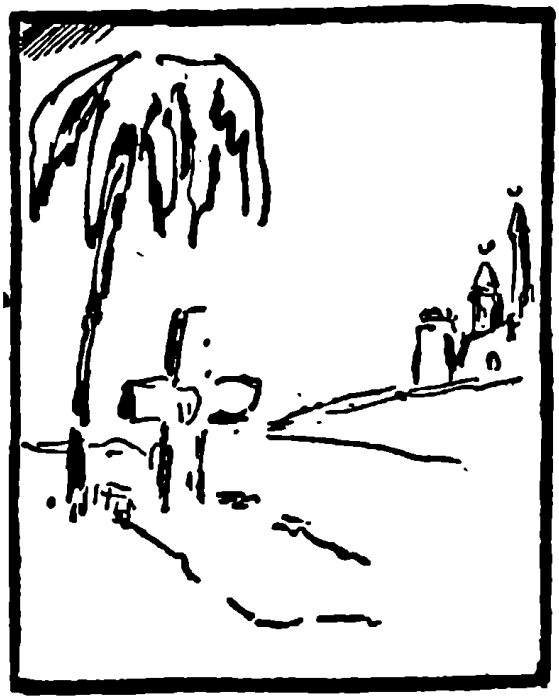

مقبرة مقاتل من الصليبيين

www.ibtesama.com/vb/

المدينة في العصور الوسطى

لماذا قال أهل العصور الوسطى : ان « هواء المدينة هواء طلق حر » ؟

لقد كان العهد الاول من العصور الوسطى عهد ارتياد واقامة ، فقد اندفع شعب جديد عاش حتى ذلك الحين ، خارج الغابات الموحشة والجبال والمستنقعات التى تحمى التخوم الشمالية الشرقية للامبراطورية الرومانية ، وشق طريقه الى سهول اوربا الغربية ، واستولى على معظم البلاد . وكان هذا الشعب لايقر له قرار ، شان جميع الرواد منذ اقدم العصور ، ولكنهم كانوا يحبون السعى والعمل ، فعمدوا الى قطع الغابات بنشاط ، كما اخذوا يقطعون رقاب بعضهم بعضا بهمة لا تقل عن ذلك . ورغب قليل منهم فى العيش بالمدن ، واصروا على ان يكونوا احرارا ، واحبوا ان يستمتعوا بهواء التلال النقى يملأ صدورهم ، وهم يسوقون قطعانهم مجتازين المراعى التى فى مهب الرياح . ولما سئموا السكنى فى مواطنهم القديمة شدوا رحالهم ، وانطلقوا يسعون الى مغامرات جديدة . وكان الموت نصيب الضعفاء منهم ، اما المحاربون الاشداء ، والنساء الجريئات اللائى تبعن رجالهن الى البرارى الموحشة ، فقد كتبت لهم الحياة . ومن ثم اقاموا شعبا قويا ، ولم يحفلوا الا قليلا بنعيم الحياة . وقد صرفتهم كثرة اعمالهم عن العزف على الكمان او نظم القصائد من الشعر ، وكانوا لا يميلون كثيرا الى المناقشة . وكان القس « عالم » القرية ، هو الشخص الذى يتوقع منه ان يحل جميع المشاكل التى لم تكن لها قيمة عملية مباشرة . ذلك أن الرجل من غير رجال الدين الذى يعرف القراءة والكتابة كان يعد قبل منتصف القرن الثالث عشر من المرفهين المدللين . وكان الزعيم الالمانى والبارون الفرنسى والدوق من اهل الشمال اوغير هؤلاء من حملة الالقاب ، قد استولوا فى الوقت نفسه على نصيبهم من الاراضى التى كانت فى وقت ما جزءا من الامبراطورية الرومانية العظيمة ، واقاموا وسط اطلال الماضى المجيد عالما خاصا بهم : رضواعنه اعظم الرضا ، ونظروا اليه نظرتهم الى شىء بلغ اعلى مراتب الكمال .

ولقد ساسوا شئون قلاعهم والاراضى المحيطة بها على خير ما وسعهم الجهد . وكانوا مخلصين لوصايا الكنيسة اخلاصا لا يطمع فى اكثر منه اى رجل فان لاحول له ولا قوة . وكانوا يبذلون للكهم اوامبراطورهم من الولاء ما يحفظ عليهم صلاتهم الطيبة باولئك

القلعة والمدينة

الاقيال الذين بعد مقرهم ، وان كانوا دائما ابدا مصدر خطر عليهم . وصفوة القول انهم حاولوا دائما ابدا أن يعاملوا جيرانهم معاملة تنطوى على الاستقامة والانصاف ، دون اجحاف بحقوقهم ومصالحهم .

ولم يكن العالم الذى الفوا انفسهم يعيشون فيه عالما مثاليا ، فقد كان معظم الشعب من رقيق الارض او المزارعين الذين كانوا متاعا للارض التى يعيشون فيها ، شأنهم فى ذلك شأن الابقار والاغنام التى يقاسمونها حظائرها . ولم يكن حظهم فى الحياة سعيدا كل السعادة ، او شقيا كل الشقاء ، ولكن ما الذى كان ينبغى على الواحد منهم ان يفعله ؟ . لقد كان الشريف الطيب الذى يحكم عالم العصور الوسطى يعمل دون شك على ما فيه الخير ، فاذا ما اقتضته حكمته أن يرى وجوب وجود فرسان ورقيق ارض ، فلم يكن من شأن هؤلاء النصارى المخلصين ان يسألوا عن

www.ibtesama.com/vb/

العلة في ذلك . فلم يكن هؤلاء الرقيق يشكون ، ولكنهم كانوا اذا اجهدوا هلكوا ، كما تنفق السائمة التي لاتطعم الطعام المناسب ولا تاوى الى الحظيرة المناسبة ، وعندئذ كان يتخذ بعض التدابير العاجلة لتحسين احوالهم . ولو ان تقدم العالم قد ترك امر تدبيره الى الرقيق وسيدهم الاقطاعي لكنا الى اليوم نعيش كما عاش اهل القرن الثاني عشر : نتمتم بالتعاويذ اذا شئنا التخلص من سن من اسناننا ، ونشعر بازدراء ومقت شديدين نحو طبيب الاسنان الذي يقدم لنا المعونة ، وهو على الاغلب من اصل اسلامي او شبه وثني ، وكلاهما كان في نظر القوم شريرا لانفع يرجى من ورائه .

ولسوف يتبين لك عندما يشتد عودك ، ان كثيرا من الناس لايؤمنون بالتقدم ، وانهم سيثبتون بما ياتيه بعض معاصرينا من شناعات ان العالم لايتغير .. ولكني آمل الا تحفل كثيرا بمثل هذه الاقاويل ، فلقد رايت كيف ان اسلافنا قد سلخوا نحو مليون سنة من اعمارهم ليتعلموا كيف يمشون على ارجلهم الخلفية ، ومرت قرون اخرى قبل ان يرقوا برطانتهم الشبيهة بلغة العجماوات الى لغة مفهومة ، وان الكتابة — وهي ذلك الفن الذي يحفظ افكارنا لخير الاجيال المقبلة ، والذي لولاه لما تيسر للعالم اي تقدم — لم تخترع الا منذ اربعة آلاف سنة فحسب ، كما ان فكرة تسخير قوى الطبيعة للانسان كانت فكرة جديدة في عهد اجدادك الاقربين . ومن ثم يظهر لي اننا نسير في سبيل التقدم بخطى لم يسبق بسرعتها من قبل . وربما تكون قد غالينا بعض المغالاة في الاهتمام باسباب النعيم المادي الخالص في الحياة ، ولكن الحال خليقة بان تتبدل في الوقت المناسب . وعندئذ سيوف نحل المشكلات التي لاتتصل بالصحة او الاجور والآلات بصفة عامة . ولكنني ارجو منك الا تستسلم لعواطفك اذ تنظر الى الايام الطيبة الغابرة ، ذلك ان كثيرا من الناس الذين لايرون الا الكنائس الجميلة والآثار الفنية العظيمة التي خلفتها لنا العصور الوسطى ، تفيض السنتهم بالكلام البليغ عندما يوازنون بينها وبين حضارتنا الكئيبة الحافلة بالعجلة والجلبة والروائح الكريهة التي تنبعث من عربات النقل الآلية ذات المحركات الخلفية في المدن التي كانت قائمة منذ الف من السنين . ولكن هذه الكنائس ، كنائس العصور الوسطى ، كان يحيط بها دائما اكواخ فقيرة تهد عمائر السكنى الحديثة بالقياس اليها قصورا فخمة .

والحق ان النبيل **لانسلوت** والنبيل **برسفال** الذي كان لايقل عنه حسبا ونسبا ، والبطل الشاب النقي

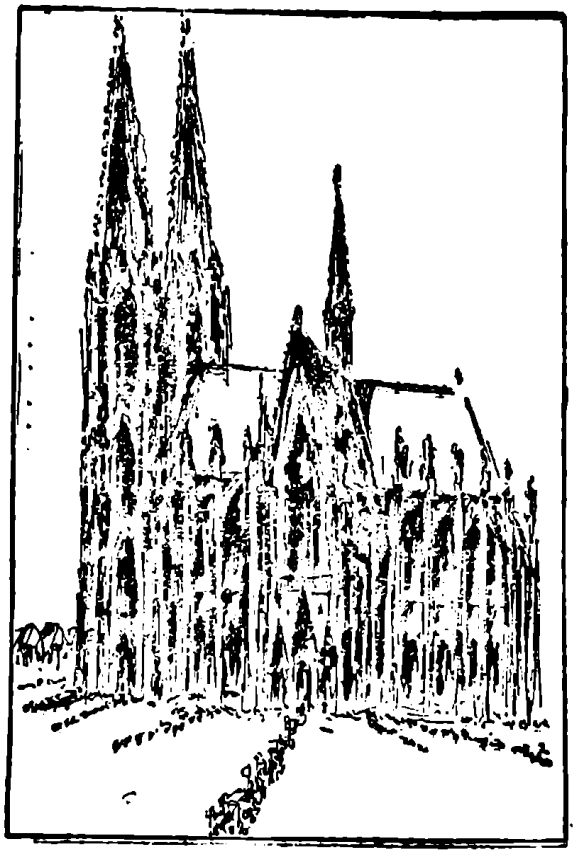

الكاتدرائية

الطاهر الذي خرج يسعى في سبيل الحصول على قصعة العشاء الرباني — لم يضيقوا برائحة البترول ، ولكن كانت هناك روائح اخرى انبعثت الوانا من الزرائب والفضلات المتعفنة التي كانت تلقى في الشوارع ، وروائح مرابط الخنازير المحيطة بقصر الاسقف ، وروائح اناس لايغتسلون ورثوا معاطفهم وقبعاتهم عن اجدادهم الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون . ولست اريد ان اصور لك العصور الوسطى في صورة مبغرة ، ولكنك لو قرات في الاخبار القديمة ان ملك فرنسا قد غشي عليه عندما كان ينظر من نافذة قصره من نتن رائحة الخنازير التي كانت ترعى في شوارع باريس ، او ذكر لك مخطوط قديم بعض التفصيلات عن الاوبئة والطواعين او مرض الجدري — لادركت ان التقدم شيء اكثر من كلمة بيانرة على الالسنة يرددها ارباب الدعاية المحدثون .

والواقع ان التقدم الذي حدث خلال القرون الستة الماضية ، لم يكن ليتيسر لولا وجود المدن . ومن ثم سأجعل هذا الفصل اطول قليلا من كثير من الفصول

www.ibtesama.com/vb/

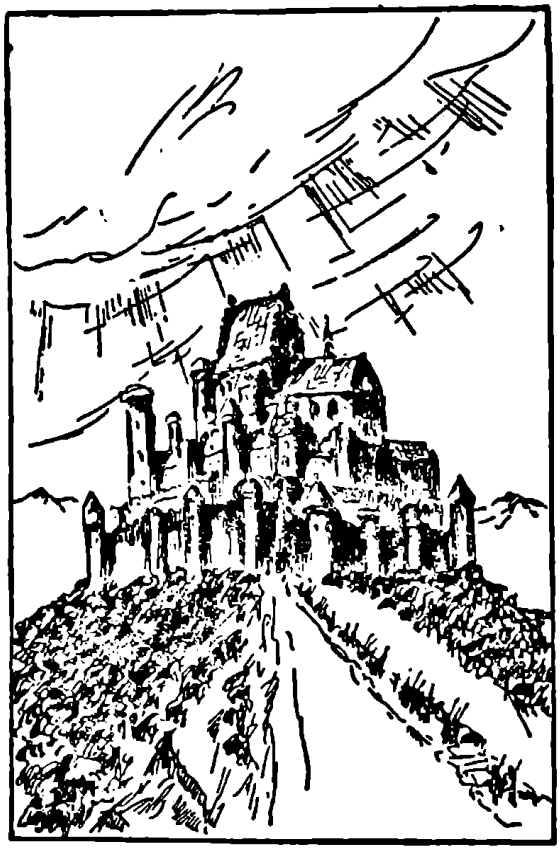

مدينة العصور الوسطى

الاخرى . ومن الاهمية بمكان ان نقصره على ثلاث صلات او اربع نخصصها للأحداث السياسية فحسب .

لقد كان العالم القديم لمصر وبابل واشور ، عالم مدن كما كانت اليونان قطرا مؤلفا من دول مدن . وتاريخ فينيقية تاريخ مدينتين اثنتين هما صيداء وصور . اما الامبراطورية الرومانية فكانت الارض المناوحة لمدينة واحدة . فالكتابة والفن والعلوم والفلك والعمارة والآداب والمسرح وغير ذلك مما لا حصر له ... كانت كلها من ثمار المدينة .

لقد ظلت الخلية التى نسميها المدينة طوال اربعة آلاف سنة مصنع العالم ، ثم اتى بعد ذلك عصر الهجرات الكبرى . وقد حل الدمار بالامبراطورية الرومانية واحرقت المدن ، فاصبحت اوربا مرة اخرى مراعى وقرى زراعية صغيرة . وفى خلال العصور الوسطى اهملت حقول الحضارة فاصبحت بورا . وهيأت الحروب الصليبية الارض لمحصول جديد ثم جاء وقت الحصاد .. ولكن الثمرة كان قد التقطها مواطنو المدن الحرة .

ولقد ذكرت لك فيما سبق قصة القلاع والاديرة وما يحيط بها من اسوار حجرية ضخمة ، وهى منازل الفرسان والرهبان الذين كانوا يرعون الناس جسما وروحا .

وقد رايت كيف أن عددا من الصناع واصحاب المهن : كالقصابين والخبازين ومن يقومون احيانا بصنع الشموع ، وفدوا للعيش بالقرب من هذه القلاع لتزويد من يعيشون فيها بحاجاتهم ، وللاحتماء بهم اذ ما ادلهم الخطر . وكان هؤلاء السادة فى بعض الأحيان يسمحون لهؤلاء الناس بأن يحيطوا بيوتهم بسياج ، ولكنهم كانوا يعتمدون فى حياتهم على حسن نوايا صاحب القلعة القوى . وكان اذا خرج متجولا انحنوا امامه وقبلوا يديه .

وجاءت الحروب الصليبية بعد ذلك ، فتغيرت امور كثيرة ، ذلك أن الهجرات قد ساقت الناس من الشمال الشرقى الى الغرب ، ودفعت الحروب الصليبية ملايين من الناس الى الرحلة من الغرب الى اقطار الجنوب الشرقى ذات الحضارة الرفيعة ، فتبين لهم أن العالم لا يقف عند حدود هذه الأسوار الأربعة التى تكتنف منازلهم الصغيرة . واخذوا يقدرون الملابس الجميلة والبيوت المريحة ، والصحاف الجديدة ، ومنتجات الشرق المحاط بالاسرار . فلما عادوا الى اوطانهم الاولى طالبوا بالحاح بأن يزودوا بمثل هذه الادوات . وكان من امر التاجر المتجول ـ وهو التاجر الوحيد فى العصور الوسطى ـ أن اضاف هذه السلع الجديدة الى محتويات حقيبته التى كان يحملها فوق ظهره ، واشترى عربة واستأجر نفرا من اولئك الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية لحمايته من موجة الاجرام التى اعقبت هذه الحروب الدولية الكبرى ، ثم اخذ يتاجر على نهج احدث واوسع نطاقا . ولم يكن عمله بالهين اليسير ، فقد كان عليه أن يدفع ضريبة الرءوس والمكوس كلما دخل ارض شريف جديد . على ان تجارته كانت مربحة ، ومن ثم استمر هذا التاجر فى تجواله .

وسرعان ما ادرك بعض التجار من ذوى الهمة ان هذه السلع التى كانوا دائما يستوردونها من اماكن بعيدة ، من الممكن صنعها فى بلادهم . ومن ثم احالوا جزءا من مساكنهم الى مصانع ، ثم تركوا التجارة واشتغلوا بالصناعة . وهم لم يقتصروا فى بيع منتجاتهم على رب الحصن او رئيس الدير ، ولكنهم اخذوا فى تصديرها الى المدن المجاورة .

وكان رب الحصن ورئيس الدير يدفعون اثمان مايشترون من نتاج مزارعهم ، اى من البيض والخمور

www.ibtesama.com/vb/

والعمل الذى كان يستعمل فى تلك الأيام بدلا من السكر . أما أهل المدن البعيدة فكانوا يضطرون الى دفع أثمان مايشترونه نقدا ، فبدا يتوفر للصانع والتاجر قطع قليلة من الذهب بدلت مكانتهمافى مجتمع العصور الوسطى الأولى تبديلا .

ومن العسير عليك ان تتصور عالما من غير نقود ، اذ لا يستطيع احد فى مدينة حديثة ان يعيش من غيرها . فانت تحمل معك طول يومك كيسا مليئا بقطع النقود المعدنية المستديرة تيسر لك قضاء ماتريد ، وانت محتاج الى الملاليم والقروش والخمسات ونصف الجنيه تشترى بها ورقا ، أو تركب بها قطارا ، أو ترامـا ، أو تدفع منها ثمن طعامك . ولكن كثيرا من أهل العهد المتقدم من العصور الوسطى لم يروا قط العملة منذ ولادتهم الى ساعة وفاتهم . لقد كان ذهب الاغريق والرومان وفضتهم مدفونين تحت أطلال مدنهم . وكان عالم الهجرات الذى اعقب سقوط الامبراطورية الرومانية عالما زراعيا ، فكان كل فلاح يزرع مايكفيه من الحبوب ويربى مايكفيه من الاغنام والأبقار .

وكان فارس العصور الوسطى سيدا من سادة الريف ، قلما تضطره الظروف الى دفع ثمن مايحتاجه نقدا ، اذ كانت أملاكه تنتج كل مايحتاجه هو واسرته من مأكل ومشرب وملبس . وكانت الأحجار اللازمة لحصنه تقتطع من التلال المجاورة ، والأخشاب اللازمة لعوارض بيته تؤخذ من أشجار غابة الشريف . أما المواد القليلة التى كان مضطرا الى استيرادها من الخارج فكان يقايض عليها بمنتجات مزارعه : اى من العسل والبيض واعواد الحطب .

غير ان الحروب الصليبية قلبت مألوف الحياة الزراعية راسا على عقب . ولنفرض ان دوق هلدشيم اخذ يرحل الى الأراضى المقدسة ، فان الامر يقتضيه أن يقطع آلاف الاميال ، وان يدفع رسوم العبور واجر المبيت . وهو ، فى وطنه ، يستطيع ان يدفع ثمن ذلك سلعا من منتجات مزارعه ، ولكنه لا يستطيع ان يحمل معه مئات من البيض ، وعربة محملة بلحم الخنزير ، لكى يرضى بذلك جشع وكالات السفن فى البندقية ، او صاحب الخان فى ممر برنر . فقد كان هؤلاء يصرون على الدفع نقدا . ومن ثم كان الدوق يضطر الى ان يحمل معه فى رحلته قدرا يسيرا من الذهب . ولكن من اين له هذا الذهب ؟ كان الدوق يستطيع ان يقترض هذا القدر من اللومبارد ، وهم سلالة اللنجوبارد القدماء الذين احترفوا مهنة اقراض النقود ، وكانوا يجلسون خلف موائد المبادلة التى كانت تعرف عادة باسم بنكو (Banco) او البنك (Bank) . وكانوا يرحبون باقراض هذا السيد بضع مئات من القطع الذهبية نظير رهن عقاراته حتى يضمنوا استرداد نقودهم اذا لقى هذا السيد حتفه على يد الترك .

وكان فى هذا النوع من العمل خطورة على المقترض ، وقد انتهى الامر بأن استولى اللومبارد فى جميع الاحوال على العقارات ، وافلس الفرسان واصبح الواحد منهم يؤجر نفسه مقاتلا لمن هو اقوى منه واكثر حذرا .

وكان فى استطاعة ذلك السيد ايضا ان يذهب الى حى المدينة الذى اجبر اليهود على سكناه ، وهناك يستطيع الاقتراض بفائدة قدرها خمسون أو ستون فى المائة ، وهذه ايضا صفقة خاسرة . ولكن هل كان هناك مخرج آخر ؟ كان بعض أهل المدينة الصغيرة المحيطة بالحصن يملكون مالا على ما يقال ، وكانوا على دراية بكل الظروف المحيطة بالسيد الشاب ، فقد كان أبوه على صلات طيبة بآبائهم ، وهم من أجل ذلك لا يشتطون فى طلباتهم . ومن ثم كان النبيل يرسل كاتبه — وهو راهب يعرف الكتابة وله دراية بالحساب — الى اشهر التجار فى المدينة ، سائلا اياهم قرضا صغيرا لسيده . وكان أهل المدينة يجتمعون فى مصنع الصائغ الذى يصنع كؤوس العشاء الربانى للكنائس القريبة ، وينظرون فى طلب النبيل ، وكان لا يسعهم رفضه ، لانهم لم يكونوا يرجون نفعا اذا هم طلبوا منه فائدة على ما يقرضونه من مال . لأن هذا كان يتنافى ومبادىء الدين ، ثم انهم كانوا لا ينتظرون قط الحصول عليها الا من المنتجات الزراعية ، وكان لديهم منها شىء كثير يفيض عن حاجتهم . ولكن لنفرض ان الحائك الذى ينفق ايامه جالسا فى هدوء الى مائدته ، ويصطنع نظرة الفلاسفة فى بعض تفكيره ، قد انشأ يقول : هب اننا طلبنا من السيد بعض المنح نظير نقودنا التى نقرضه اياها ، ونحن جميعا مغرمون بصيد السمك ، ولكن السيد لا يسمح لأحد بالصيد فى غدرانه . وهب ايضا اننا اقرضناه مائة دوقية ، واعطانا نظير ذلك وثيقة مكتوبة تسمح لنا بالصيد كما نشاء فى انهاره ، فان الامر ينتهى بأن يحصل هو على المائة دوقية التى يريدها ، ونحصل نحن على السمك ... وتلك صفقة حسنة من جميع الوجوه .

وفى اليوم الذى يقبل فيه السيد هذا الاقتراح — وهو فيما يظهر طريقة سهلة للحصول على مائة قطعة

www.ibtesama.com/vb/

ذهبية ـ فانه يوقع بيمينه صك القضاء على سلطانه، ويقوم الكاتب بكتابة نص الاتفاق ، ويمهره السيد بخاتمه لانه كان لا يستطيع ان يكتب اسمه ، ثم ياخذ المائة دوقية ويرحل الى الشرق .

ويعود السيد بعد ذلك من المشرق خالى الوفاض، فيجد اهل المدينة يصطادون السمك من بركة قلعته ، فيضيق بذلك الصنف من الصيادين الصامتين ، فيامر كبير خدمه بطردهم ... فينصرفون .

وفى المساء يحضر الى القلعة وفد من التجار لزيارة القلعة ، ويصطنع هذا الوفد منتهى الادب مع النبيل. فيهنئون عظمته بسلامة الوصول ، ويبدون اسفهم لازعاج الصيادين له ، ولكنهم يذكرون عظمته بانه قد سمح لهم بالصيد من البركة . وعند ذلك يقدم الحائك الوثيقة التى احتفظ بها الصائغ فى صندوقه منذ رحيل عظمته الى الأراضى المقدسة .

ويضيق النبيل بذلك أشد الضيق ، ولكنه كان فى حوزة سلفسترده مديشى المالى الشهير . وهذه عددا من الوثائق وهو فى ايطاليا ، وقد أصبحت الآن فى حوزة سلفسترده مديشى المالى الشهير . وهذه الوثائق سفاتج مستحقة الدفع بعد شهرين ، ومجموع قيمتها ٣٤٥ جنيها من الذهب الفلمنكى . وكان الفارس النبيل لايستطيع ازاء هذه الظروف أن يبدى الغضب الذى امتلأ به قلبه ، ويفصح عما فى نفسه المنطوية على الكبر ، فيكظم غيظه ، ويطلب قرضا صغيرا آخر ، فيعود التجار ادراجهم لبحث هذه المسألة .

وبعد أيام ثلاثة يعود التجار ويوافقون على طلبه ، ويبدون ان نفوسهم تفيض بالسعادة اذ قيض لهم ان يمدوا يد العون لسيدهم فى شدته ، ولكنهم يستميحونه أن يعدهم لقاء اقراضهم اياه ٣٤٥ جنيها ذهبيا ، وعدا مكتوبا يبيح لأهل المدينة اقامة مجلس منهم ينتخب أعضاءه جميع التجار والمواطنين الأحرار فيها ، وان يصرف هذا المجلس شئون المدينة دون تدخل من جانب صاحب القلعة .

ويستبد الغضب بعظمته ... ولكنه فى حاجة الى المال ، فيذعن لمشيئتهم ، ويمهر الوثيقة بخاتمه .

وفى الأسبوع التالى يندم على مافعل ، فيدعو جنوده ويذهب الى بيت الصائغ ويسأله رد الوثيقة التى استدرجه رعاياه أصحاب الدهاء الى توقيعها تحت ضغط الظروف الملحة ، فيأخذها منه ويحرقها . ويقف أهل المدينة أمامه صامتين لاينبسون ببنت شفة ، ولكن عظمته اذا عاد وسألهم المال لدفع بائنة ابنته ، فلا يستطيع الحصول على فلس واحد . ذلك أن ثقتهم به تكون قد تزعزعت بعد أن بدر منه مابدر عند الصائغ . فيضطر الى الاذعان ، ويبدى استعداده لاصلاح الأمور ، ويحصل اهل المدينة مرة اخرى ـ قبل اعطائه القسط الأول من المال المطلوب ـ على جميع وثائقهم القديمة ، وعلى وثائق اخرى جديدة تبيح لهم بناء مجلس بلدى وبرج حصين تحفظ فيه جميع هذه الوثائق حتى يأمنوا عليها من الحريق أو السرقة . والحق أن قصدهم من ذلك كان حمايتها من أن ينتزعها منهم النبيل أو اتباعه المسلحون قوة واقتدارا .

هذا مجمل ماكان يحدث خلال القرون التى تلت الحروب الصليبية . لقد كان الأمر يتم فى خطوات وئيدة ، أدت الى انتقال السلطان من الحصن الى المدينة شيئا فشيئا . وقد حدث بعض القتال فى سبيل ذلك ،

البارود

وقتل نفر من الحائكين والصياغ ، كما احرقت بعض الحصون ، ولكن ذلك كان قليل الحدوث . وازدادت المدن ثراء كما ازداد أرباب العهد الاقطاعى فقرا ، من غير أن يشعر بذلك أحد تقريبا . وحاول النبلاء تعزيز مراكزهم ، فكانوا يضطرون دائما الى منح وثائق الحرية المدنية لرعاياهم لقاء مايأخذنه من مال مدفوع . واتسعت رقعة المدن ، وآوت الآبقين من رقيق الأرض الذين نالوا حريتهم بعد أن عاشوا عددا من السنين

www.ibtesama.com/vb/

وراء اسوار المدينة . وغدت هذه المدن موطن العناصر الناشطة الوافدة من الأرياف المجاورة لها ، فأخذت تعتز بما بلغته من شأن ، وافصحت عن سلطانها بما اقامته من كنائس وعمائر عامة حول السوق القديم الذى كان منذ قرون يقايض فيه على البيض والأغنام والعسل والملح .

ورغب اهل المدن فى تهيئة فرص الحياة الهنية لأبنائهم ، فاستحضروا الرهبان لتعليمهم . وكانوا اذا سمعوابرجل يستطيع رسم الصورعلى ألواح الخشب وعدوه بمعاش اذا هو قدم اليهم ، وغطى جدران كنائسهم وبلدياتهم بمشاهد من الكتاب المقدس .

وكان النبيل فى ذلك الوقت يعيش فى أبهاء قصره الموحشة : يشاهد بزوغ كل ذلك المجد ، ويتحسرعلى اليوم الذى مهر فيه بخاتمه لأول مرة تنازله عن امتياز واحد من امتيازاته وحقوقه الجليلة ، ولكن سلطانه كان قد ولى ، واصبح لا حول له ولا قوة .

واخذ اهل المدينة الذين امتلأت خزائنهم المتينة بالأموال يمسكون بتلابيبه ، فقد اصبحوا قوما احرارا متأهبين كل التأهب للاحتفاظ بما اكتسبوه بعرق جبينهم ، وخاضوا فى سبيله نضالا استمر اكثر من عشرة أجيال .

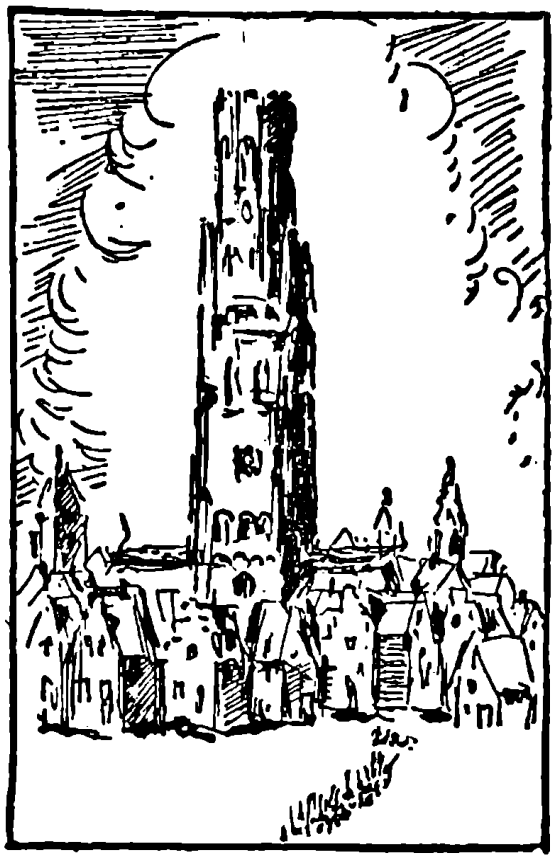

برج الناقوس

حكم الشعب فى العصور الوسطى

كيف قرر اهل المدن حقهم فى أن يسمع صوتهم فى المجالس الملكية فى بلادهم ؟

كان الناس جميعا سواسية ماداموا قبائل رحلا من الرعاة ، وكانوا بصفتهم هذه مسئولين جميعا عن أمن الجماعة كلها ورفاهيتها . فلما استقروا وغدا بعضهم غنيا والآخر فقيرا ، كان الحكم قمينا بأن يقع فى قبضة اولئك الذين لم يضطروا الى العمل لكسب معاشهم ، فاستطاعوا أن ينصرفوا الى شئون السياسة .

سبق أن ذكرت لك كيف حدث ذلك فى مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان وروما ، كما حدث بين الشعوب الجرمانية التى تقطن اوربا الغربية بعد أن عاد النظام اليها . وكان العالم الأوربى الغربى يحكمه بادىء الأمر امبراطور انتخبه الأمراء السبعة او الثمانية البارزون فى الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف للأمة الجرمانية ، وهم الذين كانوا يتمتعون من حيث الاسم بسلطان عظيم ، أما من حيث الفعل فكان سلطانهم ضئيلا .

وكان يحكم هذا العالم الاوربى عدد من الملوك يجلسون على عروش قلعة مزعزعة . وكان تصريف شئون الحكم كل يوم فى ايدى آلاف من الأمراء والحكام الاقطاعيين الصغار ، وكان رعاياهم يتألفون من رقيق الأرض او الفلاحين . ولم يكن هناك الا عدد قليل من المدن ، أما الطبقة المتوسطة فلم يكن لها وجود تقريبا .

وفى القرن الثالث عشر ظهرت الطبقة المتوسطة (وهى طبقة التجار) مرة اخرى على مسرح التاريخ بعد ان غابت عنه الف سنة تقريبا . وكان ازدياد سلطانها معناه تناقص نفوذ اهل الحصون والقلاع كما رأينا فى الفصل السابق .

www.ibtesama.com/vb/

وكان الملك فى ذلك الحين لايراعى فى حكمه لممتلكاته الا رغبات الأشراف والأساقفة ، ولكن العالم التجارى والصناعى الجديد الذى نشأ من الحروب الصليبية وضعه بين امرين : اما الاعتراف بالطبقة المتوسطة ، واماتحمل ماينجم عن ذلك من نقصان مستمر فى موارده. ولو ان الملوك اتبعوا رغباتهم الكامنة لما ترددوا فى استنزاف اموال فلاحيهم واموال مواطنى مدنهم الصالحين ، ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، فتجرعوا السم لانه كان ممزوجا بالعسل ، ولكنهم لم يتجرعوه من غير نضال .

ففى انكلترا وضعت مقاليد الحكم فى اثناء غيبة ريتشارد قلب الأسد فى البلاد المقدسة ، فى يد اخيه جون . ذلك ان ريتشارد كان قد رحل الى البلاد المقدسة ، وقضى جل رحلته الصليبية فى اسر النمسويين ، وكان جون اقل منه دراية بالشئون الحربية ، ولكنه كان يماثله فى سوء الحكم . وكانت فاتحة عهد جون الذى تولى فيه الملك نيابة عن اخيه مقرونة بضياع نورماندى والجزء الأكبر من ممتلكات انكلترا فى فرنسا . ثم أخذ جون يدخل فى نضال مع البابا اينوسنت الثالث عدو أسرة هوهنشتاوفن الشهير ، فحرمه البابا من الكنيسة كما حرم البابا جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بقرنين .

واضطر جون سنة ١٢١٣ ان يعقد صلحا مشينا مع البابا ، كما اضطر الى ذلك هنرى الرابع عام ١٠٧٧

ولم يبتئس جون لعجزه عن ادراك النجاح ، واستمر يسىء استعمال سلطته الملكية ، حتى هدده اقياله الساخطون ، واضطروه الى ان يعد بأن يحسن السيرة ، والا يعود قط الى التدخل فى حقوق رعاياه القديمة . وانتهى كل ذلك على جزيرة صغيرة بنهر التايمز بالقرب من قرية تعرف باسم رونيميد فى ١٥ يونية سنة ١٢١٥ . وتعرف الوثيقة التى وقعها جون باسم الوثيقة العظمى

ولم تأت هذه الوثيقة بجديد الا القليل ، فهى قد حددت مرة اخرى ـ فى عبارات قصيرة مستقيمة ـ واجبات الملك القديمة ، وعددت امتيازات اتباعه ، ولم تعن الا عناية قليلة بحقوق الاغلبية العظمى للشعب ـ ان كانت لهم حقوق ـ وهم الفلاحون ، ولكنها اعطت ضمانات لطبقة التجار الناشئة .

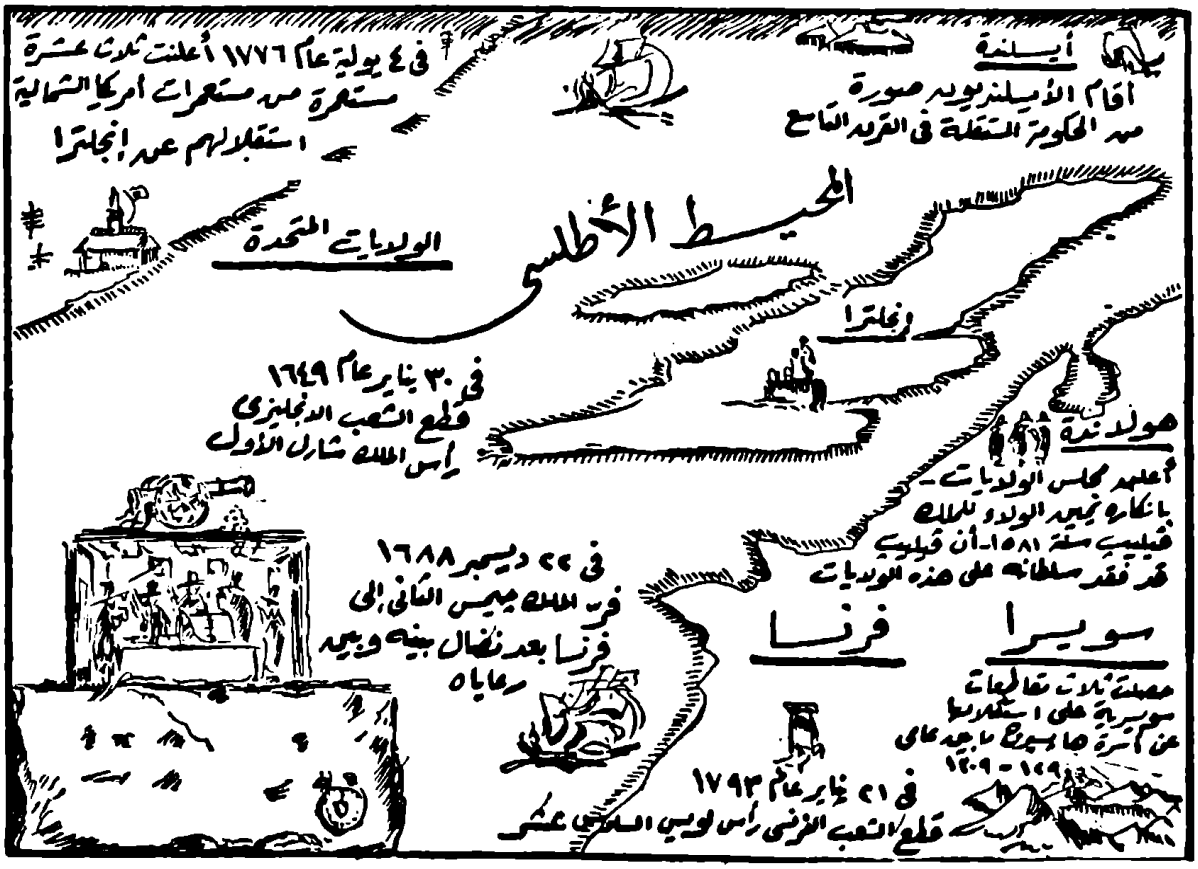

انتشار فكرة سيادة الشعب

www.ibtesama.com/vb/

وهذه الوثيقة على جانب كبير من الأهمية ، لانهـا حددت سلطة الملك تحديدا ادق مما كانت عليه فى اى زمن مضى . على انها كانت ـ ولاتزال ـ وثيقة من وثائق العصور الوسطى بحق ، فهى لم تشر الى سواد الناس الا اذا كانوا رعايا قيل من الاقيـال ، فيجب مـن ثم حمايتهم من استبداد الملكية كما تحمى غابات البارون وابقاره من حيف يقع عليهـا مـن جانب عمـال الملك القائمين على الغابات .

على اننا بدانا نسمع بعد ذلك بسنوات قلائل بنغمة مختلفة تتردد فى مجالس جلالته ، ذلك أن جون الذى كان فاسد المنشا سيىء الطبع ، قد اقسم يمينا مغلظة بأن يطيع هذه الوثيقة العظمى ، ولكنه اخل من بعد بكل حكم من احكامها الكثيرة .

ومن حسن الطالع ان جون توفى بعد ذلك بقليل وخلفه ولده هنرى الثالث ، فاضطر الى الاعتراف من جديد بهذا الميثاق . وكان العم ريشارد الصليبى قد انفق كاهل البلاد فى الوقت نفسه بما انفق من مال كثير ، فلم يجد الملك بدا من طلب قروض اخرى قليلة ، للوفاء بالتزاماته قبل الدائنين من اليهود . ولم يستطع كبار اصحاب الاراضى ولا الاساقفة ـ وهم مستشارو الملك ـ ان يزودوه بحاجته من الذهب والفضة . فأمر الملك بدعوة نفر من ممثلى المدن لحضور اجتماعات مجلسه الاكبر . وكان اول ظهورهم فى هذا المجلس عام ١٢٦٥ . وكان المفروض ان يحضر هؤلاء المجلس بوصفهم خبراء ماليين فحسب ، لا يشتركون فى المناقشة العامة لمسائل الدولة ، بل يقتصرون على تقديم مشورتهم فى مسائل الضرائب دون سواها .

على انه بمرور الزمن اصبح هؤلاء الممثلون للشعب يستشارون فى كثير من المسائل ، وتطور اجتماع النبلاء والاساقفة ونواب المدينة الى برلمان منظم ، وهو يدل فى انكلترا على مكان يتداول فيه الناس قبل ان يبرموا مسائل الدولة الهامة .

غير ان انشاء هيئة استشارية من هذا القبيل ، ليس من مبتكرات الانكليز كما يظن الناس ، كما ان الحكم بواسطة الملك وبرلمانه لم يكن باية حال نظاما مقصورا على الجزائر البريطانية وحدها ، بل انا لنجده فى كل جزء من اجزاء اوربا ..

فقد ادى ازدياد سلطة الملك بسرعة بعد العصور الوسطى فى بعض البلاد ـ مثل فرنسا ـ الى الاقلال من نفوذ البرلمان حتى اصبح لا حول له ولا قوة .

وفى عام ١٣٠٢ سمح لممثلى المدن بحضور اجتماع البرلمان الفرنسى . ولكن لم يبلغ هذا البرلمان من القوة ما يستطيع معه أن يقرر حقوق الطبقة الثالثة ، وزلزلة سلطة الملك ، الا بعد مرور خمسة قرون . وعند ذاك عوض هؤلاء الممثلون للمدن الزمن الذى فاتهم ، والفوا ابان الثورة الفرنسية .. الملكية ، وقضوا على رجال الدين والاشراف ، وجعلوا الشعب هو الحاكم للبلاد .

اعتزال الملك فيليب الثانى العرش

وفى اسبانيا فتح الملك ابواب مجلسه «الكورتيز» لممثلى الشعب منذ النصف الاول من القرن الثانى عشر .

وفى الامبراطورية الالمانية رفعت بعض المدن الهامة الى مرتبة المدن الامبراطورية ، وكان لممثليها الحق فى ان يستمع اليهم فى الدايت الامبراطورى . وحضر ممثلو الشعب فى السويد جلسات الركستاج فى اول اجتماع له عام ١٣٥٩ . واعيد فى الدانيمارك انشاء الجمعية الاهلية القديمة « دانهولف » سنة ١٣١٤ . ولم يحرم قط ممثلو المدن حرمانا تاما من سلطانهم ، على الرغم من ان الاشراف استعادوا فى كثير من الاحوال سيادتهم على البلاد على حساب الملك والشعب . اما فى البلاد الاسكندنافية فان قصة التمثيل البرلمانى قصة طريفة بوجه خاص ، فان جمعية الالتنج فى جزيرة ايسلندا ـ وهى الجمعية التى تضم اصحاب الاراضى الاحرار ، وتقوم بتدبير سياسة الجزيرة ـ بدات فى عقد اجتماعات دورية فى القرن التاسع ، واستمرت على هذه الحال اكثر من الف سنة .

وفى سويسرا نجح الاحرار من اهل المقاطعات المختلفة نجاحا عظيما فى كل المحاولات التى بذلها جيرانهم من الحكام الاقطاعيين فى القضاء على

www.ibtesama.com/vb/

موطن الحرية السويسرية

جمعياتهم . ونذكر آخر الامر أن مجالس الدوقيات والكونتيات على اختلاف انواعها فى الاراضى المنخفضة وفى هولندا ، كان يحضرها ممثلون للطبقة الوسطى منذ القرن الثالث عشر . وفى القرن السادس عشر ثار عدد من هذه الاقاليم الصغيرة فى وجه الملك ، واقسموا بأغلظ الايمان على خلع طاعته فى اجتماع رهيب بمجلس الشعب ، واقصوا رجال الدين عن حضور مناقشاته ، واطاحوا بسلطة النبلاء ، وجعلوا السلطة التنفيذية كلها فى ايدى جمهورية الاراضى المنخفضة السبع المتحدة المنشأة حديثا . وظل ممثلو مجالس المدن يحكمون البلاد قرنين من الزمان من غير ملك ، أو اساقفة أو نبلاء ، وهكذا اصبحت سيادة المدينة هى العليا ، وغدا هؤلاء المواطنون الصالحون هم حكام البلاد .

عالم العصور الوسطى

فكرة اهل العصور الوسطى عن العالم الذى قدر لهم ان يعيشوا فيه

التاريخ ابتكار مفيد جدا ، ذلك أننا لانستطيع أن نستغنى عنه ، ولكنه خليق بأن يضللنا اذا لم نصطنع معه الحذر الشديد . فهو يجعل كتابة التاريخ أعظم ما تكون دقة وتحديدا . مثال ذلك اننى عند ما أتحدث عن نظرة رجل من اهل العصور الوسطى ، فلست اعنى بذلك انه قد حدث فجاة فى يوم ٣١ ديسمبر من عام ٤٧٦ ان انطلق اهل اوربا جميعا يقولون « عجبا ، لقد انتهت الآن الامبراطورية الرومانية ، وها نحن أولاء نعيش فى العصور الوسطى» . لقد كنا نجد فى بلاط شارلمان الفرنجى رجالا يتخلقون باخلاق الرومان وشمائلهم ، وينظرون الى الحياة نظرة الرومان اليها . . على انك سوف تدرك اذا ما اشتد عودك ، أن بعضا من اهل هذا العالم لم يجاوزوا قط مرحلة انسان الكهوف ، ذلك أن جميع الازمان وجميع الدهور تتداخل بعضها فى بعض ، كما تتواشج الافكار بين الجيل والجيل . ولكنا نستطيع ان ندرس عقول طائفة من الناس يمثلون العصور الوسطى اصدق تمثيل . ويتيح لنا هذا أن نزودك بفكرة عن نظرة سواد الناس الى الحياة ، والى كثير من مشاكلها . ولنذكر اولا وقبل كل شىء ان اهل العصور الوسطى

www.ibtesama.com/vb/

لم يخطر على بالهم قط انهم مواطنـــون احرار ، يستطيعون ان يتنقلوا كيفما يشـــاءون ، ويكيفوا مصائرهم على قدراستطاعتهم او نشاطهم او حظهم ، بل كانوا جميعا على العكس من ذلك ، يعدون انفسهم جزءا من النظام العام للاشياء الذى يشمل الاباطرة ورقيق الارض والبابوات والزنادقة والابطال والأوغاد والاغنياء والفقراء والشحاذين واللصوص . وهم قد قبلوا هذا الحكم المقدس من غير مناقشة . وهم فى هذا يختلفون اختلافا بينا عن اناس العصر الحاضر الذين لا يسلمون بشىء ، والذين يسعون دائما الى تحسين احوالهم المادية والسياسية .

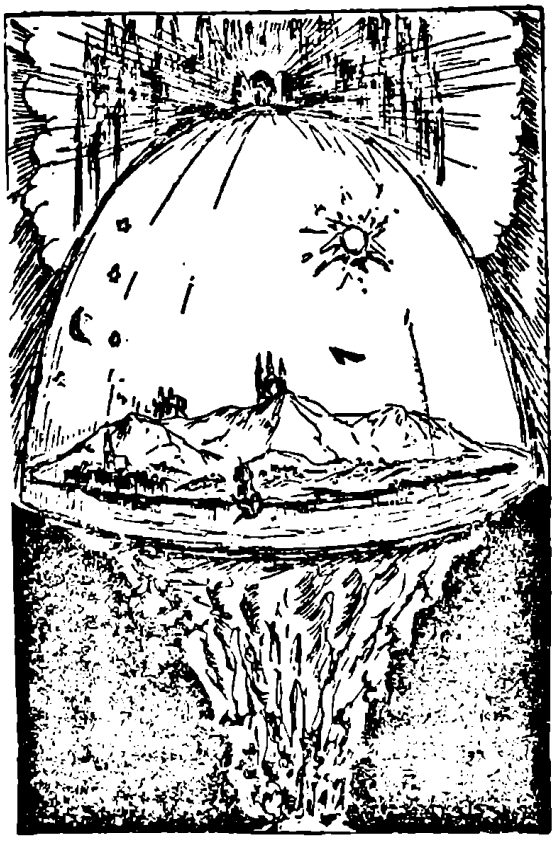

عالم العصور الوسطى

أما العالم الآخر فى نظر رجال القرن الثالث عشر ونسائه ، فسماء حافلة بعجائب اللذات وجحيم ملىء بالآلام ، وهو شىء اكثرمن الكلمات الجوفاء اوالعبارات الدينية الغامضة . فقد كان هذا اليوم الآخر امـرا واقعـا ، انفق مواطنو المدن والفرســان فى العصور الوسطى جل وقتهم فى التاهب له . اما نحن اهل العصر الحاضر ، فنصبو الى ميتة نبيلة بعد حيـاة موفقة،نلقاهاكما يلقاها قدماءاليونان والرومان بنفس راضية مطمئنة . نعيش ستين عاما نعمل ونكدح ، ثم نقضى حين نقضى والشـعور يخالجنا بأن الامور جميعا سوف تجرى على ما نحب ونهوى .

اما فى العصور الوسطى فقـد كان ملك الرعب ، بجمجمته المخيفة وعظامه المقعقعة ، يلازم الانســان لا يبغى عنه حولا ، يوقظ ضحاياه على انغام فيثارته المنكرة ، يجالسهم فى غدائهم ، ويرنو اليهم باسما من وراء الاشجار والشجيرات عندما يخرجون فى نزهة خلوية مع احدى الفتيات . ولو انك اقتصرت ، وانت بعد طفل صغير ، على سماع القصص المفزعة عن القبور وتوابيت الموتى والامراض الفتاكة ، ولم تسمع اساطير اندرسون او جريم ـ لقضيت عمرك كما قضاه لداتك من اهل العصور الوسطى ، تخاف اهوال الســاعة ويوم الحســاب . هذا هو ما كان يحدث بالضـبط للاطفال فى العصور الوسطى ، فقـد كانوا يروحون ويغدون فى عالم حافل بالشياطين والاشـــباح ، ولا يصادفون الا قليلا من الملائكة بين الحين والحين . وكان الخوف من المستقبل يملأ النفوس بالتواضع والورع حينا ، ويدفعها الى القسوة وسرعة الانفعال احيانا . كانوا يبادرون الى قتل جميع النساء والاطفال فى المدينة التى يستولون عليها ، ثم يسيرون خاشعين الى مكان مقـــدس ، وقد تخضبت ايديهم بدماء ضحاياهم الابرياء ، ويصلون لرب السماء الرحيم ، مبتهلين ان يغفر لهم خطاياهم . وقد لا يقتصر امرهم على الابتهال ، بل يذرفون الدمع سخينا ، ويعترفون بانهم اشد المذنبين خطيئة ، ولكنهم يعودون فى اليوم التالى فينقضون على معسكر من معسكرات المسلمين ويقتلونهم دون ان تأخذهم ادنى شفقة او رحمة .

على ان الصليبين كانوا بلا شك فرسانا يلتزمون قواعد خلقية مختلفة بعض الاختـلاف عما يلتزمه سواد الناس ، ومع ذلك فقد كان الرجل من هؤلاء يسير على سنة سيده سواء بسواء ، وكان الى ذلك أشبه بالجواد الخجول ، سرعان ما يجفل اذا بدا له ظل من الظلال ، او مرت به قصاصة تافهة من الورق : يؤدى أجل الخدمات فى امانة واخلاص ، ولكنه قد يركن الى الفرار ، وينزل بما يصادفه اشد الدمار اذا تراءى لخياله المحموم شبح من الاشباح . على ان واجب الحكمة يقتضينا عند الحكم على هؤلاء الناس الطيبين ان نذكر تلك الظروف القاسـية التى كانوا يعيشون فى كنفها . لقد كانوا فى حقيقة الامر برابرة ظهروا بمظهر المتحضرين . فشارلمان واوتو العظيم كانا يعرفان باسم « اباطرة الرومان » ولكنهما كانا

www.ibtesama.com/vb/

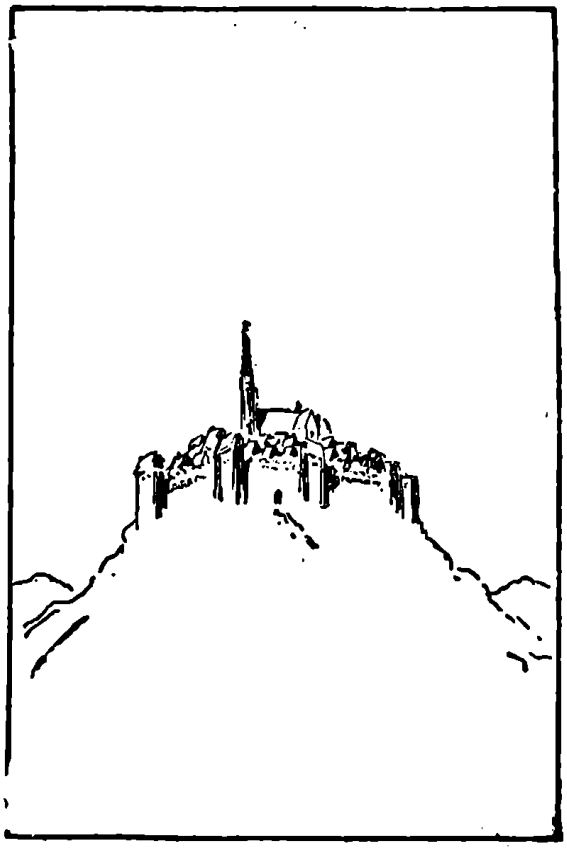

القلعة

لا يشبهان اباطرة الرومان الحقيقين مثل اغسطس او مرقس اوروليوس ، الا بمقدار ما يشبه الملك ومبا ومبا صاحب الكنغو الشمالية حكام السويد والدانمارك ذوى الثقافة العالية . لقد كانوا همجا يعيشون وسط اطلال حضارة مجيدة ، ولكنهم لم يفيدوا من الحضارة التى قضى عليها آباؤهم واجدادهم . ولم تكن لهم دراية بشيء ما ، فقد كانوا يجهلون جل الحقائق التى يعرفها الآن صبى فى الثانية عشرة من عمره . ولم يكن امامهم الا كتاب واحد يرجعون اليه فى كل ما يريدون معرفته ، الا وهو الكتاب المقدس . ولكن فصول العهد الجديد من الكتاب المقدس هى دون سواها ، الفصول التى اثرت فى تاريخ الجنس البشرى تأثيرا رقى به ، وهى التى علمتنا تلك الدروس الخلقية العظيمة فى الحب والبر والتسامح . ولم يكن الكتاب المقدس مرجعا متداولا يعتمد عليه كل الاعتماد فى علم الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والهندسة وغيرها من العلوم . وفى القرن الثانى عشر اضيف كتاب ثان الى مكتبة العصور الوسطى ، وهو موسوعة العلوم المفيدة التى وضعها ارسطو ، فيلسوف اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد . ولست ادرى فى الحقيقة لم كانت الكنيسة المسيحية راغبة فى ان تسبغ مثل هذا الشرف الرفيع على معلم الاسكندر الاكبر ، فى حين انها ذمت سائر الفلاسفة اليونانيين الاخرين بسبب عقائدهم الوثنية، ولكنها اعتبرت ارسطو المعلم الوحيد الموثوق به بعد الكتاب المقدس ، ولم تجد حرجا فى ان يتداول النصارى المؤمنون كتبه . ولقد وصلت مؤلفات ارسطو الى أوربا عن طريق غير مباشر ، اذ انتقلت من بلاد اليونان الى الاسكندرية ، ثم نقلت من اليونانية الى اللغة العربية على يد المسلمين الذين فتحوا مصر فى القرن السابع . وحملت هذه المؤلفات مع الجيوش الاسلامية الى الاندلس ، وكانت فلسفة هذا الاستاغيرى العظيم (نسبة الى استاغيرا من اعمال مقدونيا التى كان ارسطو من اهلها) تدرس فى جامعات العرب فى قرطبة . ثم ترجم النص العربى الى اللاتينية اولئك الطلبة النصارى الذين عبروا جبال البرانس ليدرسوا دراسة جامعة ، واخذت هذه الترجمة لكتب ارسطو المشهورة التى كثر انتقالها من مكان الى مكان ، تدرس آخر الامر فى المدارس على اختلافها فى شمال غربى اوربا ، ولم تكن هذه الترجمة واضحة كل الوضوح ، ولكن هذا الغموض زادها طرافة وتشويقا . واستعان ابرز رجال العصور الوسطى بالكتاب المقدس وارسطو ، وشرعوا فى تفسير كل ما بين السماء والارض من حيث صلته بالمشيئة الالهية . وكان هؤلاء الرجال النابهون ، او قل « المتكلمون » ــ وهو اللقب الذى عرفوا به ــ على حظ عظيم من الذكاء ، ولكنهم استقوا معارفهم من الكتب فحسب ، ولم يعتمدوا على الملاحظة اى اعتماد ، فكانوا اذا ارادوا ان يحاضروا عن الحفش (سمك يعيش فى البحر والنهر) او عن دودة الفراش ــ قراوا كل التوراة والانجيل وارسطو ، وقصوا على تلاميذهم جميع ما جاء عنها فى هذه الكتب الجليلة ، ولا يجشمون انفسهم مشقة الذهاب الى النهر لاصطياد حفش واحد ، او يتركون مكتباتهم ويلجأون الى الفناء الخلفى لاقتناص عدد من الفراش يراقبونه ويدرسونه فى بيئته الطبيعية . بل ان هؤلاء العلماء المشهورين امثال **البيرتوس ماجنوس** و**توماس الاكوينى** لم ينظروا هل كان حفش فلسطين وفراش مقدونيا يختلف عن حفش غربى أوربا وفراشها ؟

واذا اتفق ان قام بين العلماء رجل مشغوف بالبحث مثل **روجر باكون** ، واخذ يقوم بتجاربه مستعينا

www.ibtesama.com/vb/

بالمناظير المكبرة وتلك المجاهر الصغيرة العجيبة ، وجلب معه بالفعل الى غرفة المحاضرة الحفش ودودة الفراش ، واثبت انها تخالف الكائنات التى ورد ذكرها فى التوراة وكتب ارسطو ـ هز العلماء رؤوسهم الموقرة انكارا لقوله ، فقد جاوز باكون القصد . وعندما اجترأ على القول بأن ساعة تقضى فى الملاحظة العملية اجدى من دراسة عشر سنوات فى كتب ارسطو ، وأن مؤلفات هذا اليونانى المشهور كان من الاولى أن لاتترجم ، على الرغم من كل ما حققته من نفع . . . ذهب العلماء الى اولياء الامور وقالوا : هذا الرجل خطر يهدد سلامة الدولة ، فهو يريد منا أن نتعلم اليونانية حتى نستطيع قراءة كتب ارسطو فى لغتها الاصلية ، ونحن لا ندرى كيف لا نقنع بالتراجم اللاتينية التى نقلناها عن العربية ، وهى التراجم التى رضى عنها قومنا المؤمنون عدة مئات من السنين ؟ ولماذا هو مشغوف بالتغلغل فى اعماق الاسماك والحشرات ؟ لعله ساحر شرير يريد قلب النظام المقرر للاشياء بسحره الاسود . وقد دافع هؤلاء العلماء عن قضيتهم ببراعة حملت حفظة الامن على منع باكون من كتابة كلمة واحدة مدة تزيد على عشر سنوات . ولما استانف باكون دراساته كان قد تعلم درسا مفيدا ، اذ اخذ يكتب مؤلفاته برموز عجيبة اعجزت معاصريه عن حل طلاسمها ، وهى حيلة شاعت عندما شددت الكنيسة النكير فى محاولتها منع الناس عن اثارة المشاكل التى تؤدى بهم الى الشكوك والكفر .

على أن موقف الكنيسة هذا لم ينشأ من اية نزعة شريرة ترمى الى ابقاء الناس على جهلهم ، فقد كان الشعور الذى يدفع اولئك الذين يطاردون الزنادقة فى ذلك العصر شعورا طيبا حقا ، ذلك انهم كانوا يعتقدون اعتقادا وثيقا ، بل يعلمون أن هذه الحياة الدنيا مدخل لحياتنا الحقة فى العالم الآخر ، ومن ثم ايقنوا ان المعرفة اذا زادت عن حدها اقلقت راحة الناس ، وملأت عقولهم بالآراء الخطرة مما يؤدى بهم الى الشك ، ومن ثم الى التهلكة . وكان العالم فى العصور الوسطى اذا رأى احد تلاميذه يتحرر من سلطان الكتاب المقدس ومؤلفات ارسطو ، حتى يستطيع أن يدرس الاشياء لنفسه ، انتابه شعور بالقلق يشبه شعور الام ترى طفلها الصغير يقترب من موقد ملتهب ، ذلك انها تعلم انه سوف يحرق اصابعه الصغيرة اذا خلى بينه وبين لمس الموقد ، فتحاول ان تبعده عنه ولو ادى بها ذلك الى اصطناع الشدة ، ولكنها فى الواقع تحب طفلها ، وهو اذا اطاعها احاطته بكل ما فى وسعها من آيات الحب والحنان . وكان هذا شأن القوامين على نفوس الناس فى العصور الوسطى ، فقد كانوا متشددين فى جميع المسائل المتصلة بالعقيدة الدينية يواصلون الليل بالنهار ليؤدوا لرعاياهم اعظم ماوسعهم من خدمات ، وكانوا يمدون لهم يد المساعدة كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان مجتمع هذه الايام ينطق بفضل آلاف من الرجال الخيرين والنساء التقيات الذين حاولوا أن يخففوا عن سواد الناس ، ويعينوهم على تحمل مشاق الحياة بقدر المستطاع .

ولكن رقيق الارض لم يتغير قط ، وبقى مركزه على حاله ، أما السيد الصالح فى العصور الوسطى الذى سمح بأن يظل رقيق الارض عبدا طوال حياته ، فقد أفاء على هذا المخلوق الضعيف نفسا خالدة ، ومن ثم وجب ان يحفظ عليه حقوقه ، وان يعيش ويموت ، كما يعيش النصرانى الصالح ويموت . فاذا طعن فى السن ووهن منه العظم فعجز عن العمل ، فانه يجب على سيده أن يعنى بأمر ذلك الرجل الذى خدمه وعمل فى سبيله . ومن ثم لم يساور رقيق الارض الذى كانت حياته موحشة مملة ادنى خوف على مستقبله ، فقد كان يعلم انه آمن لا ينتظر ان يرمى به فى احضان البطالة ، وانه سوف يجد دائما ابدا سقفا يظله ـ وربما كان هذا السقف مهلهلا ، ولكنه سقف على كل حال ـ وطعاما يسد رمقه .

وكان هذا الشعور بالاستقرار والامن سائدا بين طبقات المجتمع كافة ، وقد اسس التجار والصناع فى المدن نقابات ضمنت لكل عضو فيها دخلا ثابتا ، وهى لم تشجع الطموح فيهم على ان يبز جيرانه ، وكثيرا ما كانت تستر على المتراخى الذى يتوانى فى عمله . ولكنها خلقت شعورا عاما بالرضا والطمأنينة بين الطبقات العاملة ، وهو امر لم نعد نجده فى ايامنا التى تسودها المنافسة . وقد الف اهل العصور الوسطى مخاطر ما نعرفه نحن معشر المحدثين بالاحتكارات ، اذ كثيرا ما كان يستحوذ احد الاغنياء على كل ما فى السوق من حبوب او صابون او سمك مملوح ، ويجبر الناس على الشراء منه بالاسعار التى يرتضيها ، لذلك كان اولو الامر لا يشجعون التجارة بالجملة ، ويحددون السعر الذى يرون أن يبيع به التجار سلعهم .

وكان اهل العصور الوسطى يكرهون المنافسة ، فما الذى يدعوهم اليها ويملأ حياتهم بالعجلة والتناظر والتزاحم بالاكتاف ، ويوم الحساب اقرب اليهم من حبل الوريد ، يوم لاتغنى عنهم ثروتهم ، ويوم يدخل

www.ibtesama.com/vb/

ورقيق الأرض الصالح النعيم ، ويزج بالفارس الشرير فى أعماق الجحيم ! .

وصفوة القول انه قد طلب من اهل العصور الوسطى ان ينزلوا عن شىء من حرية الفكر والعمل حتى يزدادوا أمانا من الفقر فى الجسم والنفس ، ولم يعترض اهل العصور الوسطى على ذلك الا فى القليل النادر ، اذكانوا يعتقدون اعتقادا جازما بانهم ليسوا الا ضيوفا على هذا الكوكب ، يتهيأون لحياة اعظم واشد خطرا ، فانصرفوا انصرافا تاما عن هذا العالم الملىء بالآلام والشرور والمظالم ، واقاموا بينهم وبين اشعة الشمس ستارا خشية أن تعمى أبصارهم عن سفر الرؤيا الذى ينبئهم بالنور الالهى الذى يفيض عليهم بالنعيم المقيم ، وحاولوا ان يغمضوا اعينهم عن معظم ملذات العالم الذى عاشوا فيه حتى يستطيعوا أن يستمتعوا بالملذات التى تنتظرهم فى غدهم القريب ، وهم قد ارتضوا الحياة الدنيا على أنها شر لابد منه ، ورحبوا بالموت على انه بداية لليوم المجيد الموعود .

اما الاغريق والرومان فلم يقلقوا انفسهم بالحياة المستقبلة ، بل حاولوا اقامة جنتهم فى هذا العالم الأرضى ، وقد افلحوا فى جعل الحياة ، مليئة بالبهجة والسرور فى عين اخوانهم فى الوطن الذين قدر لهم أن يولدوا فيه احرارا . ثم انتهى الأمر الى النقيض فى العصور الوسطى ، حيث اقام الرجل لنفسه جنة فيما وراء السموات العلى ، واحال دنياه الى واد من الآلام فى نظر الرفيع والوضيع ، والغنى والفقير ، والذكى والبليد ، ثم آن الآوان لرجحان الكفة الأخرى كما ساحدثكم فى الفصل التالى .

التجارة فى العصور الوسطى

كيف جعلت الحروب الصليبية البحر المتوسط مرة اخرى يعج بالحركة التجارية ، وكيف اصبحت مدن شبه الجزيرة الايطالية مركزا عظيما لتوزيع التجارة بين آسيا وافريقيا ؟

كان ثمة ثلاثة اسباب وجيهة جعلت المدن الايطالية اول مدن استعادت ، ابان القرون الوسطى المتاخرة ، ماكان لها من شأن عظيم . فقد استقرت الأمور فى شبه جزيرة ايطاليا على يد روما منذ عهد متقدم جدا ، فكان بها من الطرق والمدن والمدارس اكثر مما فى اية جهة اخرى فى اوربا .

وقد امعن البرابرة فى تحريق ايطاليا امعانهم فى تحريق غيرها من البلاد ، ولكن ماسلم من التدمير فيها كان اكثر مما سلم فى غيرها ، لأنها كانت اعمر بالنفائس واحفل بالآثار والمنشآت . ثم ان البابا كان يعيش فى ايطاليا وتتوالى عليه باستمرار مقادير عظيمة من المال ، لأنه كان على راس اداة سياسية كبرى تملك الأراضى ورقيق الأرض والعمائر والغابات والأنهار ، وتهيمن على مجالس القضاء . وكانت السلطات البابوية تفرض على الناس ان يدفعوا لها بالذهب والفضة ، كما كان يفعل التجار واصحاب السفن فى البندقية وجنوه . ومن ثم كان الناس يضطرون الى أن يستبدلوا بالأبقار والبيض والخيول وجميع المحصولات الزراعية فى الشمال والغرب نقدا يؤدون به ماعليهم من ديون لمدينة روما القاصية ، فاصبحت ايطاليا بذلك القطر الوحيد الذى يملك من الذهب والفضة اكثر من غيره .

ونذكر اخيرا ان المدن الايطالية كانت قد اصبحت ابان الحروب الصليبية المكان الذى يرحل منه الصليبيون الى الأراضى المقدسة ، لذلك اثرت هذه المدن ثراء فاحشا .

فلما انتهت الحروب الصليبية ظلت هذه المدن مراكز توزيع السلع الشرقية التى اخذ اهل اوربا يعتمدون عليها عندما كانوا يعيشون فى بلاد الشرق الأدنى .

ولم يشتهر من هذه المدن شهرة البندقية الا القليل ، فقد كانت البندقية جمهورية شيدت على شط غرينى ، فر اليها الناس من داخل البلاد خلال غزوات البرابرة فى القرن الرابع . ولما كان البحر يحيط بها من جميع الجهات فقد اشتغل اهلها باستخراج الملح . وكان الملح مادة نادرة الوجود خلال العصور الوسطى ، وكان ثمنه مرتفعا . وظلت البندقية عدة قرون محتكرة هذه المادة التى لاتستغنى عنها مائدة من موائد الطعام ، وذلك ان الانسان فى ذلك كالأغنام يمرض اذا لم يدخل فى طعامه قدر من الملح معلوم . واستغل الناس هذا الاحتكار ليزيدوا فى سلطان مدينتهم ، وقد اجترأوا فى بعض الأحيان على تحدى سلطان البابوات . ولقد اثرت هذه المدينة فاخذ اهلها فى بناء السفن التى اشتغلت بالتجارة مع المشرق ، كما استخدمت اثناء

www.ibtesama.com/vb/

الحروب الصليبية فى نقل المسافرين الى الأراضى المقدسة . وكان هؤلاء اذا ماعجزوا عن دفع اجور سفرهم الى المشرق نقدا اضطروا الى مساعدة البنادقة الذين كانوا دائبين على توسيع رقعة مستعمراتهم فى بحر ايجه وآسيا الصغرى ومصر .

وما ان اشرف القرن الرابع عشر على النهاية حتى كان عدد سكان البندقية قد بلغ مائتى الف نسمة مما جعلها اكبر مدينة فى العصور الوسطى . ولم يكن لاهل المدينة سلطان على حكومتهم التى كان يستأثر بها فئة قليلة من اسر التجار الاغنياء ، وكانت هذه الاسر تنتخب مجلس الشيوخ ودوقا (دوج) . على ان اعضاء مجلس العشرة المشهور كانوا هم الحكام الحقيقيين للمدينة . وقد استعان هؤلاء فى الاحتفاظ بسلطانهم بهيئة محكمة النظام من الجواسيس والسفاحين المحترفين ، وكان هؤلاء يراقبون جميع المواطنين ، ويتخلصون فى سكون من كل من عساه أن يكون خطرا على سلامة ذلك المجلس الذى يهيمن على الأمن العام ، والذى كان مطلق السلطان لاوازع له من ضمير أو خلق .

وكان فى مدينة فلورنسا حكومة على النقيض من حكومة البندقية ، كانت ديمقراطية متقلبة فى احوالها أشد التقلب . وكانت المدينة تسيطر على الطريق الاكبر الموصل من شمال اوربا الى روما ، وقد استغلت الاموال التى درها عليها المركز الاقتصادى الممتاز فى الصناعة . وحاول اهل فلورنسا السير على منهاج اثينا ، ذلك أن النبلاء والقساوسة واعضاء النقابات اشتركوا جميعا فى المناقشات الخاصة بالشئون المدنية ، فادى هذا الى اضطرابات مدنية شديدة . فقد كان اهلها ينقسمون على انفسهم دائما احزابا سياسية تصطرع فيما بينها اصطراعا مريرا حتى اذا تم لحزب منها الغلبة عمد الى نفى أعدائه فى المجلس ومصادرة أملاكهم . وانقضى على هذا الحكم الذى اقامته الدهماء عدة قرون ، ثم وقع ما لم يكن بد من وقوعه ، اذ استولت على مقاليد الحكم فى المدينة اسرة قوية ، بسطت سلطانها على ماجاورها من البقاع على مثال ماكان يفعل الطغاة الاغريق القدماء . وكانت هذه الأسرة تعرف بأسرة مديشى . وكان اعضاؤها الأولون يشتغلون بالطب ،

مراكز تجارة العصور الوسطى

www.ibtesama.com/vb/

وكان الطبيب فى اللغة اللاتينية يعرف باسم « مديكوس » (Medicus) ومن ثم عرفوا بهذا الاسم . واشتغلت هذه الاسرة بعد ذلك بالأعمال المصرفية . وكانت مصارفهم ومكاتب رهونهم منتشرة فى كل المراكز التجارية الهامة . بل انا نلاحظ حتى اليوم ان حوانيت الرهون تعلق الكرات الذهبية الثلاث التى كانت جزءا من شعار اسرة مديشى القوية التى حكمت فلورنسا ، واصهرت الى ملوك فرنسا ، ودفنت موتاها فى قبور تليق بقياصرة الرومان .

ثم قامت بعد ذلك مدينة جنوه ، وهى المنافسة الكبرى للبندقية ، وتخصص تجارها فى التجارة مع تونس بافريقيا ومع مراكز خزن الغلال على شواطىء البحر الاسود . وكان ثمة نيف ومائتا مدينة اخرى ما بين كبيرة وصغيرة ، وكانت كل واحدة منها وحدة تجارية كاملة تحارب جاراتها ومنافساتها حرب الجبران : تغلى مراجل حقدهم دائما ، وتعمل كل منها على سلب ارباح الاخرى .

وما ان وصلت منتجات الشرق وافريقية الى مراكز التوزيع هذه حتى الفت نفسها مضطرة الى التجهز للرحلة غربا وشمالا .

فحملت جنوة سلعها بحرا الى مرسيليا ، ومن هناك اعيد شحنها فى مراكب وجهتها المدن التى على نهر الرون ، وقد اصبحت هذه المدن ايضا اسواقا لشمالى فرنسا وغربيها .

واتخذت البندقية الطريق البرى الى شمالى اوربا وهو الطريق القديم الذى يخترق ممر برنر ، المنفذ القديم الذى اجتازه البرابرة الذين غزوا ايطاليا ، وكانت السلع بعد ان تصل الى اينسبروك تحمل الى بال ، ومن هناك تنقل بالمراكب التى كانت تسير فى نهر الرين الى بحر الشمال وانكلترا ، او تنقل الى اوجسبرج حيث اسرة فجر (Fugger) التى كانت تشتغل بأعمال الصيرفة والصناعة فى آن واحد ، والتى اثرت ثراء عظيما بابتزازها الأموال التى كانت تدفعها للعمال الذين يخدمونها . وكانت هذه الأسرة تشرف على توزيع هذه التجارة فى نورمبرج وليبسك ومدن البحر البلطى ، او تنقل هذه السلع الى وسبى فى جزيرة جتلند التى كانت تزود مدن القسم الشمالى من البحر البلطى بحاجاتها ، وتتعامل مباشرة مع جمهورية نوفجورود المركز التجارى القديم لروسيا ، وهو المركز الذى دمره ايفان الهائل فى منتصف القرن السادس عشر .

وكان للمدن الصغيرة على الشاطىء الشمالى الغربى لاوربا قصتها الطريفة الخاصة بها . فلقد كان اهل العصور الوسطى يستهلكون قدرا كبيرا من الاسماك ، وكان ثمة ايام كثيرة يصومونها ويحرم عليهم فيها اكل اللحوم ، ومن هنا كان اولئك الذين يعيشون منهم بعيدا عن الشواطىء والانهار يأكلون البيض اولا يجدون شيئا يأكلونه على الاطلاق . ولكن اتفق ان كشف صياد هولندى فى مستهل القرن الثالث عشر عن طريقة لتقديد الرنجة وتمليحها حتى يمكن نقلها الى مراكز الاستهلاك البعيدة ، وبهذا غدت مصائد الرنجة فى بحر الشمال على جانب كبير من الاهمية . ولكن حدث فى وقت ما من القرن الثالث عشر ان انتقل هذا السمك الصغير النافع ، لسبب خاص به ، من موطنه فى بحر الشمال الى البحر البلطى ، وبذلك بدأت المدن التى على هذا البحر تثرى وتجمع الاموال . وقد ادى هذا الى انتقال الناس الى البحر البلطى لصيد الرنجة . ولما كان هذا النوع من السمك لايصاد الا فى اشهر قليلة من السنة ، اذ كان يقضى بقية العام فى اغوار الماء مفرخا اسرابا هائلة من الرنجة الصغيرة ، فان سفن الصيد كانت تظل متعطلة عن العمل بقية ايام السنة الا اذا وجدت عملا آخر تعمل فيه . لذلك كانت تشتغل فى نقل غلال شمالى روسيا ووسطها الى الجهات الغربية والجنوبية من اوربا ، ثم تحمل فى عودتها بالافاوية والحرير والسجاجيد والمنسوجات الشرقية من البندقية وجنوة الى براغ وهمبورج وبريمن .

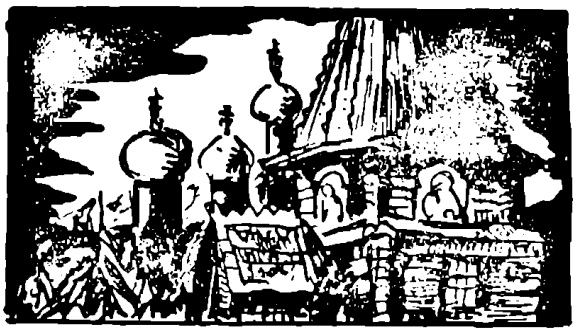

نوفجورود العظيمة

وقد تطورت هذه التجارة البسيطة فغدت حركة هامة للتجارة الدولية تبدأ من مدينتى براغ وغنت الصناعيتين (حيث قاتلت النقابات العظيمة فيها ملوك فرنسا وانكلترا فى معارك طاحنة ، واقامت نوعا من

www.ibtesama.com/vb/

الطغيان العمالى قضى قضاء مبرما على اصحاب العمل والعمال جميعا) حتى جمهورية نوفجورود فى شمالى روسيا ، وكانت مدينة عظيمة الى ان تولى الملك القيصر ايفان الهائل ، فتوجس من جميع التجار ، فاستولى عليها وقتل ستين الفا من اهلها فى اقل من شهر ، اما الذين نجوا من هذه المذبحة فقد نزلوا الى مرتبة المتسولين .

وانشأ تجار الشمال ـ حماية لانفسهم من القرصان ومن الضرائب الفادحة والتشريعات المجحفة بحقوقهم ـ اتحادا كان يعرف باسم الهنسا مقره مدينة لوبك. والهنسا اتحاد اختيارى كان يضم اكثر من مائة مدينة . وكان له اسطول خاص به يجوب البحار ، وقد حارب ملوك انكلترا والدانمرك وهزمهم عندما اجتراوا على تحيف الحقوق والمزايا التى كان يتمتع بها تجار حلف الهنسا .

سفينة حلف الهنسا

وكنت اود ان يتسع لى المجال فاقص عليك بعض القصص العجيبة عن تلك التجارة الغريبة التى كانت تنقل عبر الجبال وعبر البحار العميقة مستهدفة كثيرا من المخاطر حتى غدت كل رحلة من هذه الرحلات التجارية مغامرة مجيدة ، على ان هذا المقام يضيق بى عن رواية هذه القصص ، فهى تتطلب عدة مجلدات

ثم انى ارجو ان اكون قد ذكرت لك من انباء العصور الوسطى مايشوقك الى الاستزادة من القراءة عنها فى المؤلفات القيمة التى كتبت عن تلك العصور ، فالعصور الوسطى كانت ، كما حاولت ان ابين لك، عهد تقدم يتسم بالبطء الشديد ، وكان اولو الامر فى هذه العصور يعتقدون ان التقدم عمل مكروه من اعمال الشيطان يجب صرف الناس عنه . وكان توليهم مقاليد السلطة قد يسر عليهم فرض ارادتهم على رقيق الارض الصابرين المثابرين وعلى الفرسان غير المثقفين .

على ان بعضا من ذوى النفوس الجريئة كانوا يجترئون بين الحين والحين على ولوج ميدان العلم المحرم ، ولكنهم كانوا يجازون على ذلك سوء الجزاء ، والسعيد منهم من كان ينجو بحياته ولو حكم عليه بالسجن عشرين عاما .

وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فاضت التجارة الدولية على غربى اوربا كما كان النيل يفيض على وادى مصر القديمة مخلفا وراءه آثار الخصب والرخاء . والرخاء معناه فراغ من العمل يتيح للرجال والنساء الفرصة لشراء المخطوطات والاهتمام بالآداب والفنون والموسيقى ، ومن ثم تملك النفوس مرة اخرى ذلك الشغف الروحانى بالمعرفة الذى سما بالانسان عن سائر الشديات ابناء عمومته الابعدين التى ظلت خرسا لاتفصح ولاتبين . واصبحت المدن ، التى تحدثنا عن نموها وتقدمها فى الفصل السابق ، ملجأ امينا لهؤلاء الرواد الشجعان ، الذين اجتراوا على التحلل من ذلك المجال الشديد الضيق الذى استقرت عليه الامور .

نزل هؤلاء الرواد الى ميدان العمل ، وفتحوا نوافذ صوامعهم المغلقة التى انقطعوا فيها للدرس ، فدخل فيض من شعاع الشمس الى تلك الحجرات المجللة بغبار الزمن ، فراوا على نورها ماتجمع من نسيج العنكبوت خلال العصور الطويلة شبه المظلمة ، فاخذوا ينظفون بيوتهم ، ثم ثنوا بحدائقهم ، وانطلقوا الى الحقول الواسعة فيما وراء اسوار المدن المكتظة بساكنيها ، وانشاوا يقولون : هذا عالم بهيج يطيب لنا العيش فيه .

وعندئذ دالت دولة العصور الوسطى ، وبزغ نجم عالم جديد ...

www.ibtesama.com/vb/

عصر النهضة

اجترا الناس مرة اخرى على التفكير فى السعادة ، لالشىء الا لانه قد كتبت لهم الحياة ، فحاولوا أن ينقذوا مابقى من حضارة الرومان واليونان التى كانت أقدم من حضارتهم وأحب الى قلوبهم ، وتملكهم الفخر والاعتزاز بما بلغوه من عرفان ، حتى لقد لهجت السنتهم بالنهضة او ببعث الحضارة من جديد .

لم تكن النهضة حركة سياسية او دينية ، وانما كانت طورا من اطوار الفكر . فلقد استمر رجال النهضة فى طاعتهم لامهم الكنيسة ، وكانوا رعايا ملوك واباطرة ودوقات ، ولم يتذمروا من شىء قط .

ولكن نظرتهم الى الحياة تغيرت ، فبداوا يلبسون ملابس جديدة ، ويتكلمون لغة جديدة ، ويعيشون فى بيوتهم الجديدة عيشة جديدة .

ولم يعودوا يحصرون كل تفكيرهم وجهودهم فيما ينتظرونه فى العالم الآخر من حياة طيبة مباركة ، بل حاولوا أن يقيموا جنتهم على ظهر هذه الارض . والحق انهم وفقوا فى ذلك توفيقا عظيما .

ولقد سبق ان حذرتك كثيرا من الخطر الذى يكتنف تاريخ الاحداث التاريخية ، فالناس ياخذون هذه التواريخ قضية مسلمة وهم ينظرون الى العصور الوسطى على انها عهد ظلمة وجهالة ، واذا بالساعة تدق مؤذنة بحلول النهضة ، واذا بالمدن والقصور تفيض بنور الشوق الى المعرفة العقلية .

والحق انه يستحيل علينا ان نرسم حدودا فاصلة بين حوادث التاريخ . فقد اجمع المؤرخون على أن القرن الثالث عشر يدخل بلا شك فى العصور الوسطى ، ولكن هل كان ذلك القرن عهدا يسوده الركود والظلام فحسب ؟ لا لم يكن هذا حاله قط ، فقد كان الناس يعيشون فيه حياة زاخرة بالنشاط . كانت الدول العظيمة آخذة فى النشوء ، وكانت التجارة الكبيرة آخذة فى النمو . وعلت ابراج الكنائس القوطية المستدقة الطرف هامات ابراج الحصون المتداعية وذرى اسقف المجالس البلدية . وكان العالم كله فى حركة دائبة ، واخذ الرجال البارزون الاقوياء من اعضاء المجالس البلدية الذين كانوا قد ادركوا وشيكا ما بلغوه من سلطان بفضل الثروات التى جمعوها حديثا يناضلون سادتهم الاقطاعيين فى سبيل زيادة سلطانهم ، واخذ اعضاء النقابات ـ الذين كانوا قد فطنوا وشيكا الى أن القوة فى الكثرة ـ يناضلون اعضاء المجالس البلدية ذوى الباس . وهب الملوك واصحاب مشورتهم الدهاة يصيدون فى هذه المياه العكرة ، واصابوا من طيباتها شيئا كثيرا اخذوا ينضجونه ويأكلونه تحت سمع وبصر اصحاب الراى فى المجالس واعضاء النقابات الذين تملكتهم الدهشة واكلت قلوبهم الخيبة والحسرة .

وكانت انوار الطرفات الخابية فى ساعات الليل الطويلة لا تشجع على الاسترسال فى مناقشة المسائل السياسية والاقتصادية ، فاخذ الشعراء المتجولون وشعراء الالمان المغنون يبددون هذه الوحشة فيرددون اناشيد الحب والمغامرات والبطولة والوفاء للنساء الجميلات كافة .

اما الشباب الذين برموا ببطء التقدم ، فقد اخذوا فى الوقت نفسه يهرعون الى الجامعات ، ويجعلون هذه المسالة موضوع حديثهم .

وكان اهل العصور الوسطى يذهبون فى التفكير مذهبا دوليا ، وقد يبدو هذا القول عسير الفهم ، ولكن مهلا فساجلوه لك . نحن المحدثين ندين بالقومية ، فنحن سواء كنا من الامريكيين او الانكليز او الفرنسيين او الايطاليين ، نتحدث بالانجليزية او الفرنسية او الايطالية ، ونذهب الى الجامعات الانكليزية او الفرنسية او الايطالية ، الا اذا اردنا التخصص فى فرع بعينه من فروع المعرفة لايدرس الا فى بلد غير بلادنا ، ومن ثم نتعلم لغه اخرى ، ونذهب الى ميونخ او مدريد او موسكو . اما اهل القرنين الثالث عشر والرابع عشر فقلما كانوا يقولون عن انفسهم انهم انكليز او فرنسيون او ايطاليون ، بل كان المرء منهم يقول « أنا من اهل شيفيلد او بردو او جنوة » ، لانهم كانوا جميعا ينتمون الى كنيسة واحدة ، ويشعرون بأن ثمة وشيجة اخوية تربطهم جميعا .

وكان المثقفون يتحدثون باللغة اللاتينية ، فكان

www.ibtesama.com/vb/

لهم بذلك لغة دولية ، قضت على الحواجز اللغوية السخيفة التى نمت فى اوربا الحديثة ، واصابت تلك الامم الصغيرة بتلك الآفة الخطيرة . ولنذكر على سبيل المثال **ارازمس** المبشر العظيم بالتسامح والابتهاج والسرور والذى كتب مؤلفاته فى القرن السادس عشر .. فقد كان هذا الرجل من اهل قرية هولندية صغيرة كتب باللاتينية فاستمع اليه العالم بأسره . ولو كان ارازمس حيا اليوم لكتب بالهولندية ، ولما استطاع قراءته الا اربعة او خمسة ملايين نسمة فقط ، ولاضطر ناشروه الى ترجمة مؤلفاته الى عشرين لغة مختلفة حتى يسهل فهمه على سائر اهل اوربا وامريكا ، ولانفقوا فى هذه الترجمة مالا كثيرا ، ولكانت هذه النفقات حرية بأن تصرفهم تماما عن تحمل هذه المشقة ، او الاقدام على هذه المخاطرة .

ولم يكن يحدث مثل هذا الأمر منذ ستة قرون مضت ، فقد كان اكثر الناس لايقراون ولا يكتبون وفى الجهالة يعمهون . اما اولئك الذين كانوا يتقنون فن الكتابة العسير ، فكانوا ينتمون الى جمهورية دولية ادبية ، اتسعت رقعتها حتى شملت القارة الأوربية بأسرها . وكانت هذه الجمهورية لاتعرف حدودا ولا تحترم قيود اللغة او القومية . وكانت الجامعات هى معاقل هذه الجمهورية ، وكانت تختلف عن المعاقل الحديثة ، ذلك انها لم تكن تتبع الحدود والتخوم ، بل كانت تقام حيثما اجتمع استاذ وبعض الطلبة . وكانت العصور الوسطى وعصر النهضة تختلف ايضا عن العصر الحديث من حيث نشأة هذه الجامعات . فالجامعة فى العصر الحديث تقوم على المنوال التالى الذى قلما يصيبه التغير : رجل ثرى يريد ان يعمل عملا نافعا للجماعة التى يعيش فيها ، او طائفة دينية بعينها تريد انشاء مدرسة تضم ابناء اتباعها المخلصين ليكونوا تحت رعايتها الحكيمة ، او حكومة تريد اطباء ومحامين ومدرسين .. وهكذا تبدا الجامعة بقدر كبير من المال يودع فى احد المصارف ، ثم يستخدم فى اقامة المبانى والمعامل ومضاجع للطلبة ، ثم يستأجر الأساتذة المحترفون ، وتعقد امتحانات القبول .. وهكذا تسير الجامعة فى طريقها .

اما فى العصور الوسطى فكان الأمر على خلاف ذلك ، اذ يتفق ان يتحدث رجل حكيم الى نفسه فيقول « لقد كشفت حقيقة كبرى وينبغى لى ان اعلم الناس ما اعلم » ، ثم يأخذ فى تلقين حكمته حيثما وجد نفر من الناس يستمعون اليه ، وهو فى ذلك اشبه بالمنادى الذى يعلن عن سلعة من السلع فى ايامنا هذه : فاذا كان

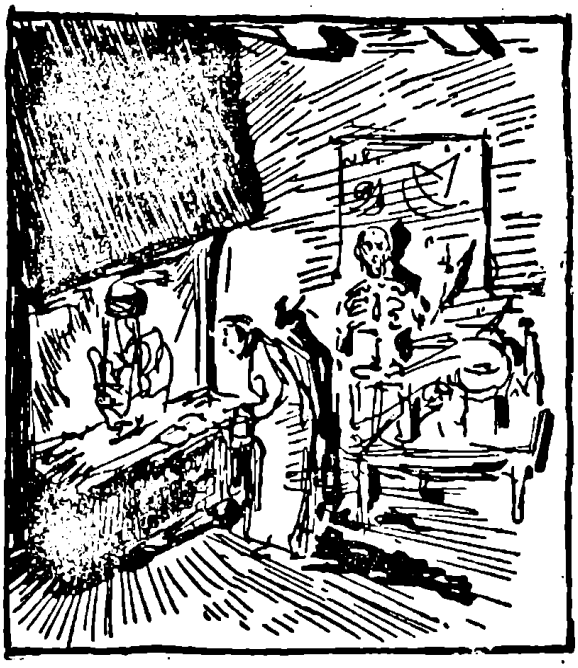

معمل العصور الوسطى

متكلما شائق الحديث ، اجتمع الناس حوله لاينصرفون عنه ، اما اذا كان عييا سقيم الحديث هز الناس اكتافهم وانصرفوا عنه الى حال سبيلهم . وهكذا اخذ بعض الشبان يواظبون شيئا فشيئا على الحضور للاستماع الى حكم هذا المعلم العظيم ، وجلبوا معهم الكراسات والدوى الصغيرة وريشة الكتابة ، ليدونوا ماينفعهم من كلماته ، وقد يتفق ان يسقط المطر يوما فيأوى المدرس وتلاميذه الى ركن خال او الى حجرة المدرس . وجرت العادة بأن يجلس المدرس على مقعد والتلاميذ من حوله جلوس على الأرض .

هكذا بدات الجامعات فقد كانت الجامعة (Universitas) فى العصور الوسطى جماعة من الاساتذة والطلاب ، وكان الاستاذ فى تلك العصور هو كل شىء ، اما البناء الذى يقوم فيه بالتدريس فلم يك شيئا مذكورا .

ولاذكر لكم على سبيل المثال بعض ماحدث فى القرن التاسع . كان فى ساليرنو بالقرب من نابلى نفر من الأطباء النابهين اجتذبوا اليهم عددا من الراغبين فى امتهان مهنة الطب ، وهكذا نشأت جامعة ساليرنو التى ظلت الف سنة تقريبا اى الى عام ١٨١٧ ، تلقن الطلاب حكمة بقراط الطبيب الاغريقى العظيم الذى كان يمارس الطب فى بلاد الأغريق القديمة فى القرن الخامس قبل الميلاد . وجاء بعد ذلك **ابيلار** ـ وهو قس

www.ibtesama.com/vb/

شاب من بريتانى ـ فأخذ يحاضر فى اللاهوت والمنطق بباريس فى مستهل القرن الثانى عشر . وكان يهرع الى هذه المدينة الفرنسية آلاف من الشباب الظامئين للعلم ليحضروا عليه . واقبل غيره من القساوسة الذين كانوا ينكرون اقواله على شرح آرائهم ، وسرعان ما امتلأت باريس بجموع صاخبة من الطلاب الانكليز والالمان والايطاليين وآخرين من اهل السويد والمجر . وقامت جامعة باريس الشهيرة حول الكاتدرائية القديمة القائمة فى جزيرة صغيرة من جزر نهر السين . وقام فى بولونيا من اعمال ايطاليا راهب يدعى جراتيان يصنف الكتب المدرسية لاولئك الذين كانت مهنتهم تقتضيهم معرفة قوانين الكنيسة . ثم وفد شباب القساوسة وكثير من غير رجال الدين من جميع انحاء اوربا للاستماع الى جراتيان وهو يشرح آراءه ويفسرها ، واراد هؤلاء ان يتقوا شر اصحاب الاملاك واصحاب الفنادق والسيدات صاحبات النزل فى المدينة ، فانشاوا لهم رابطة او جامعة ، فكانت هذه الرابطة نواة لجامعة بولونيا .

وحدث بعد ذلك نزاع فى جامعة باريس نشأ من طرد الطلبة غير الفرنسيين منها . وحدث فى الوقت نفسه ان استدعى هنرى الثانى ملك انكلترا جميع الطلبة الذين كانوا يتلقون العلم خارجها . وكون طائفة من المدرسين والطلبة المبعدين من جامعة باريس نواة جامعة اكسفورد ، وهكذا نشأت تلك الجامعة الشهيرة . وقد حدث مثل هذا فى عام ١٢٢٢ اذ وقع انقسام فى جامعة بولونيا فخرج منها المدرسون الساخطون وتبعهم تلاميذهم وانتقلوا الى بادوا واسسوا هناك جامعة تفخر بها هذه المدينة . وهكذا انتقلت الحركة الجامعية من مدينة الوليد باسبانيا الى كراكوف فى بولندة البعيدة ، ومن بواتييه فى فرنسا الى روستوك بالمانيا .

والحق الذى لامرية فيه ان كثيرا من دروس هؤلاء الاساتذة السابقين تبدو اليوم نابية فى آذاننا التى الفت سماع اللوغارتيمات والنظريات الهندسية . ولكن المسألة التى اريد ان ابرزها هى ان العصور الوسطى ، وخاصة القرن الثالث عشر ، لم تكن عهدا وقف فيه العالم وركدت فيه الهمم ، ذلك ان نفوس الشباب فى تلك الايام كانت نابضة بالحياة ، ممتلئة بالحماسة يساورها القلق ، فاخذت تلقى بالسؤال تلو السؤال فى شىء من التهيب والاستحياء . وقد نشأت النهضة من ثنايا هذا القلق .

ولقد مر بالمسرح شخصية متفردة قبل ان يسدل الستار على المشهد الاخير من عالم القرون الوسطى . وينبغى لكم الا تقنعوا بمعرفة اسم هذه الشخصية فحسب ، فهى شخصية رجل كان يعرف بدانتى .

كان ابوه محاميا من اهل فلورنسا ينتمى الى اسرة الليغيرى ، اكتحلت عيناه بمرأى الحياة عام ١٢٦٥ ، وشب فى مدينة اسلافه فى الوقت الذى كان فيه جيوتو يرسم على حوائط كنيسة الصليب المقدس ، المناظر المعبرة عن حياة القديس فرانسيس الاسيسى ، وكان دانتى فى ذهابه الى المدرسة يشاهد فى كثير من الأحيان مايروع فؤاده من مناظر بركالدماء التى تنبىء عن القتال الفظيع الذى لم يكن يخمد له أوار بين الجلف والغبلين ، اى بين اتباع البابا وانصار الامبراطور . ولما شب دانتى دخل فى زمرة الجلف لأن اباه كان منهم ، كما يتفق للصبى الانكليزى ان يكون من الاحرار او المحافظين ، لا لشىء الا لأن اباه كان من هؤلاء او من هؤلاء . وبعد سنوات قليلة ادرك دانتى ان ايطاليا قمينة بان تفع فريسة للفوضى الناشئة من تنافس الف من المدن الصغيرة ما لم تتحد تحت زعامة رجل واحد ، ومن ثم انحاز الى الغبلين .

وتطلع دانتى الى ما وراء الالب طلبا للمعونة . وكان امله ان ياتى امبراطور قوى فيعيد الى البلاد الوحدة والنظام ، ولكن امله ذهب ادراج الرياح . وطرد اتباع الامبراطور من فلورنسا عام ١٣٠٢ ، وظل دانتى منذ ذلك الوقت الى حين وفاته عام ١٣٢١ طريدا يهيم بين خرائب رافنا الموحشة ، ياكل من الصدقة التى يجود بها عليه السادة الاغنياء الذين كانت أسماؤهم حرية بان يلفها النسيان فى اذياله لولا انهم كانوا رحماء بشاعر فى محنته وبؤسه .

واضطر دانتى فى منفاه الذى امتد عدة سنوات الى ان يبرر مسلكه واعماله عندما كان زعيما فى مسقط راسه ، وحينما كان يقضى ايامه سائرا على ضفاف نهر الارنو عله يحظى بنظرة من بياتريس بورتيناري الجميلة التى ماتت فى عصمة رجل غيره قبل النكبة التى حلت باتباع الامبراطور بعشر سنين او نحوها .

لقد خاب دانتى فى بلوغ منية حياته ، فقد خدم بلده التى ولد فيها باخلاص وامانة ، ومع ذلك انهم امام بلاط فاسد بسرقة اموال الامة ، فحكم عليه بالحرق حيا اذا اجترا على العودة الى مملكة مدينة فلورنسا ، وعمد دانتى الى تبرئة نفسه امام ضميره وامام معاصريه ، فانشا عالما خياليا وصف فيه بالتفصيل الظروف التى ادت الى خيبته ، وصور فيه آفات الطمع والشهوات والاحقاد التى احالت

www.ibtesama.com/vb/

وطنه المحبوب ايطاليا الى ساحة يصول فيها الجنود المرتزقة القساة الذين استاجرهم اولئك الحكام الطغاة الاشرار المحبون لانفسهم .

ويقص علينا دانتى كيف ضل الطريق فى غابة كثيفة يوم الثلاثاء السابق على عيد الفصح من عام ١٣٠٠، وكيف اعترض سبيله فهد وسبع وذئب ، فادرك انه لا محالة هالك ، وعند ذلك لاح له من بين الاشجار شبح ابيض ... لقد كان هذا الشبح فرجيل الشاعر والفيلسوف الرومانى ، بعثت به فى هذه المهمة الرحيمة العذراء المباركة وبياتريس التى كانت ترقب من علياء سمائها مصير حبيبها المخلص .

دانتى

وقد اخذ فرجيل بيد دانتى ، وذهب به الى المطهر ، ثم الى الجحيم ، وطفقا يتوغلان فى طريقهما الى ان بلغا قرارة الجحيم حيث وجدا الشيطان نفسه واقفا متجمدا فى الجليد الأبدى يحيط به شر المذنبين والخونة والكذابين ، واولئك الذين ادركوا الشهرة والنجاح بالنفاق والخداع . ولقى دانتى قبل أن يصل هو وفرجيل الى هذه البقعة الفظيعة كل اولئك الذين كان لهم شأن فى تاريخ مدينته المحبوبة بوجه من الوجوه . وكان هناك ايضا جميع الاباطرة والبابوات والفرسان المغامرون والمرابون المتمسكنون، وقد كتب عليهم العذاب الابدى ، او كانوا ينتظرون يوم الخلاص حينما يغادرون المطهر الى السماء .

انها قصة عجيبة ، او هى كتاب يشمل كل ماكان اهل القرن الثالث عشر يفعلونه او يشعرون به او يبتهلون اليه . ويسرى فى ثنايا ذلك كله شخص ذلك المنفى الفلورنسى الوحيد يلازمه دائما ابدا طيف بؤسه وشقائه .

ومن عجب أن الموت كان يطوى بجناحيه ذلكم الشاعر الحزين الذى ينتسب الى العصور الوسطى ، فى حين كانت ابواب الحياة تفتح امام الطفل الذى قدر له ان يكون اول رجل فى عصر النهضة ... كان ذلك الرجل هو **فرنسسكو بترارك** ابن مسجل العقود فى مدينة **ارتزو** الصغيرة .

كان والد بترارك ينتمى الى الحزب السياسى الذى كان ينتمى اليه دانتى ، وكان مصيره النفى ايضا ، ومن ثم ولد بترارك بعيدا عن فلورنسا . وعندما بلغ الصبى الخامسة عشرة من عمره ارسل الى مونبلييه لدراسة القانون ليدخل فى سلك المحامين مثل ابيه ، ولكن الصبى كان راغبا عن المحاماة ، فقد كان يكره القانون ويود ان يكون من رجال العلم والشعر ، وقد تم له ماأراد لأنه وقف ارادته على ذلك . والعزيمة القوية تخلق العجائب كما يقولون .

وقام بترارك برحلات طويلة ينسخ فيها المخطوطات فى الفلاندرز وفى الاديرة التى على ضفاف الرين وفى باريس وليبج ، ثم فى روما ، وارتحل من بعد ، واقام فى واد منعزل من جبال فوكلوز الموحشة . وهناك درس وكتب ، وسرعان ما ذاعت شهرته فى العلم والشعر ، مما دعا جامعة باريس الى دعوته للتدريس لطلابها ، وحمل ملك نابولى على استقدامه لتعليم رعاياه .

واضطر بترارك فى ذهابه الى عمله الجديد الى المرور بمدينة رومة ، وكان الناس فيها قد سمعوا

www.ibtesama.com/vb/

بشهرته فى نشر مؤلفات عدد من الكتاب الرومان الذين كاد النسيان يلفهم بأذياله ، فقرر قرارهم على الاحتفال به فى الساحة القديمة لهذه المدينة العظيمة ، وهناك وضعوا على راس بترارك اكليل الغار الذى يوضع على رؤوس الشعراء .

وكانت حياة بترارك منذ ذاك ، سلسلة من الاعمال المجيدة التى نالت تقدير الناس ، لانه كتب فى الامور التى كان الناس فى اشد الحاجة الى معرفتها ، ذلك انهم كانوا قد ضاقوا بالجدل فى امور الدين . فبينما كان دانتى ينتقل فى جحيمه كما يحلو له ، اخذ بترارك يحدثهم عن الحب والطبيعة والشمس ، ولم يعرض قط لتلك الموضوعات الكئيبة التى كانت فيما يبدو بضاعة الجيل الماضى . وكان بترارك اذا مابلغ مدينة من المدن هرع الناس الى لقائه ، والاحتفال به احتفالهم بالغزاة الفاتحين .

واذا اتفق له ان اصطحب صديقه القصاص الشاب **بوكاشيو** ، فان ذلك كان يزيد فى سرور الجماهير . لقد كان كلاهما يمثل عصره خير تمثيل ، فقد امتلأت جوانحهما بالشوق الى المعرفة ، وصحت عزيمتهما على قراءة كل شيء دفعة واحدة ، فاخذا ينقبان فى المكتبات المهجورة التى عفا عليها الزمان عساهما يكتشفان عن مخطوط آخر لفرجيل او لاوفيد او للوكريتس او غيرهم من شعراء اللاتين القدماء . لقد كان بترارك وبوكاشيو مسيحيين مخلصين ، شأنهما فى ذلك شأن سائر الناس ، ولكن لم يكن ثمة داع يدعو الناس الى السير بوجوه علاها الهم ، مرتدين الملابس القذرة ، لاشيء الا انه سوف يأتى يوم يدركهم فيه الموت . فالحياة جميلة وقد خلق الناس ليسعدوا فيها . واذا اردت الدليل على ذلك فهاكه : عليك بمجرف ثم نقب فى الأرض ، فما الذى سوف تجده؟ ستجد تماثيل قديمة جميلة وزهريات قديمة بديعة ، واطلال مبان قديمة . ان هذه الآثار جميعا قد صنعها اهل اعظم امبراطورية وجدت على ظهر الارض . فقد حكم هؤلاء القوم العالم طرا الف سنة . وكانوا اقوياء اثرياء طلعتهم بهية ، وحسبك ان تلقى نظرة الى تمثال الامبراطور اغسطس النصفى . ولم يكن هؤلاء بطبيعة الحال من النصارى ، ومن ثم فقد لايتأتى لهم قط دخول الجنة ، وخير مايرجى لهم انهم سيقضون ايامهم فى المطهر حيث مر بهم دانتى وشيكا فى طوافه .

ولكن ماذا فى ذلك ؟ ان عالما شبيها بعالم روما القديمة لهو الجنة فى نظر كل فان ، ومهما يكن من شيء فنحن لانعيش الا مرة واحدة ، فلنسعد ولنمرح لا لشيء الا اننا ننعم بالعيش فحسب .

وصفوة القول ان تلك الروح هى التى كانت قد اخذت تسيطر على الدروب الملتوية فى كثير من مدن ايطاليا الصغيرة . وانت تعلم ماذا نقصد بعبارة « جنون الدراجة » او « جنون السيارة » . فقد اخترع شخص الدراجة فما كان من الناس الذين ظلوا مئات الآلاف من السنين يسيرون من مكان الى مكان سيرا وئيدا شاقا الا ان اقتنوا تلك الوسيلة التى تمكنهم من ان يدرجوا على الأرض فى سرعة ويسيروا فوق التلال والوديان . ثم اخترع ميكانيكى ماهر السيارة ، فلم تعد ثمة حاجة الى تبديل الأرجل ثم تبديلها وتبديلها كما هو الحال فى الدراجة ، وحسبك ان تجلس فيها وان تدع قطرات قليلة من البترول تفعل ماتريد . ثم اراد كل فرد أن يقتنى سيارة ، واخذ الناس جميعا يتحدثون عن الرولز رويس وعن الفورد وعن مرشحات السيارة وعداد المسافات . وتوغل المستكشفون فى قلب البلاد المجهولة للبحث عن موارد جديدة للبترول . ونبتت الغابات فى سومطرة والكنغو لتمدنا بالمطاط . وزاد شأن البترول والمطاط زيادة عظيمة فاقتتل الناس فى سبيل الحصول عليهما . واصبح العالم كله مشغوفا بالسيارات ، واستطاع

النهضة

www.ibtesama.com/vb/

الاطفال الصغار النطق بكلمة سيارة قبل أن يتيسر لهم النطق بكلمة بابا او ماما .

وفى القرن الرابع عشر جن اهل ايطاليا بما كشف عنه حديثا من بدائع آثار روما ، التى كانت مطمورة تحت الأرض . وسرعان ماشاركهم هذه الحماسة اهل اوربا الغربية كافة . وكان العثور على مخطوط مجهول ذريعة تتخذ لعطلة ينقطع فيها الناس عن العمل . وكان الرجل الذى يكتب كتابا فى النحو يشتهر شهرة الرجل الذى يخترع اليوم شمعة احتراق جديدة . اما دارس الآداب اليونانية والرومانية القديمة ، او العالم الذى كان يقف جهوده على دراسة البشر بدل اضاعة وقته فى الدراسات الدينية العقيمة ـ فكان الناس يحتفون به احتفاء ويبجلونه تبجيلا اعظم من احتفائهم او تبجيلهم لبطل يعود لتوه ، وقد فتح وشيكا جميع جزائر المتوحشين .

وقد حدث ابان هذه اليقظة العقلية حادث شجع كثيرا على دراسة الفلاسفة والمؤلفين القدماء . لقد اخذ الترك يستأنفون حملاتهم على اوربا ، وضيقوا الخناق على القسطنطينية قصبة مابقى من الامبراطورية الرومانية القديمة . وفى عام ١٣٩٣ ارسل الامبراطور مانويل باليولوغس رجلا يدعى عمانويل خريسو لوراس الى اوربا الغربية ليشرح للناس حرج مركز الامبراطورية البوزنطية ، ويسالهم العون . ولكن هذه المعونة لم تتحقق قط ، فقد كان العالم الرومانى الكاثوليكى مشوقا الى ان يرى العالم اليونانى الكاثوليكى ينزل به العقاب الذى ينتظر امثال هؤلاء الهراطقة الأشرار . ومهما يكن من قلة اهتمام اوربا الغربية بمصير بوزنطة ، فانها اهتمت كثيرا بالبونان القدماء الذين شيد مستعمروهم المدينة الواقعة على البوسفور بعد حرب طروادة بخمسة قرون . ولقد رغب اهل اوربا الغربية فى ان يتعلموا اليونانية، وكانت حاجتهم الى ذلك شديدة كى يستطيعوا قراءة ارسطو وهوميروس وافلاطون ؛ ولكن لم تكن لديهم كتب فى نحو هذه اللغة او مدرسون يقومون بتدريسها .

وسمع حكام فلورنسا بزيارة خريسولورانس ، وجن اهل هذه المدينة شوقا الى تعلم اليونانية ، فسالوه ان يتفضل بالحلول بينهم وتعليمهم اياها ... فاجاب سؤلهم . ومن عجب ان هذا الاستاذ الأول للغة اليونانية اخذ يدرس ابجديتها لمئات من الشباب المتشوقين الى المعرفة شدوا رحالهم الى مدينة الأرنو: يعيشون مما يتصدق عليهم به الناس ، ويقيمون فى حظائر الخيل والاقبية القذرة حتى يتعلموا كيف يصرفون الأفعال باللغة اليونانية ، ويتعرفوا على سوفوكل وهوميروس .

وفى اثناء ذلك كان الأساتذة القدماء فى الجامعات يدرسون لاهوتهم القديم ، ومنطقهم العتيق ، ويفسرون ماخفى من اسرار العهد القديم،ويناقشون ماورد من علم عجيب فى النسخ اليونانية والعربية والاسبانية واللاتينية التى كانت فى ايديهم من مؤلفات ارسطو . ومن ثم نظروا الى هذه الروح السائدة نظرة يأس وفزع ، ثم انقلبوا غاضبين اذ زاد الأمر عن حده ، وهجر الشباب اروقة الدرس فى الجامعات القائمة ليستمعوا الى رجل من الدعاة الى احياء الآداب اليونانية والرومانية القديمة ، عجيب النظرات يحدثهم عن آرائه العجيبة الخلابة عن بعث الحضارة. وذهب رجال الجامعات الى اولى الأمر لرفع شكواهم، ولكن لم يكن فى مقدور احد ان يجبر جوادا حرونا على الشرب ، او يحمل آذانا مدبرة عن الاستماع الى شىء لايسترعى اهتمامها . وكان اساتذة الجامعات يخسرون قضيتهم سريعا ، ولو انهم كانوا يحرزون نصرا موقوتا بين الحين والحين . وتكاتفوا مع اولئك المتعصبين الذين كانوا يكرهون أن يروا غيرهم من الناس ينعمون بسعادة طارئة على نفوسهم .

وقام فى فلورنسا ، معقل النهضة العظيم ، قتال عنيف بين النظام القديم والنظام الجديد .

وكان على مؤخرة جند العصور الوسطى راهب دومينيكى متجهم الوجه ، شديد الكراهية لكل ماهو جميل ، استبسل فى النضال ، واخذ ينذر الناس يوما بعد يوم فى قاعات سانتا ماريا دلفيورى الفسيحة من غضب الله ونقمته ، فكان يصيح قائلا : « استغفروا الله ولياخذكم الندم على كفرانكم وسروركم باشياء لايرضى عنها الله ». وبدا الراهب يسمع اصواتا،ويرى بريق السيوف يلمع فى السماء ، فاخذ يعظ الاطفال الصغار عساهم يجتنبون سبيل الغى الذى كان قد اخذ يفضى بآبائهم الى التهلكة ،ونظم جماعات من الشبان جهودهم لخدمة الاله الأعظم ، وكان الراهب قد ادعى انه نبى من قبله . وغشيت الناس فجاة نوبة من نوبات الجنون روعتهم ، فوعدوا بأن يكفروا عن حبهم الدنس للجمال والملذات ، وحملوا كتبهم وتماثيلهم ورسومهم الى السوق ، واقاموا حفلا عربيدا تمخروا فيه بالاباطيل ، وانشدوا الاناشيد الدينية ، ورقصوا

www.ibtesama.com/vb/

رقصا ابعد مايكون عن الدين، فى حين كان **سافونارولا** يضرم النار بمشعله فى الكنوز المتراكمة .

فلما حمدت النار اخذ الناس يدركون اى ثروة فقدوها ، فقد حملهم هذا المتعصب المخيف على تدمير الأشياء التى كانوا قد احبوها فوق كل حب ، فانقلبوا عليه ، وزجوه فى السجن وعذبوه ، ولكنه ابى ان يندم على كل ماأتاه ، ذلك انه كان رجلا راسخ العقيدة ، حاول ان يحيا حياة دينية ، وقضى متعمدا على كل أولئك الذين رفضوا صراحة ان يشاطروه رأيه ، ذلك أن واجبه كان يقتضيه ان يستأصل جذور الشر اينما وجدها . فقد كان حب الجمال الوثنى شرا فى نظر هذا الابن المخلص من ابناء الكنيسة ، ولكنه كان يقاتل فى سبيل عهد قضى وتولى ، ولم يفعل البابا فى روما شيئا قط فى سبيل انقاذه ، بل كان موقفه على العكس من ذلك ، اذ اقر ما عمله اهل فلورنسا المخلصون عندما ساقوا سافونارولا الى المشنقة ، وشنقوه ثم حرقوا جثمانه وسط صياح الجماهير وتهليلهم .

لقد كانت تلك نهاية محزنة ، ولكنها كانت أمرا لابد منه ، فقد يكون سافونارولا رجلا عظيما من رجال القرن الحادى عشر ، ولكنه زعيم قضية خاسرة فى القرن الخامس عشر . وسواء اكانت سبيل القرون الوسطى الى الأحسن أو الى الأسوا ، فانها كانت قد دالت عندما انقلب البابا رجلا يدين باحياء الآداب اليونانية والرومانية القديمة ، واصبح الفاتيكان اشهر متحف للآثار الرومانية واليونانية .

عصر التعبير

بدا الناس يشعرون بحاجتهم الى التعبير عن مسرات الحياة التى كشفوها حديثا ، فعبروا عن سعادتهم بالشعر والنحت والعمارة والتصوير وبالكتب يطبعونها

فى عام ١٤٧١ توفى شيخ ورع انفق اثنين وسبعين عاما من عمره المديد البالغ واحدا وتسعين عاما وراء جدران دير جبل القديس **اجنس** بالقرب من مدينة زفوله ، وهى مدينة هولندية قديمة من مدن الهنسا على نهر ايزل .

وكان هذا الرجل يعرف بالاخ **توماس** ، ولد فى قرية كمبين ، ومن ثم لقب بتوماس الكمبينى . وارسل وهو فى الثانية عشرة من عمره الى مدينة دفنتر حيث اسس جرهارد جروب ــ الذى كان من نبهاء المتخرجين فى جامعات باريس وكولونيا وبراغ ، والذى كان واعظا متجولا مشهورا ــ جمعية اخوان الحياة المألوفة . وكان هؤلاء الاخوان الطيبون رجال دنيا متواضعين ، حاولوا ان يعيشوا تلك العيشة البسيطة المأثورة عن حواريى المسيح الأولين فى اثناء اشتغالهم باعمالهم العادية كالنجارة والنقش والبناء . وانشأ هؤلاء الاخوان مدرسة ممتازة لتعليم من يستحق التعليم من ابناء الفقراء حكمة آباء الكنيسة ، وقد تعلم توماس فى هذه المدرسة كيف يصرف الافعال اللاتينية، وكيف ينسخ المخطوطات ، ثم اخذ على نفسه العهد ، وحزم كتبه القليلة وحملها على ظهره وسار الى زفوله

وهناك تنهدتنهد من ازاح عن صدره حملا ثقيلا بعدان اغلق دونه بابا حجبه عن عالم مضطرب لم يصادف هوى فى نفسه . وقد عاش توماس فى عصر ملىء بالقلاقل ، حافل بالاوبئة والموت المداهم المباغت. ففى بوهيميا بأواسط اوربا كان الأتباع المخلصون ليوهانس هس ــ صديق جون ويكليف المصلح الانكليزى وتابعه ــ قد اشعلوا حربا مروعة يثارون بها لزعيمهم الذى احرق على المحرقة ، بأمر من مجلس كونستانس ، وهو المجلس الذى كان قد امنه على حياته اذا هو حضر الى سويسرا . . وشرح عقائده امام البابا والامبراطور والثلاثة والعشرين كردينالا ، والثلاثة والثلاثين من رؤساء الأساقفة والأساقفة ، وامام المائة والخمسين من رؤساء الأديرة ، وامام الامراء والدوقات الذين بلغ عددهم اكثر من مائة . . وكان هؤلاء جميعا قد اجتمعوا للنظر فى اصلاح الكنيسة المسيحية . اما فى الغرب فقد كانت فرنسا مشتبكة فى حروب المائة سنة لاخراج الانكليز من بلادها ، وكان من حسن التوفيق ان ظهرت فى هذا الوقت نفسه جان دارك فخلصت فرنسا من هزيمة محققة .

وما ان انتهت هذه الحروب حتى اخذت كل من

www.ibtesama.com/vb/

جون هس

فرنسا وبرغانديا بخناق الاخرى ، واشتبكتا فى صراع مميت فى سبيل السيادة على اوربا الغربية . واما فى الجنوب ، فقد كان البابا فى روما يستنزل لعنات السماء على بابا آخر كان يستقر فى افينيون من اعمال فرنسا الجنوبية ، فرد عليه هذا بمثل صنيعه . اما فى الشرق البعيد فقد كان الترك يدمرون آخر ما ابقت الايام من الامبراطورية الرومانية . وكان الروس قد بدأوا حملتهم الاخيرة للقضاء على سادتهم التتر .

واما الاخ توماس فقد قنع بصومعته الساكنة ، فلم يسمع بشىء من هذا كله ، وقنع بمخطوطاته ، وما كان يجول فى عقله من افكار . وقد أودع كل ما كانت تكنه جوانحه بين دفتى كتاب صغير اسماه « **التمثل بالمسيح** » .. وقد ترجم هذا الكتاب منذ ذلك الحين الى لغات كثيرة تزيد على عدد اللغات التى ترجم اليها اى كتاب آخر ما عدا الكتاب المقدس . وقراه جمهرة من الناس يبلغ عددهم عدد من درسوا التوراة والانجيل ، واثر فى حياة ملايين لاتحصى من الناس . لقد كان هذا الكتاب اثرا من آثار رجل تجلى مثله الاعلى فى الحياة فى هذه الرغبة البسيطة : ان يقضى ايامه فى هدوء قابعا فى ركن صغير ومعه كتاب صغير .

لقد كان الاخ توماس الصالح يمثل اصفى الغايات فى العصور الوسطى ، فقد كانت تحيط به من كل جانب قوى عصر النهضة الظافرة ، وصيحات الانسانيين Humanists يبشرون بالعصور الحديثة ، وكانت العصور الوسطى تستجمع قواها للضربة الاخيرة . كانت الاديرة قد اصلحت ، واقلع الرهبان عن العادات المأثورة عن الاغنياء والمنغمسين فى الرذائل . وضرب اولئك البسطاء اهل الاستقامة والامانة مثالا بحياتهم الورعة التى لا تشوبها شائبة ، وحاولوا بذلك ان يردوا الناس الى الصراط المستقيم والاستسلام لارادة الله ، ولكن جهودهم كلها ذهبت بددا ، فقد اندفع العالم فى طريقه متجاوزا اولئك الصالحين . وكانت ايام الفكر الهادىء قد ولت وذهبت ، وبزغت شمس ذلك العهد العظيم ، عهد التعبير .

ولتسمح لى ايها القارىء أن ابدى من حين الى آخر اسفى لأن ارانى مضطرا الى استعمال كثير جدا من الكلمات الرنانة . وكم كنت اود ان يكون فى مقدورى كتابة هذا التاريخ فى كلمات من مقطع واحد ، ولكن ذلك فوق الاستطاعة ، فانت لا تستطيع ان تكتب كتابا مدرسيا فى الهندسة دون ان تشير الى المثلث القائم الزاوية ، والى المثلثات والمنشور المستطيل السداسى المتوازى الاضلاع . وما عليك الا ان تعرف معانى هذه الكلمات او تستغنى عن الرياضة . وسينتهى بك الامر فى التاريخ ، كما فى الحياة كلها ، الى الاضطرار الى معرفة معنى كثير من الكلمات العجيبة ذات الاصول اللاتينية واليونانية . فلماذا لاتعرفها الآن ؟ فانا عندما اقول ان عصر النهضة كان عصر التعبير ، فانى اقصد بذلك أن الناس لم يعودوا يقنعون بالقيام بدور النظارة ، ويجلسون فى صمت يستمعون الى الامبراطور والبابا ينبئانهم بما يفعلون وفيما يفكرون . فقد ارادوا ان يكون لهم شان على مسرح الحياة ، واصروا على التعبير عن آرائهم الخاصة .. فاذا اتفق ان كان احدهم معنيا بشئون الحكم مثل المؤرخ الفلورنسى نيقولا مكيافيلى ، فهو يعبر عن نفسه فى كتبه التى

www.ibtesama.com/vb/

تكشف عن رايه الشخصى فى الدولة الناجحة والحاكم الكفء . واذا كان لاحد منهم رغبة فى التصوير ، فهو يعبر عن حبه للخطوط الجميلة والالوان البهيجة ، بالصور التى جعلت اسماء مثل جيوتو وفرا انجليكو ، وروفائيل وكثيرغيرهم ، تتردد فى كل بيت حيثما تعلم الناس أن يعنوا بتلك الاشياء التى تعبر عن الجمال الخالد الحق . واذا اتفق أن اجتمع هـــذا الحب للالوان والخطوط بالرغبة فى فنون الميكانيكا والقوى المائية ، كان ذلك خليقا بأن يثمر رجلا مثل ليوناردو دافنشى الذى رسم الصور ، وقام بتجاربه فى المناطيد والآلات الطائرة ، وجفف المستنقعات من ســـهول لمبارديا ، وافصح عن ابتهاجه واهتمامه بكل ما هو كائن بين السماء والارض بالرســم والنثر والنحت وابداع الآلات العجيبة .

ولو راى رجل جبـــار مثل ميشـــيل انجلو أن الفرشاة ولوحة الاصباغ أرق من أن تتناولها الايدى القوية ، لكان خليقا بأن ينصرف الى النحت والعمارة، ومن ثم نحت انجلو من كتل الرخام الثقيـــلة اعتى المخلوقات ، ورسم خطة كنيسة القديس بطرس ، وهى آية الآيات فى التعبير الملموس عن امجاد الكنيســـة المظفرة . وهكذا سارت الامور .

وازدحمت ايطاليا بأسرها ، بل سرعان ما ازدحمت أوربا جميعا ، بالرجال والنساء الذين لم يكن لهم هم فى الحياة الا أن يضيفوا ما وهبهم الله من قوة الى تلك الذخيرة التى ادخرناها من كنوز العلم والجمال والحكمة . أما فى المانيا ، وفى مدينة ماينز بالذات ، فكان يوهان زوم جانسفليش ـ الذى اشتهر بيوهان جوتنبرج ـ قـــد اخترع وشـــيكا طريقة جديدة فى نسخ الكتب ، ذلك انه درس قوالب الخشب القديمة ، واتقن طريقة ترتب بمقتضاها الاحرف المســـتقلة المصنوعة من الرصاص اللين بحيث تؤلف كلمـــات وصحائف بأسرها . صحيح ان هذا الرجل سرعان ما فقد كل ماله فى قضية تمس اختراع الطباعـــة الاصيل ، وتوفى جوتنبرج فقيرا الا أن آية عبقريتـــه المبدعة الفريدة بقيت بعده .

ولم ينقض على ذلك وقت طويل حتى كان **الدوس** فى البندقية ، **واتيين** فى باريس ، **وبلانتين** فى انتويرب **وفروبن** فى بال يغمرون العالم بطبعات دقيقة من الكتب القديمة مطبوعة بأحرف قوطية ، وهى الاحرف التى طبع بها جوتنبرج الكتاب المقدس ، أو مطبوعة بأحرف ايطالية ، وهى المستعملة فى الكتب الافرنجيـــة ، أو بأحرف يونانية ، أو بأحرف عبرية .

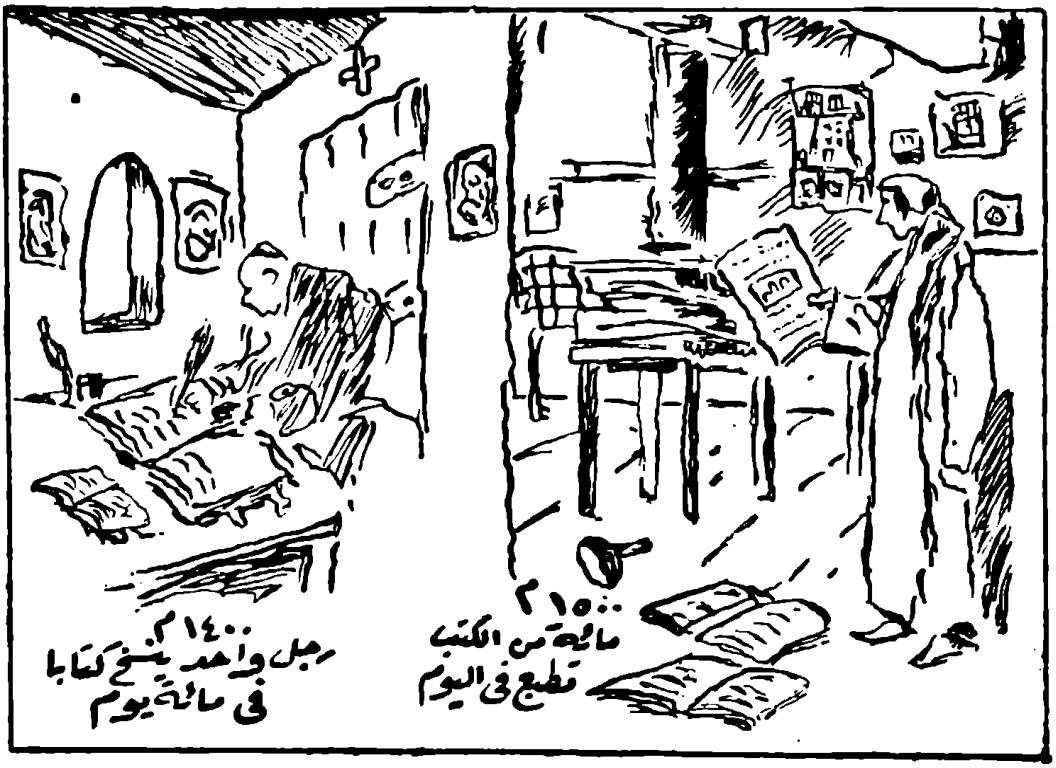

نسخ الكتب .. والطباعة

www.ibtesama.com/vb/

وعند ذلك أصبح العالم بأسره مشوقا الى الاستماع الى كل من فى نفسه شيء يريد ان يتحدث به . فقد انتهى العهد الذى كان فيه العلم وقفا على قلة من الناس يمتازون على غيرهم . وقد برىء هذا العالم من العذر الاخير الذى كان يعتذر به الجاهل عن جهله عندما بدا الزهير من أهل هارلم يطبع كتبه الرخيصة السائرة ، ومن ثم أصبح افلاطون وارسطو وفرجيل وهوراس وبلينياس وسائر تلك العصبة الطيبة من الفلاسفة والعلماء الاقدمين يبذلون للناس صداقتهم الوثيقة لقاء دراهم معدودات . وهكذا حرر مذهب الانسانيين الناس جميعا ، وجعلهم سواء فى الافادة بما تصدره المطبعة .

الاستكشافات العظيمة

اما وقد خرج الناس آنئذ على الحدود الضيقة التى فرضتها عليهم العصور الوسطى ، فقد اقتضاهم ذلك التماس مجال افسح لتجوالهم . ذلك ان العالم الأوربى كان قد ضاق كثيرا عن ان يتسع لأطماعهم ، وكان الوقت قد آذن بقيامهم برحلاتهم الاستكشافية العظيمة

كانت الحروب الصليبية درسا تلقاه الناس فى فن الرحلة الواسع الحر . على ان عددا قليلا جدا منهم هو الذى كان يتجاسر على تجاوز ذلك الطريق المألوف الذى كان يفضى من البندقية الى يافا . وكان اخوة تجار من البندقية ينتمون الى اسرة بولو ، قد جابوا فى القرن الثالث عشر الصحراء المغولية العظيمة ، وتمكنوا من بلوغ بلاط خان الصين الأكبر وامبراطورها العظيم بعد ان تسلقوا جبالا تسامى القمر فى علاه . وقد كتب ابن واحد من هؤلاء ، وكان يدعى ماركو ، كتابا عن مغامراتهم التى استغرقت اكثر من عشرين عاما . وتملكت الناس الدهشة من وصفه الأبراج الذهبية القائمة فى الجزيرة العجيبة التى سماها بلسانه الايطالى زيبانجو ، اى اليابان . واشتاق كثير من الناس الى الرحيل الى الشرق عساهم يجدون ارض الذهب فيثرون . ولكن الرحلة كانت بعيدة الشقة محفوفة باشد المكاره ، ومن ثم لزموا ديارهم .

ماركو بولو

على ان القيام بها عن طريق البحر كان بطيئة الحال فى حدود الامكان على الدوام . لكن البحر كان فى نظر اهل القرون الوسطى عالما مخوفا لاسباب كثيرة وجيهة . فالسفن كانت صغيرة جدا . وشاهد ذلك ان السفن التى استخدمها ماجلان فى رحلته المشهورة حول العالم التى استغرقت عدة سنوات لم تكن تبلغ فى حجمها « المعديات » الحديثة . وكانت تحمل مابين عشرين وخمسين رجلا حشروا فى عرصات قبيحة المنظر واطئة السقف ، حتى ان الرجل منهم لم يكن يستطيع ان يقف منتصبا فيها . وكان الملاحون مضطرين الى تناول طعام قبيح الطهى لان ادوات المطبخ كانت بالغة السوء ، ثم ان الملاحين لم يكونوا يستطيعون ان يوقدوا نارا اذا اضطرب الجو اى اضطراب . وكان اهل العصور الوسطى يعرفون كيف يملحون الرنجة ويجففون السمك . ولكن لم يكن لديهم اطعمة محفوظة ، اما الخضراوات الطازجة فانها كانت تختفى من قائمة الطعام اذا ماغادرت السفينة الشاطىء . وكان الماء يحمل فى براميل صغيرة فياسن سريعا ويصبح طعمه مزيجا من الخشب العفن والحديد الصدىء ويمتلىء بالعلق النامى . ولم يكن اهل العصور الوسطى يعلمون شيئا عن الميكروبات (والظاهر ان روجر بيكون ، القسيس العالم الذى عاش فى القرن الثالث عشر ، قد اشتبه

www.ibtesama.com/vb/

فى وجودها ولكنه كان حكيما فى كتمان هذا الكشف) فكانوا يشربون فى كثير من الاحيان ماء قذرا ، ومن ثم كان البحارة فى بعض الاحيان يموتون جميعا بالحمى التيفودية . والحق ان الوفيات على ظهر سفن الملاحين الأولين بلغت رقما مخيفا . ذلك انه لم يرجع من النوتية المائتين الذين غادروا اشبيلية عام ١٥١٩ ، ليصحبوا مجلان فى رحلته المشهورة حول

ماجلان

العالم ، الا ثمانية عشر نوتيا فحسب . أما الوفيات فى عهد متاخر عن ذلك ، اى فى القرن السابع عشر عندما كانت التجارة ناشطة بين غربى أوربا وجزر الهند ، فكانت اذا بلغت نسبتها ٤٠ ٪ فى رحلة من امستردام الى باتافيا ذهابا وايابا ، فان ذلك لم يكن يعد امرا غير مألوف . وكان معظم هؤلاء الضحايا يموتون بالاسقربوط ، وهو مرض ينجم عن الافتقار الى الخضراوات الطازجة ، ويؤثر فى لثة المصابين فيسمم الدم ، فتفيض روح المريض من اضمحلال قواه فحسب .

وانت اذا تدبرت هذه الظروف فانك سوف تدرك لماذا كان البحر لايجتذب خير عناصر السكان . وآية ذلك ان مشاهير المستكشفين امثال ماجلان وكولمبس وفاسكو داجاما ، قد قاموا برحلاتهم على راس نوتية معظمهم من طريدى السجون والنزاعين الى سفك الدماء والنشالين .

ولا شك ان هؤلاء الملاحين جديرون باعجابنا للشجاعة والبسالة اللتين تدرعوا بهما فى اتمام مهامهم الثقيلة التى جابهوا فى سبيلها صعابا لايمكن ان يتصورها اهل عصرنا الذين شبوا فى احضان النعيم .

فقد كانت سفنهم متداعية : امراسها فجة ، وصواريها خشنة غليظة الصنع . وقد توفر لهم منذ منتصف القرن الثالث عشر شىء أشبه بالبوصلة انتقل الى اوربا من الصين عن طريق بلاد العرب والحروب الصليبية ، ولكن الخرائط التى تأتت لهم كانت سيئة للغاية بعيدة عن الدقة . وكانوا يتخذون سبيلهم فى البحر متكلين على الله ، معتمدين على الحدس والتخمين . فاذا واتاهم الحظ عادوا الى اوطانهم بعد سنة او سنتين او ثلاث سنوات ، واذا ادبر عنهم ثوت عظامهم على شاطىء مهجور . . . ولكنهم كانوا روادا بحق ، يقامرون بحظوظهم . وكانت الحياة فى نظرهم مغامرة مجيدة . وكانوا ينسون كل مايقاسون من عذاب وعطش وجوع والم اذا مالاحت لهم أطياف تشف عن معالم شاطىء جديد ، او راوا مياها ساكنة لمحيط لم يفطن اليه احد منذ بدء الخليقة .

وها هى ذى الرغبة تعاودنى فاتمنى لو اننى استطعت ان افيض فى هذا الكتاب حتى تبلغ صفحاته الألف عدا . ذلك ان الحديث عن الاستكشافات الأولى شائق خلاب . ولكن التاريخ ، التاريخ الذى يعطيك فكرة صحيحة عن العصور الماضية ، يجب ان يكون شبيها بتلك الصور المحفورة التى درج واصبرانت على صنعها . ويجب ان يلقى ضوءا واضحا على بعض الأسباب الهامة ، على أوجهها واعظمها . اما سائر الأسباب فيجب ان تبقى فى الظلال او يشار اليها فى سطور قليلة . وحسبى فى هذا الفصل ان أزودك ببيان قصير عن اهم الاستكشافات .

ولا يغيبن عن بالك ان الملاحين انما كانوا يسعون خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر باسرهما الى تحقيق شىء واحد : الا وهو الكشف عن طريق سهل آمن الى امبراطورية الصين وجزائر زيبانجو (اليابان) والى تلك الجزائر العجيبة التى كانت تنبت فيهما الأفاويه . . ذلك أن أهل العصور الوسطى اصبحوا يستطيبونها منذ الحروب الصليبية ، كما انهم كانوا فى حاجة اليها لأن طريقة حفظ الطعام فى الثلاجات لم تكن قد استحدثت آنئذ ، وكانت اللحوم والأسماك تفسد بسرعة شديدة ، فلا يستطيع الناس أكلها الا اذا تبلت تتبيلا بالفلفل وجوزة الطيب .

وقد كان البنادقة والجنويون اعظم الملاحين فى البحر المتوسط ، الا ان الفضل فى استكشاف شاطىء المحيط الأطلسى يعود الى البرتغاليين . ذلك ان نفوس الاسبانيين والبرتغاليين كانت متاججة بنار الحماسة الوطنية التى ذكاها ذلك النضال الذى لم يكن يخمد له

www.ibtesama.com/vb/

أوار بينهم وبين غواتهم المقاربة . وهذه الخماسة اذا وجدت كان من السهل ان تنصرف الى ميادين جديدة .

ففي القرن الثالث عشر غزا الملك الفونسو الثالث مملكة ألغرب (Algarve) التي كانت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة الاسبانية وضمها الى املاكه . وفي القرن التالي قضى البرتغاليون على المسلمين ، وعبروا مجاز جبل طارق ، واستولوا على مدينة سبتة التي كانت تقابل المدينة العربية « طريفة » (وهي كلمة عربية معناها « مستحدثة » انتقلت الى اللغة الانجليزية عن الاسبانية بصيغة (Tariff)) ، وعلى مدينة طنجة التي اصبحت قصبة الولاية الافريقية التي انحقت بمملكة الغرب .

وكان هؤلاء القوم متاهبين لاستهلال حياتهم في القيام باعمال الاستكشاف . ففي سنة ١٤١٥ شرع الأمير هنري ـ المعروف بهنري الملاح ، ولد جون الأول صاحب البرتغال من زوجه فيليبا ابنة جون صاحب جونت (Gaunt) (ويمكنك ان تقرأ عنه في مسرحية ريتشارد الثاني لوليام شكسبير) ـ يتهيأ لاستكشاف شمال غربي افريقيا استكشافا منظما . وكان هذا الساحل الحار الرملي قد نزل به من قبل الفينيقيون واهل الشمال ، ومثل في ذاكرتهم بوصفه وطن « الرجل المتوحش » الأشعر الذي انتهينا الى تسميته بالغوريلا . واخذ الأمير هنري ورجاله يتعاقبون على ارتياد جزائر الكنار ، واستكشفوا من جديد جزيرة ماديرا التي حلت بها قبل ذلك بقرن سفينة جنوية ، ورسموا بعناية خريطة بحرية لجزائر الأزور ـ وكانت معرفة البرتغاليين والاسبانيين بها مشوبة بالغموض والأبهام ـ والقوا نظرة على مصب نهر السنغال على الشاطىء الغربي لقارة افريقيا ، وظنوا انه المصب الغربي لنهر النيل . وما وافى منتصف القرن الخامس عشر حتى رأوا اخيرا الرأس الأخضر وجزائره التي تكاد تقوم في منتصف الطريق بين ساحل افريقيا والبرازيل .

على ان هنري لم يقتصر في استكشافاته على مياه المحيط . فقد كان مقدما لفرقة فرسان المسيح . وكانت هذه الهيئة فرعا برتغاليا متأخرا من الداوية (Templars) الذين حلهم البابا كلمنت الخامس عام ١٣١٢ اجابة لملتمس ملك فرنسا فيليب الجميل ، وقد انتهز هذا الملك الفرصة فاحرق الداوية الفرنسيين على السفود وسلبهم املاكهم . واستغل الأمير هنري دخل فرقته الدينية واملاكها في تجهيز عدة حملات ارتادت الأرض المناوحة للصحراء وساحل غينيا .

بيد ان هنري كان لا يزال بعد المثال الصادق لأهل العصور الوسطى ، ومن ثم قضى وقتا طويلا وانفق مالا كثيرا في البحث عن «برستر جون» الخفي ، وهو ذلك الكاهن النصراني الأسطوري الذي كان فيما يقال امبراطور دولة مترامية الأطراف « تقوم في مكان مامن الشرق » . وقد رويت قصة هذا العاهل العجيب أول مارويت في أوربا في منتصف القرن الثاني عشر ، وظل الناس ثلثمائة سنة يحاولون العثور على برسترجون وسلالته ، واشترك هنري في هذا البحث ، ولم يكشف الغطاء عن هذا اللغز الا بعد موته بثلاثين عاما .

ففي عام ١٤٨٦ كان بارثلوميو دياز يحاول العثور على امبراطورية برسترجون عن طريق البحر ، فبلغ طرف افريقيا الجنوبي ، فسماه في أول الأمر « راس الزوبعة » نسبة للرياح الشديدة التي حالت بينه وبين الاستمرار في رحلته الى الشرق ، ولكن ملاحي لشبونة الذين ادركوا اهمية هذا الكشف بالنسبة لبحثهم عن طريق بحري الى الهند ، غيروا هذا الاسم وجعلوه راس الرجاء الصالح .

وبعد ذلك بعام خرج **بدرو ده كوفيلام** مزودا باوراق اعتماد من بيت مدينتشي على راس بعثة ملتمسا طريقا الى الشرق . . فعبر البحر المتوسط ، ويمم صوب الجنوب بعد ان جاوز مصر ، فبلغ عدن ، ومن ثم عبر مياه الخليج الفارسي التي لم يرتدها منذ ايام الاسكندر الأكبر قبل ذلك بثمانية عشر قرنا الا الأقلون من الرجال البيض ، ثم زار جوا وقاليقوط على شاطىء الهند ، وسمع هنالك عدة اخبار عن جزيرة القمر (مدغشقر) التي كان يظن انها تقوم في منتصف الطريق بين افريقيا والهند . ثم قفل راجعا ، وزار مكة والمدينة في مهمة سرية ، وجاز البحر الاحمر مرة اخرى ، وكشف في عام ١٤٩٠ مملكة برسترجون ، ولم يكن هذا العاهل الا نجاشي (ملك) الحبشة الذي كان اسلافه قد اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع ، اي قبل ان تهتدي البعوث النصرانية الى اسكندناوة بسبعمائة عام .

وقد اقنعت هذه الرحلات الكثيرة الجغرافيين واصحاب الخرائط البرتغاليين بأن الرحلة الى جزائر الهند عن طريق الشرق ممكنة ، وان لم تكن هينة بحال من الأحوال . وهنا ثار جدل كبير ، ذلك ان بعض الناس راوا استمرار اعمال الكشف شرق راس الرجاء الصالح ، في حين قال غيرهم « لا ، بل يجب ان نبحر غربا مخترقين المحيط الأطلسي وسوف يؤدي بنا ذلك الى الصين » .

www.ibtesama.com/vb/

ولنبادر بالقول فى هذا المقام بأن أرجع الناس عقولا فى تلك الأيام كانوا مؤمنين ايمانا جازما بأن الارض ليست مبسوطة كالفطيرة . ذلك ان علماء عصر النهضة كانوا قد نبذوا منذ عهد طويل المذهب البطلمى فى نظام الكون الذى ابدعه وفصله كلوديوس بطلميوس الجغرافى المصرى العظيم الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى ، وهو النظام الذى اوفى بحاجات الناس البسيطة فى القرون الوسطى . واعتنق هؤلاء العلماء مذهب الرياضى البولندى نيقولاوس كوبرنيقوس الذى ادت به دراساته الى الاقتناع بأن الأرض كوكب من كواكب كروية تدور حول الشمس. وقد ظل كوبرنيقوس ستة وثلاثين عاما لايجسر على نشر هذا المذهب (طبع عام ١٥٤٣ ، وهو العام الذى قضى فيه نحبه) خوفا من محكمة التفتيش ، وهى محكمة بابوية اقيمت فى القرن الثالث عشر عندما هددت مذاهب الألبجنيين والفالدنس المارقة فى فرنسا وايطاليا سلطان اساقفة روما المطلق الى حين، وكانت هذه المذاهب منحرفة انحرافا يسيرا ، اما القائلون بها فكانوا اناسا من اهل الورع والتقوى لم يؤمنوا بالملكية الخاصة ،وآثروا عليها عيشة التقشف تشبها بالمسيح . على ان الاعتقاد بكروية الارض كان شائعا بين خبراء الملاحة ، وكان هؤلاء ـ كما سبق انذكرت ـ قد اخذوا آنئذ يتناقشون فى المفاضلة بين مزايا الطريقين : الشرقى والغربى .

وكان من انصار الطريق الغربى ملاح جنوى يدعى كريستوفر كولمبو ابن تاجر من تجار الصوف . والظاهر ان كولمبو كان طالبا فى جامعة بافيا تخصص فى الرياضيات والهندسة ، ثم اتخذ مهنة ابيه . ولكنه سرعان ما القى نفسه فى خيوس فى شرقى البحر المتوسط مرتحلا فى شأن من شئون تجارته . ونسمع به من بعد يقوم برحلات الى انكلترا ، ولا نعلم ان كان قد شخص الى الشمال طلبا للصوف او ربانا لسفينة من السفن . ثم زار ايسلندة فى فبراير عام ١٤٧٧ اذا اخذنا بكلامه ، واغلب الظن انه لم يتجاوز جزائر فارو التى يشتد بردها فى فبراير الى حد يفتفر معه الخطأ لمن يحسبها ايسلندة . وهنالك لقى احفاد اهل الشمال الشجعان الذى استقروا فى جرينلندة فى القرن العاشر ، وزاروا امريكا فى القرن الحادى عشر ايام ان جنحت سفينة ليف الى شاطىء ارض الكروم أو الى لبرادور .

ولم يعرف احد ماكان من امر تلك المستعمرات الغربية . ذلك ان المستعمرة الامريكية التى اقامها ثورفن كارلسفن ، زوج ارملة ثورشتين اخى ليف ، تقطعت بها الاسباب ثلاث سنين من بعد بسبب عداوة الاسكيمو ، اما جرينلندة فكانت قد انقطعت اخبار مستعمريها تماما منذ سنة ١٤٤٠ . والراجح أن الطاعون الذى قضى وشيكا على نصف سكان النرويج كان قد اتى على اهلها جميعا . ومهما يكن من شىء فان اخبار قيام « ارض مترامية الاطراف فى الغرب البعيد » كانت لاتزال باقية بين اهل جزائر فارو وايسلندة ، ولا بد ان يكون كولومبو قد سمع بها . ثم انه جمع معلومات اخرى من صيادى السمك فى الجزائر الاسكتلندية الشمالية ، ثم شخص الى البرتغال حيث تزوج ابنة احد الربابنة الذين خدموا الأمير هنرى الملاح .

وكرس كولمبو حياته من هذا اليوم (سنة ١٤٧٨) للبحث عن الطريق الغربى الذى يؤدى الى جزائر الهند ، وبعث بخططه التى رسمها للقيام بهذه الرحلة الى البلاط البرتغالى والبلاط الاسبانى . وكان البرتغاليون مؤمنين بانهم يحتكرون الطريق الشرقى فاشاحوا عنه . اما فى اسبانيا فقد تزوج فرديناند صاحب اراغون من ايزابيلا ملكة قشتالة عام ١٤٦٩ ، فادى ذلك الى توحيد المملكتين . على ان هذين الملكين كانا مشغولين بطرد المغاربة من آخر معاقلهم فى غرناطة ، ومن ثم لم يكن لديهما مال يغامران به فى مثل هذه الرحلات التى لاتؤمن عواقبها . وكانا فى حاجة الى كل قرش لانفاقه على جنودهما .

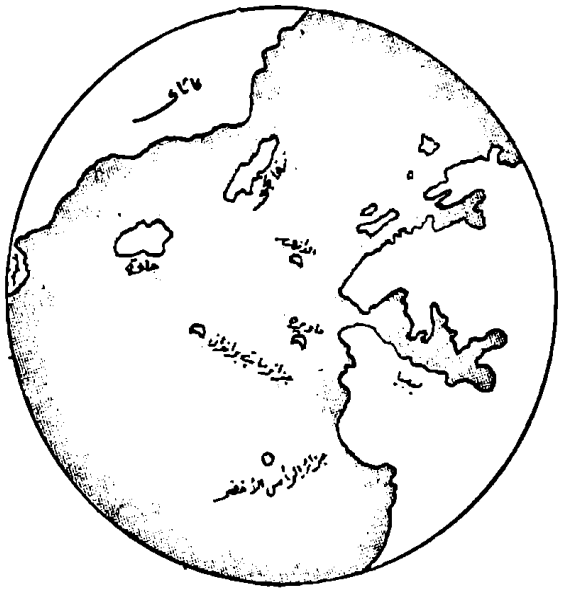

العالم كما كان يظنه كولومبس

www.ibtesama.com/vb/

وقل من الناس من اضطرته الظروف الى النضال المر فى سبيل افكاره كما اضطرت هذا الايطالى الشجاع . ومع كل فان قصة كولمبو او كولون او كولومبس كما نسميه ، شائعة ذائعة لاتتطلب منا الاعادة والتكرار .

وصفوة القول ان المغاربة سلموا غرناطة فى الثانى من يناير عام ١٤٩٢ . وفى ابريل من السنة نفسها ابرم كولومبس عقدا مع ملك اسبانيا وملكتها . وفى يوم الجمعة الثالث من اغسطس ابحر من ميناء بالوس فى ثلاث سفن صغيرة عليها ٨٨ بحارا . وكان كثير منهم من المجرمين الذين وعدوا بالعفو اذا هم انضموا اليه فى رحلته . وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم الجمعة الثانى عشر من اكتوبر ابصر كولومبس اليابسة . وفى اليوم الرابع من يناير عام ١٤٩٣ لوح بيديه مودعا رجال قلعة لانافيداد الصغيرة الاربعة والاربعين وقفل راجعا الى وطنه ، ولم يبق من هؤلاء احد على قيد الحياة . وما ان حل منتصف فبراير حتى كان كولومبس قد بلغ جزائر الازور حيث تهدده البرتغاليون بالقائه فى السجن .

وفى الخامس عشر من مارس عام ١٤٩٣ بلغ هذا الرائد بالوس ، وبادر هو وهنوده بالسفر الى برشلونة لينبىء مولاه ومولاته البارين بان رحلته كللت بالنجاح ، وان الطريق الى ذهب الصين واليابان وفضتهما ، قد اصبح رهن اشارة صاحبى الجلالة الملكين المتقدين غيرة على الكاثوليكية .

ولكن هيهات ، فقد كان كولومبس فى ذلك ابعد ما يكون عن الصواب . ولعله ادرك فى اخريات ايامه ان كشفه هذا لم يكتب له النجاح عندما بلغ فى رحلته الرابعة ارض امريكا الجنوبية نفسها . على انه مات وهو يؤمن ايمانا جازما بانه ليس ثمة قارة حقيقة بهذا الاسم بين اوربا وآسيا ، وانه اهتدى الى الطريق المستقيم الى الصين .

اما البرتغاليون فقد كانوا فى الوقت نفسه ، مستمسكين بايمانهم بالطريق الشرقى ، فحالفهم التوفيق اكثر مما حالفه ، ذلك ان فاسكو داجاما استطاع فى عام ١٤٩٨ ان يبلغ شاطىء ملبار ، ويعود آمنا الى لشبونة وفى جعبته شحنة من الافاويه .

وفى عام ١٥٠٢ عاود الرحلة الى ملبار . ولكن جهود الرواد على طول الطريق الغربى باءت بالخيبة المرة . ذلك ان جون وسباستيان كابو حاولا فى عام ١٤٩٧ وفى عام ١٤٩٨ ان يعثرا على طريق يؤدى الى اليابان ، ولكنهما لم يشاهدا الا سواحل نيو فوندلاند وصخورها الغارقة فى الجليد التى رآها اهل الشمال لاول مرة قبلهم بخمسة قرون . وارتاد امريكو فسبوتشى ساحل البرازيل ، ولكنه لم يجد اثرا لجزائر الهند . وكان امريكو هذا رجلا فلورنسيا اصبح ربان اسبانيا الاكبر ، وهو الذى نسبت اليه القارة الجديدة .

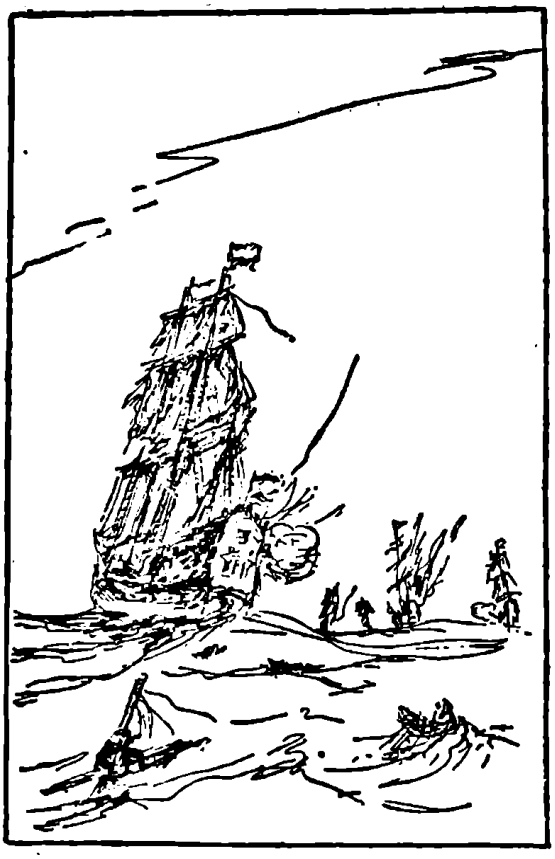

لحو عالم جديد

وفى عام ١٥١٣ ، اى بعد وفاة كولومبس بسبع سنين ، بدات الحقيقة تتكشف آخر الامر لجغرافيى اوربا ، ذلك ان فاسكونونيز دى بلبآو كان قد عبر برزخ بنما وتسلق القمة المشهورة فى دارين ، واشرف من عل على بحر مترامى الاطراف من الماء اوحى بوجود محيط آخر ..

وانتهى الامر بأن ابحر فى عام ١٥١٩ اسطول من خمس سفن اسبانية صغيرة يقودها الملاح البرتغالى فرديناند ده ماجلان ميمما صوب الغرب طلبا للافاويه ذلك ان الطريق الى الشرق كان يحتكره البرتغاليون ، لا يسمحون بأن ينافسهم فيه منافس . واجتاز

www.ibtesama.com/vb/

ماجلان المحيط الاطلسى بين افريقية والبرازيل ، ثم اتجه الى الجنوب فبلغ قناة ضيقة بين الطرف الجنوبى لبتاجونيا (ارض اصحاب الاقدام الكبيرة) وبين جزيرة النار ... نسبة الى النار التى ابصرها الملاحون فى ليلة من الليالى ، وكانت الدليل الوحيد على أن هذه الارض مسكونة بقوم من بنى الانسان . وظلت سفن ماجلان خمسة اسابيع أو نحوها تحت رحمة الزوابع والاعاصير المروعة التى كانت تكتسح هذه المضايق. فدب العصيان بين الملاحين ، فقمعه ماجلان بمنتهى الشدة والقسوة ، وقذف باثنين من رجاله الى الشاطىء ، وتركهما يكفران عن جريرتهما كما يشاءان. ثم هدأت العواصف آخر الامر ، وانفرج المضيق ، وتكشف لماجلان عن محيط جديد كانت امواجه هادئة ساكنة ، فسماه المحيط الهادى . ثم استمر فى وجهته مغربا ، وظل يسير فى البحر ثمانية وتسعين يوما دون أن يقع بصره على اليابسة . واشرف رجاله على الهلاك جوعا وعطشا ، واخذوا ياكلون الجرذان التى نكبت بها السفن ، فلما أتوا عليها جميعا عمدوا الى مضغ قطع من الاشرعة تسكينا لالم الجوع .

وفى مارس عام ١٥٢١ ابصر ماجلان ارضا اطلق

الاستكشافات الكبرى فى نصف الكرة الغربى

www.ibtesama.com/vb/

عليها اسم اللادرون ، أى اللصوص ، لان أهلها كانوا يسرقون كل شيء تقع عليه أيديهم . ثم يمم صوب الغرب الى جزائر الأفاويه !

ثم رأى الارض ثانية . وكانت هذه المرة مجموعة من الجزائر القائمة بذاتها، فسماها الفلبين نسبة الى فيليب ابن مولاه شارل الخامس ، وهو فيليب الثانى الذى اشتهر فى التاريخ بقبح صيته . واستقبل ماجلان فى أول الأمر استقبالا حسنا ، ولكنه ما ان استخدم مدافع سفنه لادخال اهل هذه الجزائر الأصليين فى المسيحية حتى قتلوه هو وعدد من ربابنته وملاحيه، واحرق من نجا منهم من الموت سفينة من السفن الثلاث التى بقيت لهم ، واستأنفوا رحلتهم فاهتدوا الى جزائر ملقا المشهورة بالأفاويه ، وشاهدوا بورنيو، وبلغوا تيدور .

وهنالك تخلفت احدى السفينتين هى وبحارتها ، لانها كانت قد رثت وتخللتها المياه فلم تعد صالحة للملاحة . واجتازت السفينة « فيتوريا » يقودها سبستيان دل كانو ، المحيط الهندى ، وغابت عنها رؤية الشاطىء الشمالى لاستراليا ، وهى القارة التى لم تكتشف الا فى النصف الأول من القرن السابع عشر عندما ارتادت سفن شركة الهند الشرقية الهولندية هذه الأرض المستوية المحلة . ثم وصلت هذه السفينة الى اسبانيا بعد أن صادفت الأهوال .

وكانت هذه الرحلة اشهر الرحلات جميعا . وقد استغرقت ثلاث سنين ، واقتضى القيام بها تضحيات عظيمة فى الرجال والمال . ولكنها قررت حقيقة من الحقائق ، الا وهى ان الارض كروية ، وان الاراضى الجديدة التى كشفها كولومبس لم تكن جزءا من جزائر الهند بل قارة قائمة بذاتها . وقد صرفت اسبانيا والبرتغال من ذلك اليوم كل جهودهما الى تنمية أسباب تجارتهما مع الهند وامريكا . وأراد البابا اسكندر السادس ـ وكان الوثنى المشهور الوحيد الذى انتخب لهذا المنصب الدينى الأجل ـ أن يحول دون نشوب نزاع مسلح بين هاتين الدولتين، فتفضل بتقسيم العالم الى قسمين متساويين أقام بينهما حدا يساير الدرجة الخمسين من خطوط الطول غربى جرينتش ، وهو الذى عرف بقسمة توردسيلاس ، التى تمت عام ١٤٩٤ . ومن ثم أصبح لزاما على البرتغاليين أن يقيموا مستعمراتهم شرقى هذا الحد ، وان يقيم الأسبان مستعمراتهم غربيه . وهذا يفسر لنا لم أصبحت قارة امريكا باسرها ، ماعدا البرازيل، اسبانية، على حين أصبحت جزائر الهند كلها هى والجزء الأكبر من البرازيل برتغالية ... الى ان قام المستعمرون الانكليز والهولنديون الذين لم يحترموا أحكام البابا بانتزاع هذه الاملاك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولما بلغت أنباء استكشافات كولومبس مملكة البندقية ، التى كانت سوق المال فى القرون الوسطى ، غشى اهلها ذعر مريع، فانخفض سعر العملة والعقود اربعين فى المائة بل خمسين ، ثم تبين بعد أمد قصير أن كولومبس لم يوفق الى طريق يؤدى الى الصين ، فهدأ روع التجار البنادقة . على ان رحلات داجاما وماجلان اثبتت امكان قيام طريق بحرى شرقى الى جزائر الهند . ومن ثم أخذ حكام جنوة والبندقية ـ وهما المدينتان اللتان كانتا اهم مركزين للتجارة فى العصور الوسطى وعصر النهضة ـ يندمون على رفضهم الاستماع الى رأى كولومبس . ولكن هيهات ان ينفع الندم ! .. ذلك ان بحرهم المتوسط اصبح بحرا داخليا ، كما ان الاتجار مع جزائر الهند والصين اضمحل وفقد ماكان له من شأن ، ودالت أيام العز القديمة التى نعمت بها ايطاليا . وغدا المحيط الأطلسى المركز الجديد للتجارة ، ومن ثم المركز الجديد للحضارة ، وظل هذا شأنه الى اليوم .

فانظر كيف تطورت الحضارة تطورا عجيبا منذ تلك الأيام الخوالى التى انقضى عليها خمسون قرنا ، وقت أن كان سكان وادى النيل قد شرعوا يسجلون حوادث التاريخ . وانتقلت من وادى النيل الى ارض الجزيرة ، بلاد مابين النهرين . ثم جاء دور كريت واليونان فروما ، واصبح بحر من البحار الداخلية مركز تجارة العالم ، كما أصبحت المدن الحافة بالبحر المتوسط مهادا للفن والعلم والفلسفة والمعرفة . ثم اتجهت الحضارة فى القرن السادس عشر الى الغرب مرة أخرى وجعلت الدول المطلة على المحيط الأطلسى سادة الأرض .

ومن الناس من يقولون بان اثر الحرب العظمى فى

www.ibtesama.com/vb/

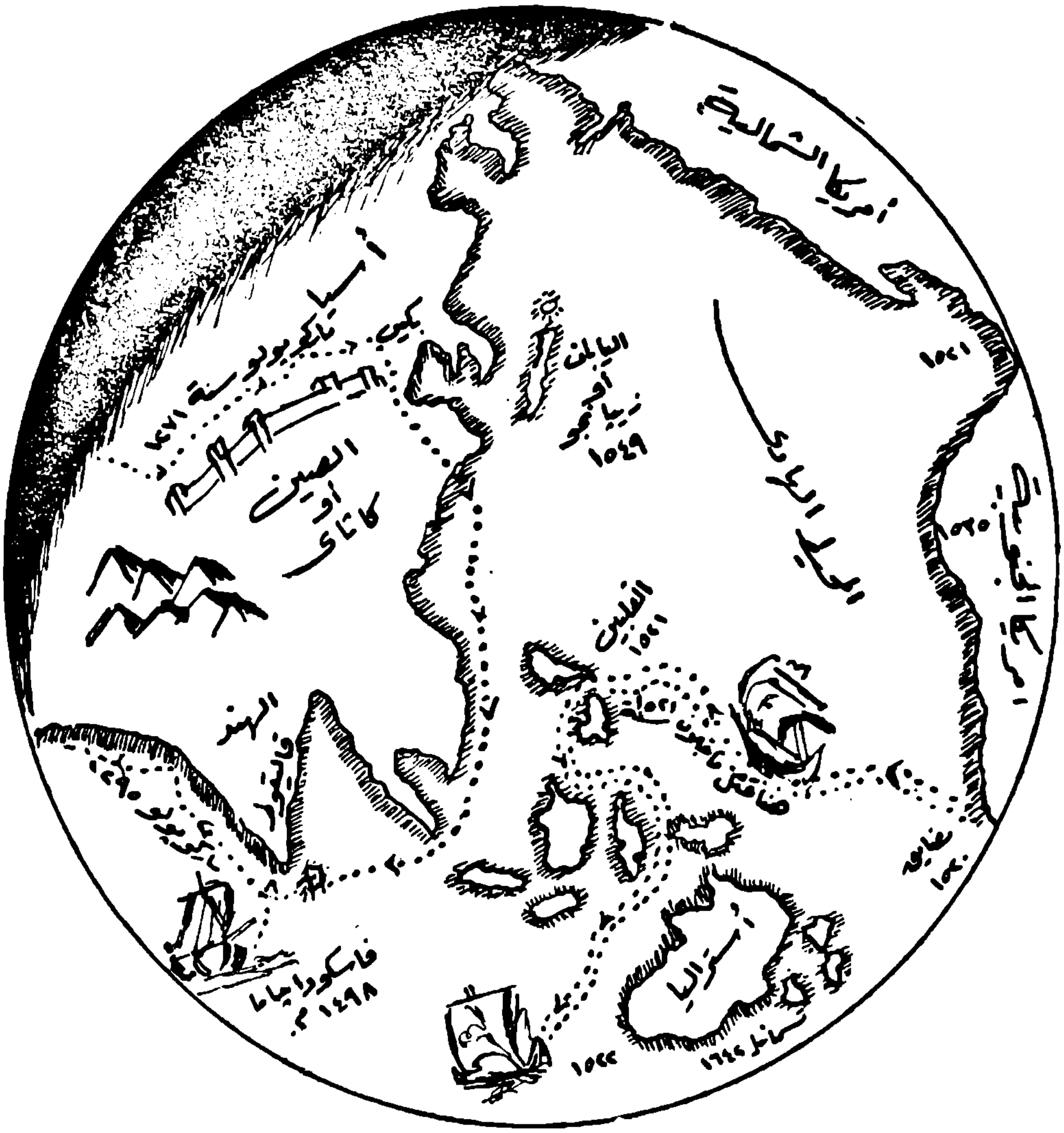

الاستكشافات الكبرى فى نصف الكرة الشرقى

www.ibtesama.com/vb/

دول أوربا الكبرى قد قلل من شأن المحيط الأطلسى الى حد كبير . وهم يتوقعون أن يروا الحضارة تنتقل من القارة الامريكية ، وتجد لها وطنا جديدا فى المحيط الهادى . ولكنى اشك فى هذا .

فالرحلة الى الغرب قد اقترنت بزيادة مطردة فى حجم المراكب واتساع فى أفق الملاحين . واستبدلت السفن ذات الشراع التى صنعها الفينيقيون والايجيون واليونان والقرطاجيون والرومان ، بالسفن المستوية القاع التى كانت تجرى فى النيل والفرات . ثم نبذ البرتغال والأسبان تلك السفن ، وصنعوا السفن المربعة الشراع . ثم اختفت هذه السفن من المحيطات وحلت محلها سفن الانكليز والهولنديين ذات الاشرعة الكثيرة .

على أن الحضارة لم تعد اليوم تعتمد على السفن ، فقد انتزعت الطائرة مكانة السفن الشراعية والبواخر ، وسيظل هذا حالها فى المستقبل . ولاشك ان موئل الحضارة فى المستقبل سيعتمد على تطور الطيران والقوة البحرية . ولسوف يغدو البحر مرة اخرى موطنا آمنا لصغار الاسماك التى كانت فى يوم من الأيام تشارك اجداد البشر الأولين مقرهم فى اعماق الماء .

بوذا وكونفشيوس

مايتصل ببوذا وكونفشيوس

افضت استكشافات البرتغاليين والاسبان الى قيام صلة وثيقة بين المسيحيين من اهل أوربا الغربية وبين اهل الهند والصين . وكان المسيحيون يعلمون بطبيعة الحال أن المسيحية لم تكن الدين الوحيد على ظهر الارض ، فقد كان هناك المسلمون ، ثم القبائل الوثنية فى شمالى افريقيا التى كانت تعبد العصى والحجارة والأشجار الداوية . على أن الغزاة النصارى وجدوا فى الهند والصين ملايين اخرى من البشر لم تكن قد سمعت قط شيئا عن المسيح ، وكانت راغبة عن ان تسمع عنه شيئا . ذلك انها كانت تعتقد ان دينها الذى عمر آلاف السنين اسمى بكثير من دين اهل الغرب .

ولما كان هذا الكتاب يروى قصة البشر كافة ، وليس تاريخا خاصا بأهل أوربا والنصف الغربى من العالم ، فانه يجدر بك ان تعلم شيئا عن رجلين لاتزال تعاليمهما والمثل التى سناها ، تؤثر فى افعال معظم اخواننا الذين يجوبون فجاج هذه الأرض وافكارهم .

يعد بوذا بين اهل الهند المعلم الدينى العظيم ، وتاريخه تاريخ شائق . فقد ولد فى القرن السادس قبل الميلاد على مرأى من جبال هملايا الهائلة حيث علم **زرادشت** ، اول زعيم عظيم للجنس الآرى ، قومه قبل ذلك باربعمائة سنة ان الحياة نزاع متصل بين **اهرمن وارمزد** ، اى بين اله الخير واله الشر . والجنس الآرى هو الاسم الذى اطلقه النوع الشرقى من الهنود الأوربيين على نفسه . وكان والد **زرادشت سدهدانا** زعيما قويا فى قبيلة **الساكيين** . وكانت امه **ماها مايا** ، ابنة الملك المجاور لهذه القبيلة ، تزوجت وهى بعد بنت صغيرة . وغاب القمر عدة مرات وراء قمم التلال البعيدة ولما يرزق زوجها بوريث يحكم بلاده من بعده ، ولكن زوجته حملت آخر الأمر وهى فى الخمسين من عمرها ، ورات أن يرى طفلها نور الحياة بين اهلها وعشيرتها .

وكانت الرحلة طويلة الى بلاد **الكليان** حيث قضت **ماهامايا** سنواتها الأولى . وفى ذات ليلة كانت تستريح تحت الأشجار الظليلة فى حديقة **لمبينى** وهناك وضعت طفلها . وقد سمى هذا الطفل **سدهارتا** ، ولكنا نعرفه باسم **بوذا** ، اى الرجل المستنير .

ولما حان الحين اشتد عود **سدهارتا** ، وغدا امرا شابا انيقا ، ثم تزوج ابنة عمه **ياسودهارا** عندما بلغ التاسعة عشرة . وقضى السنوات العشر التالية من عمره خلى البال ، لايعرف شيئا عن الالم أو العذاب وراء اسوار القصر الملكى المنيعة ، ينتظر اليوم الذى سوف يخلف فيه اباه على عرش **الساكيين** .

www.ibtesama.com/vb/

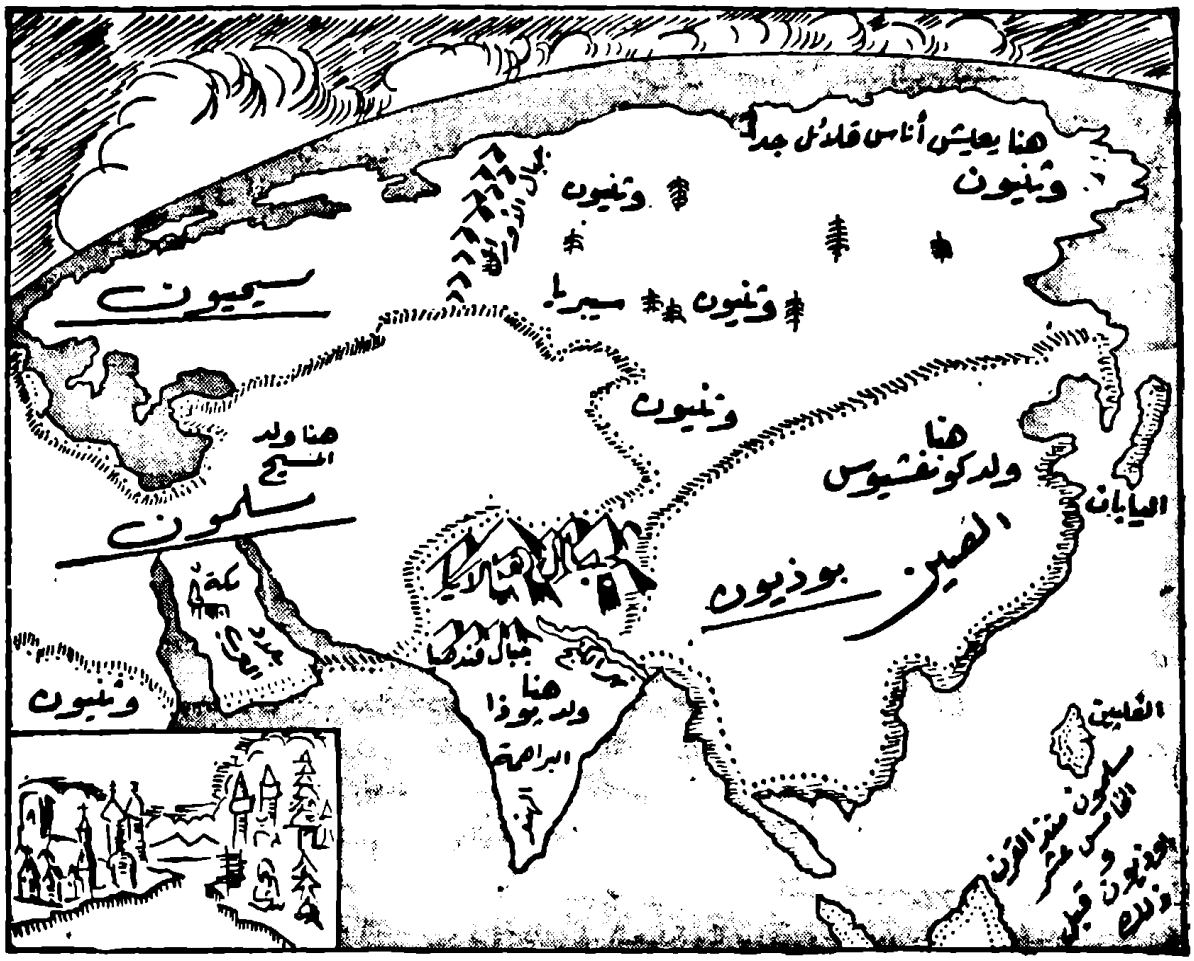

الديانات الثلاث الكبرى

واتفق أن ركب الأمير ذات يوم وهو فى الثلاثين من عمره ، وخرج من أبواب القصر ، فشاهد رجلا مسنا اضناه العمل حتى ناءت أرجله الكليلة عن حمل أعباء الحياة . فاشار اليه ، وسأل سائق عربته **تشنا** عن شأنه، فأجابه **تشنا** بان هذا العالم ملىء بالمساكين، يستوى ان يزيد عددهم واحدا او ينقص واحدا . فحزن الامير الشاب حزنا شديدا ولم يقل شيئا ، ثم قفل راجعا الى القصر ، وعاش مع زوجه وابيه وامه ، وحاول أن يكون سعيدا .

وترك الامير القصر مرة اخرى بعد ذلك بقليل ، فصادف رجلا يقاسى مرضا وبيلا ، فسأل سائق عربته **تشنا** عن سبب آلامه فاجابه بأن العالم ملىء بالمرضى ولا حيلة لنا فى دفع هذا البلاء ، ولاينبغى ان نهتم به كثيرا . ولما سمع الأمير الشاب ذلك حزن حزنا شديدا ، ولكنه عاد ثانية الى اهله وعشيرته .

ومر على ذلك اسابيع قلائل . وفى ذات ليلة امر سدهارتا باعداد عربته كى يذهب بها الى النهر ليستحم . وفى الطريق اجفلت الخيل فجأة ، اذ رات جثة رجل متعفنة بشعة المنظر ملقاة فى حفرة على جانب الطريق . ففزع الأمير الشاب لأنه لم يكن قد ابيح له من قبل قط ان يرى مثل هذه الاشياء ، ولكن **تشنا** ساله الا يحفل بمثل هذه الأمور التافهة ، فالعالم ملىء بالأموات ، كما أن قانون الحياة يقضى بأن ينتهى كل شىء الى نهاية ، فليس فى العالم شىء خالد ، والقبر فى انتظار الجميع ولا مهرب منه .

ولما عاد **سدهارتا** الى مسكنه فى هذا المساء استقبل

www.ibtesama.com/vb/

بالموسيقى ، ذلك أن زوجته وضعت فى غيبته غلاما ، فابتهج الناس لأنهم عرفوا آنئذ أنه قد قيض لهم ولى للعهد، فقرعوا الطبول احتفالا بهذا الحادث . ولكن **سدهارتا** لم يشاركهم افراحهم ، فقد تكشفت الحياة امام ناظريه ، وعرف مايكتنف حياة الانسان من فواجع . وكان مشهد الموت والعذاب يلاحقه ملاحقة الحلم المزعج .

وكان القمر يتلألأ فى تلك الليلة ، فهب **سدهارتا** من مرقده ، واخذ يفكر فى امور كثيرة ، ورأى ان السعادة لن تعود اليه قط الا اذا وجد حلا لمعضلة الوجود . وصح عزمه على أن يلتمس هذا الحل بعيدا عن جميع الاشخاص الذين يحبهم ، فاتجه برفق الى الغرفة التى ترقد فيها زوجته مع طفلها ، ثم نادى خادمه الأمين **تشنا** وطلب منه ان يتبعه . وخرج الاثنان فى ظلمة الليل : احدهما يبحث عن سكينة نفسه ، والآخر يخدم سيدا محبوبا فى أمانة واخلاص .

وكان اهل الهند الذين ظل **سدهارتا** يجوس بينهم عدة سنين فى حالة تغير فى هذا الوقت نفسه ، ذلك ان الآريين النزاعين الى القتال ـ وهم ابناء عمومتنا الابعدون ـ كانوا قد غزوا اسلافهم ، اى الهنود الاصليين ، فى غير مشقة او عناء ، ثم غدوا بعد سادة عشرات الملايين من الرجال السمر الوادعين . واراد الآريون أن يمكنوا لسلطانهم ، فقسموا الشعب الهندى الى طبقات مختلفة ، ومن ثم فرض على اهل الهند تدريجا نظام من اشد نظم الطوائف صرامة وجمودا . وكانت سلالة الفاتحين من الهنود الاوربيين تنتسب الى ارفع هذه الطوائف ، وهى طائفة المحاربين والاشراف ، ثم تليها طائفة الكهنة ، ثم طائفة الفلاحين ورجال الاعمال . على ان الوطنيين القدماء الذين عرفوا باسم « **باريا** » كانوا طائفة من العبيد البؤساء المنبوذين ، ولم يكن لهؤلاء قط امل فى تغيير حالهم .

بل ان دين الشعب ايضا كان مسألة طائفية ، ذلك ان الهنود الاوربيين القدماء كانوا قد صادفوا فى اثناء تجوالهم الذى دام آلافا من السنين ، كثيرا من المغامرات العجيبة . وقد جمعت هذه المغامرات فى كتاب يعرف باسم « **فيدا** » كتب باللغة السنسكريتية ، وهى لغة وثيقة الصلة بشتى لغات القارة الاوربية نفسها ، اى اليونانية واللاتينية والروسية والالمانية وعشرات غيرها .

وسمح للطوائف الثلاث العليا بقراءة هذا الكتاب المقدس ، أما الباريا ـ وهم افراد الطائفة الدنيا المنبوذون ـ فلم يسمح لهم بمعرفة ما فى هذا الكتاب . والويل للنبيل او الكاهن الذى يدعو منبوذا الى قراءة هذا الكتاب المقدس . ومن ثم عاش معظم اهل الهند فى شقاء وبؤس ، فقد كان نصيبهم من السعادة على هذه الأرض قليلا جدا . فلم يجدوا بدا من الخلاص من آلامهم فى مكان آخر غير الأرض . وقد حاولوا أن يجدوا شيئا من العزاء فى حياة التأمل فيما ينتظرهم من نعيم فى الحياة الاخرى .

وكان **براهما** خالق كل شىء يعد فى نظر الهنود المتحكم دون سواه فى الحياة والموت ، فعبدوه بوصفه المثال الاعلى للكمال المطلق ، وقرروا ان التشبه ببراهما والتجرد من الرغبات التى تنزع بالمرء الى طلب الغنى والسلطان ، هو الغرض الأسمى من الوجود . وكانت الأفكار القدسية تعد فى نظرهم اهم من اعمال التقوى والصلاح ، لذلك ذهب كثير من الناس الى الصحراء وعاشوا على اوراق الشجر ، وافنوا اجسادهم بما يغذون ارواحهم بالتأمل فى عظمة وجلال براهما الحكيم الخير الرحيم .

وكان **سدهارتا** قد رأى فى كثير من الأحيان اولئك الهائمين المعتزلين الذين كانوا يطلبون الحقيقة بعيدا عن زحمة المدن والقرى ، فصح عزمه على أن يسير على منوالهم . فقص شعره واخذ لآلئه وياقوته وردها الى اهله مع رسالة وداع منه حملها تشنا تابعه الذى اقام على الاخلاص له ، وخرج هو الى البرية لا يتبعه احد .

وسرعان ماذاع ورعه وتقواه بين اهل الجبال ، وشخص اليه خمسة من الشباب والتمسوا منه ان يسمح لهم بالاستماع الى حكمته ، فوافق على أن يكون أستاذا لهم اذا هم تبعوه ... فرضوا ، فساربهم الى التلال وظل ست سنوات يلقنهم كل ماعرفه وهو يعيش بين قنن جبال فندهيا الموحشة . ولكنه ادرك فى نهاية هذه المدة من الدراسة انه لايزال بعيدا عن الكمال الذى ينشده ، فقد كان العالم الذى خلفه

www.ibtesama.com/vb/

وراءه لايزال يوسوس له . وعند ذلك سأل تلاميذه ان يتركوه ، فصـــام تسعة واربعين يوما بلياليها جالسا على جذور شجرة عتيقة ، واخيرا نال جزاءه من هذه اللحظة . . . ففى غسق الليلة الخمسين تجلى براهما لعبـده الأمين ، وعرف سدهارتا باسم بوذا، واخذ الناس يبجلونه بوصفه الرجل المستنير الذى جاء لخلاصهم من مصيرهم التعس الفانى . وصرف بوذا الخمس والاربعين السنة الأخيرة من حياته فى وادى نهر الـكنج يدعو دعوته البسـيطة ، الا وهى الخضوع والتواضع للناس جميعا . وتوفى بوذا عام ٤٨٨ قبل الميلاد بعد ان عمر طويلا ، واحبـه ملايين الناس .ولم يقصد بالدعوة الى تعاليمه مصلحة طائفة بعينها ، بل ان ادنى رجل من طائفة الباريا يحق له أن يسمى نفسه تلميذا لبوذا . على أن هـذا لم يرض الاشراف والـكهنة والتجـار الذين عملوا كل مافى وسعهم للقضـاء على تلك العقيـدة التى ترمى الى المساواة بين جميع المخلوقات وبعث الأمل فى حيـاة ثانية (التجسيد) فى ظل ظروف اسـعد واهنأ . وكانوا ما استطاعوا يشجعون اهل الهند على العودة الى عقائد براهما القديمة بما فيها من صيام وتعذيب للبدن الآثم . على انهم لم يستطيعوا القضـاء على البوذية ، ذلك أن اتباع بوذا قد انطلقوا فى اناة الى ماوراء وديان جبال الهملايا ، وذهبوا الى الصين ، ثم عبروا البحر الاصفر ، وبشروا بحكمة معلمهم بين اهل اليابان ، واطاعوا مخلصين رغبة معلمهم العظيم الذى نهاهم عن استخدام العنف . وقد زاد عدد المؤمنين بامامة بوذا عن ذى قبل ، فهم يزيدون اليـوم على اتباع المسيح ومحمد جميعا .

اما **كونفشيوس** ، حكيم الصين المسن ، فقصـته بسيطة . فقد ولد عام ٥٥٠ قبل الميلاد وعاش عيشـة هادئة كريمة خالية من الاحداث فى الوقت الذى كانت فيه الصين لاتحكمها حكومة مركزية قوية،وكان اهلها تحت رحمة قطاع الطرق وكبار اللصوص الذين كانوا يتنقلون بين المدن ، ينهبون ويسـرقون ويقتلون ويحيلون السهول العامرة فى شمالى الصين ووسطها أرضا بلقعا يتضور أهلها من الجوع .

وكان كونفشيوس يحب قومـه ، فسـعى الى تخليصهم مما هم فيه . ولم يكن قوى الايمان بجدوى العنف ، بل كان مسالما يؤمن بانه لايستطيع أن يخلق قومـه خلقا جـديدا اذا هو زودهم بمجموعـة من القوانين ، وانما كان يعـلم ان السـبيل الوحيد الى الخلاص لايتأتى الا اذا تغيرت القلوب . فنشـط لهذا الأمر الذى كان فى ظاهره لايرجى له فـلاح : الا وهو تغيير طبـاع الملايين من اتباعه الذين يسكنون وديان آسيا الشرقية الفسـيحة . ولم يـكن الصينيون يهتمون كثيرا بالدين بالمعنى الذى نفهمه من هـذه الكلمة ، فقد كانوا يعتقدون فى الشياطين والأشباح ، شـانهم فى ذلك شأن معظم الشعوب البدائية . عـلى انه لم يكن لهـم أنبيـاء ، وكانوا الى ذلك لايعترفون بالوحى أو بالكلمات المنزلة . ولعل كونفشيوس كان من دون ائمـة الحكماء جميعا الحكيم الذى لم يكن صاحب رؤيا ، أو قال انه رسول من عند الله ، كما انه لم يدع فى وقت من الاوقات انه تلقى وحيا من السماء .

كان كونفشيوس منصفا ، سليم التقدير ، رحيما منصرفا الى شطحات العزلة ــ والأنغام الحزينة تنبعث من نفسه التى تفيض بالصدق والاخلاص : لم يسأل أحـدا أن يعترف به ، ولم يطلب من احد ان يتبعه او يقدسه . وهو يذكرنا بفلاسفة اليونان القدماء ، وخاصة الرواقيين الذين كانوا يؤمنون بالحياة الحقة المستقيمة ، والتفكير المستقيم ، لاينتظرون مثوبة الا سكينة النفس التى تأتى مع القلب السليم .

وكان كونفشيوس رجلا شديد التسامح ، انعطف لزيارة لاوتسى الحكيم الصينى العظيم الآخر صاحب المذهب الفلسفى المعروف بالطاوية ، ولم يكن هـذا المذهب الا صورة صينية قديمة للشريعة الذهبية.

وكان كونفشيوس لايحمل ضغنا لاحد ، فقد كان يدعو الى فضيلة ضبط النفس والتحكم فيها . والرجل الفاضـل حقا فى رأى تعاليم كونفشيوس لايسـمح لنفسه بأن يخرجه الغضب عن طوره ، يتحمل كل مايصيبه به القدر بالتسليم المأثور عن اولئك الحكماء الذين يعلمون ان كل مايحدث يؤدى الى الخير على هذا الوجه او ذاك .

www.ibtesama.com/vb/

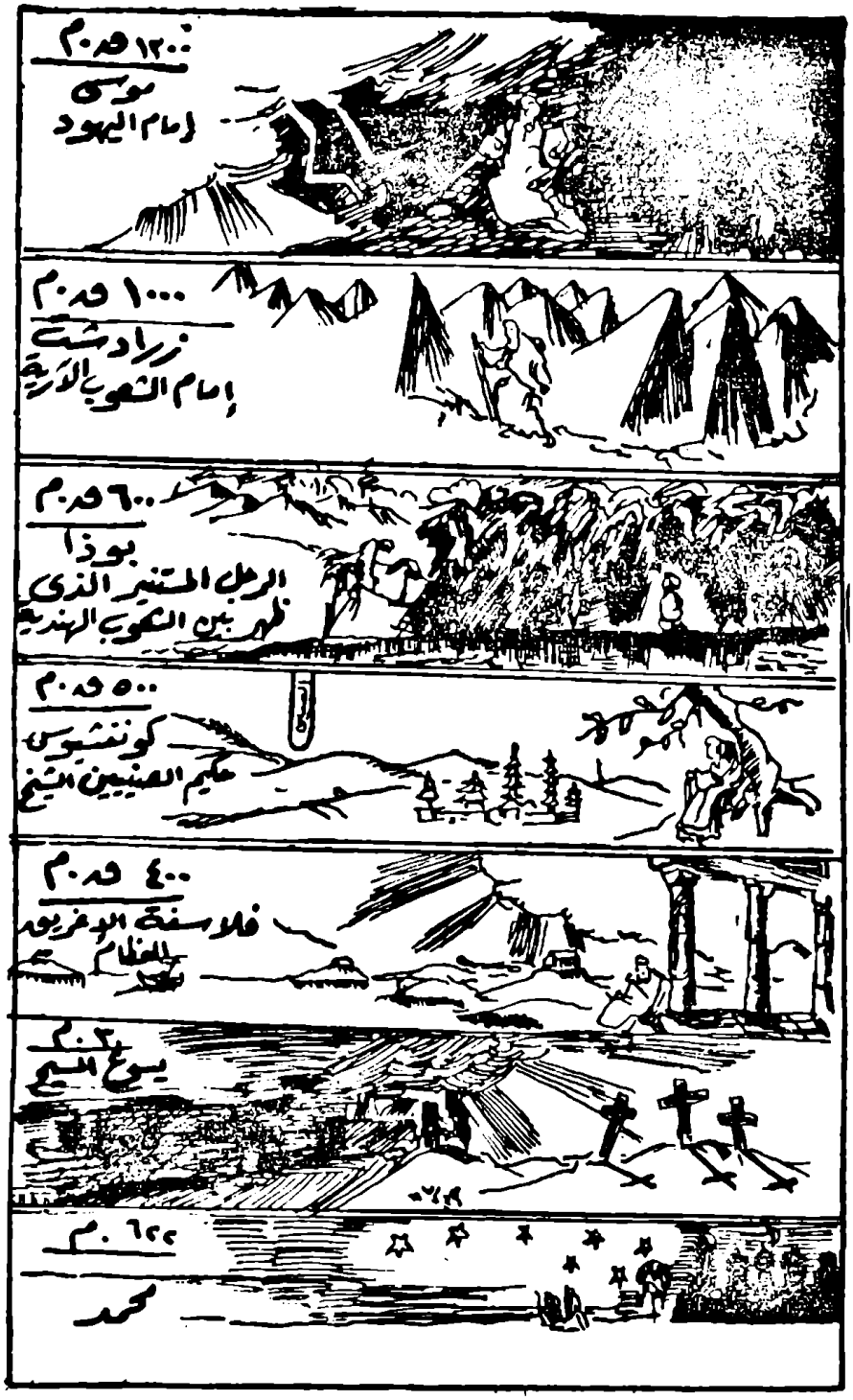

www.ibtesama.com/vb/

كان اتباع كونفشيوس قلة فى بادىء الامر ، ولكن عددهم زاد شيئا فشيئا ، وقد آمن به قبل وفاته عام ٤٧٨ قبل الميلاد ، نفر من ملوك الصين وامرائها . وكانت فلسفة كونفشيوس ، عندما ولد المسيح فى بيت لحم ، قد اصبحت من المقومات العقلية عند معظم أهل الصين ، واستمرت منذ ذاك تؤثر فى حياتهم . انها لم تكن — وهى تؤثر فيهم هذا التاثير — فى صورتها الخالصة الأصيلة ، ذلك أن معظم الأديان تتغير بمرور الزمن . فقد دعا المسيح الى التواضع ولين الجانب والبعد عن أطماع الدنيا ، ولكن ما ان انقضى على وفاته خمسة عشر قرنا بعد حادث جلجثه حتى كان رأس الكنيسة المسيحية ينفق ثروة طائلة على اقامة بناء لايمت الى حظيرة بيت لحم المنعزلة الا بسبب قليل . ولقد بشر لاو — تسى بالشريعة الذهبية ، فما ان انقضى على ذلك ثلاثة قرون أو اقل حتى كانت جماهير العامة قد جعلت منه الها حقا شديد القسوة ، وغيبت وصاياه الحكيمة تحت أكداس من الخرافات والأوهام ، فأحالت حياة أوساط الصينيين الى حلقة طويلة متصلة من المخاوف والمفازع والأهوال .

وبين كونفشيوس لتلاميذه مافى تمجيد آبائهم وأمهاتهم من فضائل ، وسرعان ما أخذ اهتمامهم يزداد بذكرى آبائهم الذاهبين أكثر من اهتمامهم بسعادة أبنائهم واحفادهم ... فعمدوا الى تولية ظهورهم عن المستقبل ، وحاولوا أن ينفذوا بأبصارهم الى حجب الماضى السحيق ، واصبحت عبادة السلف مذهبا دينيا واقعا . وكانوا يأبون انتهاك حرمة مقبرة قائمة على الجانب المشمس الخصيب من الجبل ، ويؤثرون أن يزرعوا أرزهم وحنطتهم على الجانب الآخر الصخرى المحل الذى لايمكن ان ينبت شيئا .

على ان كلمات كونفشيوس الحكيمة فى الوقت نفسه لم تفقد قط سلطانها على الملايين من معتنقى مذهبه فى آسيا الشرقية ، ذلك ان اقوال هذا المذهب البليغة وملاحظه السديدة ، قد اشعلت فى قلب كل صينى قبسا من فلسفة البديهة العامة ، واثرت فى حياته من جميع نواحيها : سواء اكان هذا الصينى غسالا بسيطا فى مغسل وضيع ، أم حاكم اقاليم مترامية الأطراف يسكن وراء الأسوار العالية لقصر قائم براسه .

وفى القرن السادس عشر جابه نصارى العالم الغربى الذين كانوا يلتهبون حماسة ، وان كانوا بعيدين عن المدنية ، عقائد الشرق القديم . فقد نظر الاسبان والبرتغاليون الأولون الى تماثيل بوذا الناطقة بالسلام ، وتأملوا صور كونفشيوس الجليلة ... فوقفوا حيالها عاجزين كل العجز ، لايعرفون مايصنعون بأولئك الأنبياء المبجلين الذين تنفرج اساريرهم عن ابتسامة بعيدة المغزى ، ثم انتهوا الى ذلك الراى البسيط ، وهو ان هذه الآلهة العجيبة ، ماهى الا شياطين تمثل الزيغ والهرطقة والوثنية فلا تستاهل احترام ابناء الكنيسة المسيحية المخلصين .

وكانوا اذا بدا لهم ان روح بوذا أو كونفشيوس أخذت تؤثر فى تجارة الأفاويه والحرير عمدوا الى دفع هذا الشر باطلاق رصاصهم ومدافعهم . وكان لهذا المسلك مساوىء لاشك فيها ، فقد خلف لنا تراثا مرذولا من الحقد لايبشر بخير كثير فى المستقبل القريب .

بذلك انتهى الجزء الاول من « قصة الجنس البشرى » وتنتهى هذه القصة العجيبة فى « كتاب الشعب » الرابع الذى يصدر فى اول يوليه سنة ١٩٥٧ .

www.ibtesama.com/vb/

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb/

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

تهيئة المسرح ٧

اسلافنا الاولون ١٠

انسان ما قبل التاريخ ١٢
بدأ فى صنع اشياء لنفسه

الهيروغليفية ١٤
اختراع المصريين فن الكتابة وبدء تدوين التاريخ

وادى النيل ١٦
نشأة الحضارة فى وادى النيل

قصة مصر ١٨
نهضة مصر وسقوطها

ما بين النهرين ١٩
ارض الجزيرة ، المركز الثانى للحضارة الشرقية

السومريون ٢٠
الكتاب السومريون الذين تحدثنا لوحاتهم الصلصالية بقصة اشور وبابل، البوتقة السامية العظيمة

موسى ٢٢
زعيم الشعب اليهودى

الفينيقيون ٢٤
الذين امدوا العالم بالابجدية

الجنس الهندى الاوربى ٢٤
الفرس ـ وهم من الجنس الهندى الاوربى ـ يغزون العالم السامى والعالم المصرى

بحر ايجه ٢٦
شعب بحر ايجه يحمل حضارة آسيا القديمة الى برارى اوربا

الاغريق ٢٩
قبيلة هيلين الهندية الاوربية تستولى على بلاد الاغريق

المدن الاغريقية ٣١
التى كانت دولا حقا

صفحة

الاغريق يحكمون انفسهم بانفسهم ٣٢
وهم اول قوم مارسوا تلك التجربة العسيرة

الحياة الاغريقية ٣٣
كيف كان يعيش الاغريق ؟

المسرح الاغريقى ٣٥
اصول المسرح ... اول صورة من صور الترفيه الشعبى

الحروب الفارسية ٣٧
كيف حمى الاغريق اوربا من الغزو الاسيوى وردوا الفرس على اعقابهم عبر بحر ايجه ؟

اثينا تناهض اسبرطه ٤١
كيف تقاتلت اثينا واسبرطه قتالا طويلا خطيرا فى سبيل زعامة اليونان ؟

الاسكندر الاكبر ٤٢
يقيم امبراطورية عالمية ، والمصير الذى انتهى اليه هذا المطمح العظيم

خلاصة ٤٣
عرض موجز للفصول العشرين الاولى

روما وقرطاجنة ٤٤
اقتتلت مستعمرة قرطاجنة السامية ـ التى كانت على الساحل الشمالى لافريقية ـ ومدينة روما الهندية الاوربية ـ التى كانت على الساحل الغربى لايطاليا ـ فى سبيل امتلاك غربى البحر المتوسط فقضى على قرطاجنة

قيام روما ٥٢
كيف قامت روما ؟

الامبراطورية الرومانية ٥٣
كيف اصبحت الجمهورية الرومانية امبراطورية بعد قرون سادها الاضطراب والفتن ؟

يسوع الناصرى ٥٨
قصة يشوع الناصرى ... الذى سماه الاغريق يسوع

www.ibtesama.com/vb/

صفحة

سقوط روما ٦٠
غروب شمس روما

قيام الكنيسة ٦٣
كيف اصبحت روما قصبة العالم المسيحى ؟

محمد (صلى الله عليه وسلم) ٦٧
النبى العربى الذى اوشك اتباعه ان يفتحوا العالم المعروف بأسره تمجيدا لله الاله الواحد الحق

شارلمان ٦٩
كيف تاتى لشارلمان ملك الفرنجة أن يحمل لقب الامبراطور ، وكيف حاول ان يحيى حلم القدماء باقامة امبراطورية عالمية

النورمان ، اهل الشمال ٧٢
لماذا ابتهل اهل القرن العاشر الى الله ان يحميهم من غضب اهل الشمال

النظام الاقطاعى ٧٤
كيف اصبحت اوربا الوسطى ـ بعد ان هوجمت من ثلاث جهات ـ معسكرا مسلحا ؟ وكيف كانت اوربا خليقة بأن يحل بها الدمار لولا ان قيض لها اولئك الجنود المحترفون والحكام الذين كانوا جزءا من النظام الاقطاعى

الفروسية ٧٥

البابا يناهض الامبراطور ٧٦
الولاء المزدوج العجيب الذى كان يدين به اهل العصور الوسطى ، وكيف ادى الى نزاع لا ينقطع بين البابوات وبين اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

الحروب الصليبية ٧٩
على ان هذا النضال على اختلاف انواعه تنوسى عندما استولى السلاجقة على الاراضى المقدسة ، وتدخلوا تدخلا خطيرا فى التجارة بين الشرق والغرب فهبت أوربا تحارب حربا صليبية .

المدينة فى العصور الوسطى ٨٢
لماذا قال اهل العصور الوسطى : ان « هواء المدينة هواء حر طلق » ؟

صفحة

حكم الشعب فى العصور الوسطى ٨٧
كيف قرر اهل المدن حقهم فى أن يستمع صوتهم فى المجالس الملكية فى بلادهم ؟

عالم العصور الوسطى ٩٠
فكرة اهل العصور الوسطى عن العالم الذى قدر لهم ان يعيشوا فيه

التجارة فى العصور الوسطى ٩٤
كيف جعلت الحروب الصليبية البحر المتوسط مرة اخرى يفيض بالحركة التجارية ، وكيف اصبحت مدن شبه الجزيرة الايطالية مركزا عظيما لتوزيع التجارة بين آسيا وافريقيا ؟

عصر النهضة ٩٨
اجترا الناس مرة اخرى على التفكير فى السعادة لا لشىء الا لانه قد كتبت لهم الحياة ، فحاولوا ان ينقذوا مابقى من حضارة الرومان واليونان التى التى كانت اقدم من حضارتهم واجنب الى قلوبهم ، وتملكهم الفخر والاعتزاز بما بلغوه من عرفان ، حتى لقد لهجت السنتهم بالنهضة او ببعث الحضارة من جديد .

عصر التعبير ١٠٤
بدا الناس يشعرون بحاجتهم الى التعبير عن مسرات الحياة التى كشفوها حديثا ، فعبروا عن سعادتهم بالشعر والنحت والعمارة والتصوير وبالكتب يطبعونها .

الاستكشافات العظيمة ١٠٧
اما وقد خرج الناس آنئذ عن الحدود الضيقة التى فرضتها عليهم العصور الوسطى ، فقد اقتضاهم ذلك التماس مجال افسح لتجوالهم . ذلك ان العالم الاوربى كان قد ضاق كثيرا عن أن يتسع لاطماعهم ، وكان الوقت قد آذن بقيامهم برحلاتهم الاستكشافية العظيمة

بوذا وكونفشيوس ١١٥
ما يتصل ببوذا وكونفشيوس

www.ibtesama.com/vb/

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb/

www.ibtesama.com

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

المفتاح الذهبى لكنوز الذكر الحكيم . أتى فيه مؤلفه ـ أثابه الله ـ بجميع ما ورد فى القرآن الكريم من ألفاظ . ورتب هذه الألفاظ على ترتيب المعاجم اللغوية . وذكر عدد المرّات التى وردها اللفظ ـ على سبيل الحصر ـ فى الكتاب الكريم . وأورد الآية التى جاء بها اللفظ ، مع رقمها فى السورة ، وميز مكّى الآيات من مدنيّها ، وذكر اسم السورة التى وردت بها الآية ، ورقمها .

فهو كتاب يغنى عن كل كتاب فى موضوعه .

فلفظ « إحسانا » مثلا ، قد ورد فى القرآن ست مرات و « محسن » أربع مرات ، وورد لفظ « محسنون » مرة واحدة ، و « محسنين » ثلاثا وثلاثين مرة . وهو يوردها هكذا :

اللفظة	الآية	رقمها	السورة	رقمها
إحسانا :	لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا	٨٣	م البقرة	٢
(٦)	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا	٣٦	م النساء	٤
	ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا	٦٢	م «	٤
	الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا	١٥١	م الانعام	٦
	وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ...	٢٣	ك الاسراء	١٧
	ووصينا الانسان بوالديه احسانا	١٥	م الاحقاف	٤٦
محسن :	بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه	١١٢	م البقرة	٢
(٤)	ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ...	١٢٥	م النساء	٤
	ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك			
	بالعروة الوثقى	٢٢	ك لقمان	٣١
	ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين	١١٣	ك الصافات	٣٧
محسنون :	ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون	١٢٨	م النحل	١٦
محسنين :	وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين	٥٨	م البقرة	٢
(٣٣)	وأحسنوا ان الله يحب المحسنين	١٩٥	م «	٢
	وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين	٢٣٦	م «	٢

إلى آخر الآيات الثلاث والثلاثين التى ورد فيها لفظ « محسنين » .

وتعنى « ك » أن الآية مكية ، و « م » الآية مدنية .

مَن اقتناهُ فكَسبُه لا يُقدَّر
ومَن فاتَهُ فخُسرُه لا يُعوَّض

يصدر فى سبعة من كتب الشعب

أولها يصدر فى أول ربيع الآخر (١٤ اكتوبر ١٩٥٨)

الثمن ٢٠ قرشاً

www.ibtesama.com/vb/

www.ibtesama.com/vb/